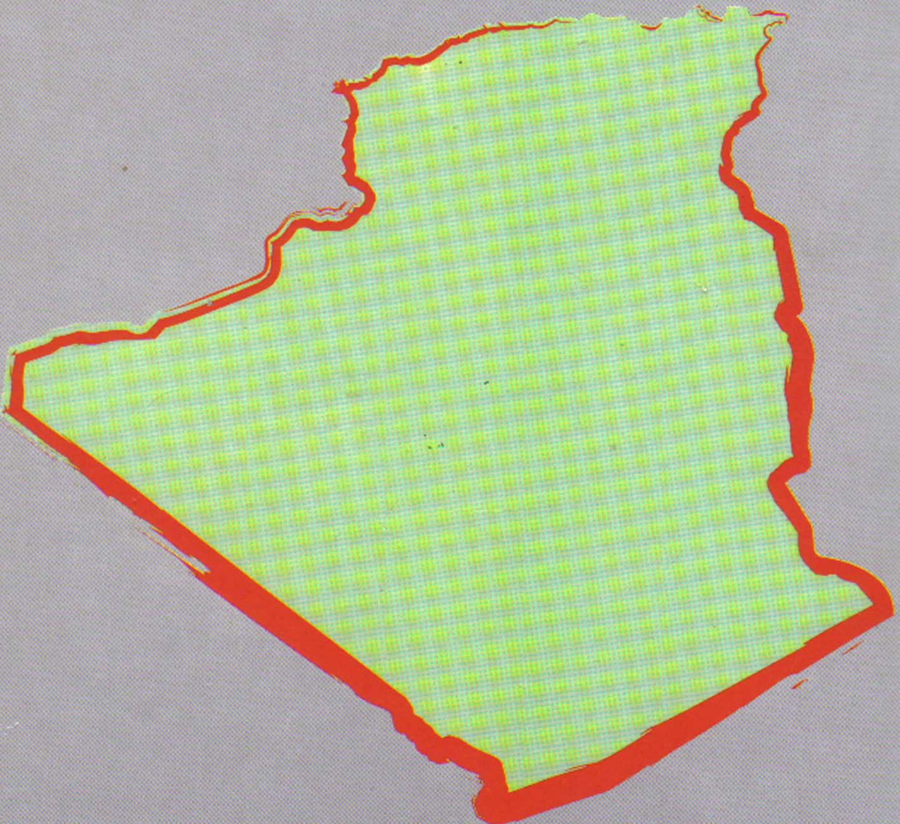
عمورة عمار

موجز في تاريخ الجزائر



عموره عمار

موجز في تاريخ الجزائر

دار ريحانه

دار ريحانة
للنشر والتوزيع

الإدارة العامة
28 شارع محمد فلاح
القبة-الجزائر

هاتف: 28/33/53 (021)
فاكس: 54/39/15 (021)

الطبعة الأولى -2002-

الإيداع القانوني:
410-2001
ردمك:
9961-822-34-X

تصفيف، تصميم، إخراج
نوال مجبر

غلاف: أستديو 27

دار ريحانة للنشر و التوزيع

دار ريحانة
للنشر والتوزيع

DAR RAIHANA
EDITIONS-DISTRIBUTION

دار ريحانة للنشر و التوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن إحياء الروح الوطنية يرتكز في كلَ الأمم على معرفة تاريخ الأمة، وأنَ تاريخ الجزائر الطويل حافل بالأحداث الحسنة و السيئة مثله مثل جميع تاريخ الشعوب التي مرت بهذه المعمورة يجب علينا أخذه كله بجدية دون تحريف أو انحياز أو تعصب لفترة على حساب الأخرى مع الاعتراف في نفس الوقت بالجميل لمن أحسن والتشديد على من أساء، وهذا ليكون عبرة للأجيال القادمة يستفيد منه في معرفة ذاته فيعتز بشخصيته ومن تم بناء مستقبله ويتفادى الوقوع في أخطائه مرة ثانية، ومن غير الممكن معرفة حاضرنا إذا كنا نجهل ماضينا لأن كلاهما مرتبط بالآخر. وأفضل كتب التاريخ هي تلك التي يدونها أبناء الوطن بإخلاص و نزاهة و جدية، ولا ننتظر من الأجانب أن يكتبوا تاريخنا مثلما حدث و يحدث حاليا و خاصة بعض المؤرخين الأوروبيين المعروفين بعدائهم و تشويههم لتاريخ هذه الأمة منذ القدم، فكيف و أنَهم حرفوا حتى عصر الأنوار الذي مرت به الجزائر في ظل الحضارة العربية الإسلامية، فكيف ننتظر مثلا من مؤرخ فرنسي أن يكتب عن تاريخ الإحتلال الفرنسي في الجزائر دون التستر عن الجرائم التي ارتكبها الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري وتمجيد أعمالهم مع أن الحقيقة واضحة، ويكفي قراءة كتب مؤرخين جزائريين وفرنسيين لنعرف الفرق في سرد الأحداث بين الجانبين. والجو السياسي التي تعيشه اليومَ الجزائر على خلاف عهد الحزب الواحد يسمح بكتابة نزيهة لتاريخ الجزائر.

و يتناول هذا الكتاب الموجه لجمهور المثقفين عامة، أهم الأحداث التي مرت بها الجزائر عبر العصور بما فيه التاريخ القديم و الوسيط والحديث، يعطي للقارئ صورة موجزة عن المراحل التي عرفتها الجزائر منذ فجرّ التاريخ، مرورا بالعهد الفينيقي والروماني والوندالي والبيزنطي ثم الفتح العربي الاسلامي والعهد العثماني وآخيرا الاحتلال الفرنسي، وتميزت كلَ فترة من هذه الفترات بميزة خاصة عاش فيها الشعب الجزائري حياة الشقاء والسعادة، الاستعمار والحرية، التفوق والانحطاط، لكنه لم يستكين يوما إلى الظلم والإستبداد. ولذا لم يتخل أبدا عن المبادئ الثلاثة وهي: الحرية والعدل والمساواة. كما أن هذا الكتاب لا يركز على الجانب السياسي مثلما هو موجود في معظم كتب التاريخ، وإنَما يدرس كل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لأن تاريخ الأمم لا يبنى فقط

من طرف الساسة وإنما يشترك فيه الشعب كله باعتباره هو صانعه الحقيقي، ولا يمكن أن يكون ايجابياً إلا إذا كان مثقفوه هم محركوا المجتمع وقدوته.

جزائر ما قبل التاريخ

مرت الجزائر كغيرها من دول العالم بأطوار ما قبل التاريخ، ولو أن هذه الفترة لازال يسودها غموض لقلة المصادر المكتوبة عليها و هي معظمهما أجنبية، اعتمدت بالدرجة الأولى على الاكتشافات التي توصل إليها علماء الآثار من بقايا الأدوات التي كان يستخدمها سكان تلك الفترة، مثل القطع الحجرية والنقوش والهياكل البشرية. وقد اجتازت الجزائر بالعصر الحجري القديم Paléothique الذي يمتد إلى حوالي 12 ألف سنة ق.م و ينقسم العصر الباليوليتي إلى ثلاث فترات: الأسفل والأوسط والأعلى، ثم العصر الحجري الأوسط Mésolithique الذي اعتمد فيه الإنسان على الأدوات الحجرية كأسلحة أو سكاكين وهي عبارة عن فؤوس ذات وجهين: يستعملها في تجزئة لحوم الصيد، والسكن في الهواء الطلق وفي المغارات. وأخيرا العصر الحجري الحديث Néolithique الذي عرفت فيه الحضارة الإنسانية تطوراً نسبياً يمثل فترة انتقال نحو المدنية ليس في الجزائر فقط ولكن في معظم بلدان العالم، ففي هذه الفترة عرف الانسان الاستقرار والتجمع وبناء القرى الأولى والتبادل التجاري و استخدام النار و الزراعة لمعاشه بعد أن كان يعتمد على الثمار البرية والصيد، وتدجين الحيوانات الأليفة كالحصان والبقر والغنم والكلاب، ونقش الرسوم وصناعة الخزف والأواني من الطين، ونسج ثيابه بعد أن كان لباسهم من قبل لا يتجاوز ستر العورة بجلود الحيوانات. وقد عثر في الجزائر وفي بلدان المغرب العربي عن جماجم بشرية يعود أصلها إلى العصر الحجري من بينها إنسان الأطلس بمنطقة تغنيف بالقرب من معسكر، هذا بالإضافة إلى النقوش التي لازالت موجودة إلى يومنا في الهقار والتاسيلي وعين الناقة بولاية الجلفة، والتي ترجع إلى ثمانية آلاف سنة خلت تعبر عن نمط الحياة التي كان يعيشها الشخص البدائي، مما يدل على أن هذه الأرض سكنها الإنسان منذ القدم. والدوافع التي أدت به إلى الاستقرار في الجزائر هو مناخها المعتدل الجميل و خصوبة أرضها وتوفرها على الأنهار و الوديان مما سهل له المعيشة فيها، كما أن الصحراء على خلاف يومنا كانت منطقة خصبة و آهلة بالسكان، وذلك لما كان يوجد فيها من وديان و أنهار وبحر وحيوانات مفترسة وأليفة، وذلك ما يتجلى في الرسوم المنقوشة في الصخور

من خيل وبقر وإبل وزرافات وأسود وفيل اختفت هذه الحيوانات المفترسة في بداية العهد الروماني. وفي تلك الفترة التي دامت مدة طويلة من الزمن لم تكن توجد حدود بين الدول مثلما هو الحال عليه في يومنا حيث كان الأشخاص ينتقلون من منطقة لأخرى بدون صعوبة ويستقرون أين وجدوا الجو ملائماً. ومن الحضارات التي ظهرت في الشمال الإفريقي في العصر الحجري القديم نذكر الحضارة الأشولية والعاترية نسبة لبئر العاتر قرب تبسة وهي امتداد للموستيرية التي ظهرت بفرنسا و ذلك لتشابه الأدوات المستعملة بينهما. من بعدها ظهرت حضارتي الأبيرومورية و عاش فيها إنسان مشتى أفالو وموطنها السواحل المتوسطية، والقفصية نسبة لمدينة قفصة التونسية حيث تم اكتشاف بعض آثارها في هذه المنطقة وامتدت للشرق الجزائري، ويعود ظهورها إلى حوالي 8000 سنة. وتنتسب للإنسان الما قبل المتوسطي، وتمركزت بالمناطق الداخلية، لم يعرف فيها الإنسان الزراعة. ولا يعرف إن كان سكانها في تلك الفترة هم من البربر أم لا. وفيما يخص المعتقدات فإن السكان قد لجأوا إلى تعظيم الظواهر الطبيعية كعبادة الشمس والقمر. وكانوا يدفنون موتاهم في قبور ينحتونها في الجبال و يركمون فيها عدة جثث، كما يدفنون معهم بعض أمتعتهم و حليهم. كما أنَ سكان الجزائر عرفوا الحياة الاجتماعية منذ القدم، أي ما قبل التاريخ، حيث كانت الأسرة هي الخلية الأساسية في المجتمع وكان الأب هو المسؤول عليها، فمنهم الرعويون الذين اعتمدوا على الترحل من مكان لأخر للبحث عن الكلأ لمواشيهم، ومنهم من استقر بالمدن حيث الفلاحة. وبانتهاء العصور الحجرية دخل الإنسان مرحلة العصور المعدنية (النحاس والبرنز والحديد) وفي هذه الأزمنة قفز الإنسان الجزائري كغيره من سكان العالم قفزة نوعية حيث أصبح يجيد استغلال المعادن ويصنع منها العربات و الأسلحة لحماية نفسه و الدفاع عن وطنه.

البربر

أما سكان افريقيا الشمالية حسب المؤرخ هيرودت Hérodote فانهم كانوا بسمون بالليبيين، وسماهم الإغريق والمصريون والرومان من بعد بالبربر وبقيت هذه التسمية إلى يومنا. وتعني كلمة بربر الأشخاص الذين لا يمكن التفاهم معهم وهذا لاختلاف لغاتهم ولهجاتهم وبمعنى أخر شعب غير متحضر، وهي كلمة غير لائقة فرضها الطرف القوي على سكان شمال إفريقيا. وتقول بعض الروايات التي ذكرها المؤرخون العرب "أن افريقس بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة اليمنية، لما غزا إفريقية التي سميت نسبة اليه وقتل جرجيس وبنى المدن، لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطناتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : "ما أكثر بربرتكم !". أما المؤرخ الأوروبي بوسكي Bousquet فيقول بأنها كلمة من أصل لاتيني Barbarus وتعني الشخص الذي لا ثقافة له والذي ينتمي إلى الشعوب المتخلفة التي تعيش خارج نطاق روما. أما البربر فيسمون أنفسهم بالأمازيغ أي الرجال الأحرار.

ومن المؤكد أنَ الجنس البربري لا يشكلّ جنسا قائما بذاته، وذلك على خلاف الأجناس الأخرى مثل الجنس الآري، فهو متولد عن تزاوج وتلاقح عدة أجناس، فنجد فيه عناصر مختلفة في شكلها وأنماط معيشتها حيث نجد البربري الأبيض اللون والأسمر والأشقر الشعر، ورغم هذا الاختلاف إلا أنَ لهجاتهم تنتمي إلى عائلة واحدة رغم اختلافها من منطقة لأخرى، وتنتسب إلى اللغة الليبية القديمة، وهي وثيقة الصلة باللغات السامية والحامية مثل اللغة المصرية القديمة، واعتمد التوارق في كتابتها على مفردات " تفيناغ " وقد تم اكتشاف كتابات ليبية هي رموز اللغة البربرية القديمة في منطقة سينا ودلتا النيل بمصر. على أنَ اللهجات البربرية الرئيسية ثلاث وهي : زناتة، ومصمودة، وصنهاجة وتتكلم بها بعض المناطق المتواجدة في كل من المغرب والجزائر وتونس.

وقد اختلف المؤرخون الأوروبيون والعرب حول أصل البربر، إلا أنَ الأغلبية منهم متفقون على أنهم قدموا إلى الشمال الإفريقي عن طريق مصر وليبيا مهاجرين من موطنهم الأول بجنوب آسيا الغربي، مما يدل على أن البربر ليسوا هم سكان المغرب الأولين، ورغم ذلك فإنَهم يعتبرون هم السكان القدماء للشمال الإفريقي.

فيذكر المؤرخ الأوروبي بروكوب Pocope " بأن عدة قبائل هاجرت من المشرق الأوسط إلى مصر، ونظرا للكثافة السكانية بمصر انتقلوا نحو ليبيا وعندما

وصلوا إلى هيكل هرقل أسسوا عدة مدن واستقروا بها ومن بعدهم أولادهم، وكانوا يتكلمون اللغة الفينيقية، وشيدوا ميناء بنوميديا".

أما البروقنصل الروماني على افريقيا سالوست Salluste فيذكر حسب ما قرأه عن كتاب هيمبسال الملك النوميدي" أن إفريقيا استعمرت من الجيتول Gétules الجزوليون)، وكذلك الليبيون وهم شعب بربري متوحش يعيش من لحوم الحيوانات، وبعد هجرة هرقل وموته باسبانيا، تفرق جيشه. المور والأرمينيون والفرس انتقلوا إلى إفريقيا واندمجوا بالأهالي السكان الأصليين وسموا بالنوميديين والمور، وأصبح النوميديون هم الشعب المسيطر".

ويختلف كذلك المؤرخون العرب حول جذور البربر فمنهم من يذكر أنهم من أصل يمني ومنهم من ينسبهم إلى سيدنا إبراهيم ومنهم من يقول أنهم من غسان ومنهم من يذكر أنهم من قبائل شتى من حمير وقريش والعمالقة والقبط، أما الطبري فيقول أن البربر خليط من العماليق والكنعان. ونقض المؤرخ الكبير ابن خلدون كل هذه الأقوال ونظريته هي الأقرب إلى الحقيقة حيث يقول " أن البربر هم أبناء كنعان، ابن سام، ابن نوح، أجدادهم سموا بمازيغ، من أصل أسيوي عاشوا في بلاد ما بين النهرين ثم هاجروا إلى الشمال الإفريقي عن طريق مصر، وفي الأخير يقول أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة، وعندي أنهم من إخوانهم ".

وقسم البربر إلى قسمين : البتر وهم أبناء مادغيس الأبتر بن بر بن مازيغ. والبرنس وهم أبناء برنس بن بر بن مازيغ، فمنهم من عاش حياة البداوة والتنقل. ومنهم من استقر في المدن وتأقلم مع الحضارات القرطاجية والرومانية، ويعتبر البرانس أكثر احتكاكا بالحضارات القديمة من البتر.

ومن قبائل البتر نذكر: مديونة ولواتة وزناتة وزواوة ونفوسة ومطغرة ومطماطة وزواغة ومغيلة ونفزة.

أما البرنس فمنهم: كتامة وأوربة وصنهاجة ومصمودة ولمطة وجزولة وعجيسة وهسكورة.

وأغلبية القبائل التي لازالت إلى يومنا تتكلم باللهجة الأمازيغية تقطن بالمملكة المغربية حيث تبلغ نسبتها 45 %، مقابل 30 % بالجزائر، و2 % في تونس. ومن المؤكد أنّ هذه اللهجة تقلص مستعمليها مع مرور السنين لسبب اعتمادها على

الشفاهية. أما المعربون من سكان الشمال الإفريقي فحسب اعتقادي أنهم من أصل أمازيغي عرّبهم الإسلام، وذلك ما يتبين من خلال الفترات التاريخية التي مرت بها دول الشمال الإفريقي منذ الفتح العربي الإسلامي. فكيف نفسر مثلا انقراض اللهجة الأمازيغية في بعض الجهات من الوطن، وفي نفس الوقت فإن العرب المسلمين على خلاف الرومان والفرنسيين من بعد لم تكن لهم سياسة استيطان. كما أن رسالتهم كانت روحية، وماعدا غزو عرب بنو هلال للشمال الإفريقي لأسباب سياسية، والاستقرار به في عهد الصنهاجيين لم تعرف أي هجرة من المشرق إلى المغرب. ومع هذا، فلابد من الإعتراف بالجميل للفاتحين العرب المسلمين، فعن طريقهم دخلت الجزائر والمغرب العربي كله في عصر الأنوار، بعد أن كان قروناً من قبل يتخبط في ويلات الاضطهاد والظلم الروماني والوندالي والبيزنطي، وفي هذه الفترة التاريخية الإسلامية تمكنت شعوبها من استرجاع سيادتها وبناء دول تصاهي بها العالم في كل الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية من أمثال الدولة الرستمية والحمادية والمرابطية والموحدية والزيانية التي أنجبت قادة عظماء أمثال يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن وبلكين ويغمرسن. وفي هذا الوسط ترعرع علماء كبار ساهموا في تطور الحضارة العربيّة الإسلامية ومن بعدها الأوروبية التي اعتمدت على مؤلفاتهم في رقيها، كإبن خلدون والإدريسي الخ. هذا ناهيك عن الدين الإسلامي وهو أعز ما تملكه شعوب هذه المنطقة.

العهد الفينيقي

1200 – 146 ق. م

ينتسب الفينيقيون إلى العنصر السامي الذي ينتمي إليه العرب و هم من الفرع الكنعاني، هاجر أجدادهم من موطنهم الأول الواقع في شبه الجزيرة العربية إلى شمال بلاد الشام، واستقروا منذ عهد قديم في لبنان الحالية وسواحل سوريا، وسمي وطنهم بفينيقيا. وقد ساعدهم غنى المنطقة بثروتها من خشب الأرز الذي كانت أشجاره تغطي لبنان، على الاستقرار وصناعة السفن. وهذه الثروة هي التي جعلت هذه المنطقة تعيش في صراع دائم مع الدول المجاورة لها مما جعلها عاجزة عن تحقيق الوحدة السياسية، فكانت كل مدينة من المدن الفينيفية مستقلة عن الأخرى، ومن أهم المدن التي أنشأوها طرابلس، وأرواد، جبيل وصيدا وصور وبيروت وعكا. وهي كلها مدن ذات موانئ بحرية، وتعتبر مدينة صور من أهم المدن الفينيقية الواقعة على الساحل، فهي التي شجعت وساعدت ماليا حملات التوسع والبحث عن محطات قصد ممارسة التجارة، ومنها تمت هجرة أليسا إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط. وكان النزاع والتنافس شديداً بين المدن الفينيقية قصد احتكار الأسواق التجارية، مما أدى بهم إلى البحث عن أسواق خارج ديارهم. وبفضل احتكاك الفينيقيين بالشعوب الأخرى، وخاصة المصريين، تفوقوا في ميدان التجارة، وهكذا كان منهم تجار وبحارة وصناع. وبما أن الفينيقيين كانوا تجَاراً ماهرين يهدفون إلى الربح أنشأوا لهم أسطولا بحريا ضخما جابوا به معظم شواطئ العالم القديم وقد وصلوا في مغامراتهم التجارية إلى البحر الأسود والقوقاز. وكان ضمن المواد التجارية التي يصدرونها: التماثيل والحلي والثياب الأرجوانية والفخار والزجاج والأخشاب، ويستوردون بالمقابل المعادن، واعتمد التبادل التجاري في عهدهم على المقايضة.

وكان مجتمعهم مقسم إلى عدة طبقات يأتي في أول الهرم الحكام ويليها طبقة الكهنة والأرستقراطيون وأخيرا مجلس عامة الشعب، وأهم حدث تاريخي قام به الفينيقيون هو اختراعهم للخط الذي تفرعت عنه مختلف الخطوط العالمية من عربية ولاتينية وعبرانية وغيرها. وعلى خلاف الحضارات التي سبقتها لم يوجد من التراث الفينيقي إلا العدد القليل وهذا راجع لضياعه ومحوه من طرف الغزات وخاصة الرومان ومعظم ما كتب عن تاريخ الفينيقيين تم عن طريق المؤرخين الإغريق والرومان ولكن هؤلاء كانت كتابتهم متحيزة نحو روما ومعادية

لكل ما هو سامي. وكان للفينيقيين أدب يتضمن على الخصوص أشعَاراً مُلحمية ودينية وهذا ما يتجلي في النقوش المكتشفة في قرطاجنة. أمَا ديانتهم فكانت تتمثل في تقديس مجموعة من الآلهة وتقديم القربان لها تحت اشراف الكهنة.

ومن العوامل الأخرى التي أدت بالفينيقيين للتوسع في البحر، المتوسط نجد: الصراعات السياسية والعسكرية مع الدول المجاورة التي كانت تريد الاستيلاء على أراضيها ومنها الدولة المصرية والآشورية والامبراطورية الحثية في آسيا الصغرى` هذا إلى جانب الصراعات السياسية الداخلية بين المدن الفينيقية والتنافس بين الأمراء على الحكم، مما جعل الساحل الفينيقي عرضة لأطماع الشعوب المجاورة. وكذلك قلة مساحات الأراضي الزراعية مما أدى بهم للاعتماد على التجارة البرية والبحرية وساعدهم في ذلك وجودهم بالقرب من الساحل وتوفرهم على الأخشاب لبناء السفن فتعرفوا على الطرق البحرية البعيدة، ولبيع منتوجاتهم تطلب منهم البحث عن أسواق خارجية يمكن من خلالها بيع سلعهم للشعوب. فأسس الفينيقيون عدة محطات تجارية في كلَ من سواحل الغال وقادس التي تقع في شبه جزيرة ابيريا والتي كانت غنية بمعادن الفضة والنحاس والقصدير، كما أسسوا مستوطنة ابيزا بجزر الباليار، وقبرص، ورودس، وصقلية التي استقروا على كامل سواحلها الشرقية والغربية، وساردينيا، ومالطة من بعدها مستوطنة ليكسوس الواقعة على الشاطئ الغربي لشمال افريقيا ومدينة أوتيكا على خليج تونس وأخيرا قرطاجنة بتونس، وكان الغرض من تأسيس هذه المدن منه ما هو تجاري ومنه ما هو استراتيجي. وهذا ما يذكره المؤرخ ديودري (Diodore) "بأن الفينيقيين الذين كانوا منذ عهد قديم يبحرون بدون هوادة لممارسة التجارة، أسسوا العديد من المستعمرات على شواطئ ليبيا، وفي جهات أخرى من أوروبا الغربية" وكانت هذه المستوطنات حسبه سابقة على تأسيس مدينة قادس". وأدى تأسيس هذه المستوطنات إلى هجرة الفينيقيين من موطنهم الأم إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط واختلاطهم بالسكان المحليين. وهذا ما يذكره المؤرخ سترابون (Strabon) "أن التجار الفينيقيين الذين اجتازوا أعمدة هرقل كانوا قد أسسوا مدنا على شواطئ غرب البحر المتوسط، وأيضا بالقرب من وسط الساحل الليبي بعد وقت قصير من نهاية حرب طروادة". كما يقول "بأن الفينيقيين كانوا يملكون أفضل ما هو موجود في شبه جزيرة ايبيريا وفي ليبيا قبل عصر هوميروس". ومن مميزات التجار الفينيقيين أنهم كانوا

ـسالمين يتأقلمون بسهولة مع أي وضع سياسي في المناطق التي ينزلون بها، ولا يتدخلون في الشؤون السياسة الداخلية لأي دولة، فربطوا مع السكان المحليين علاقات تجارية وصداقة سمحت لهم فيما بعد بتأسيس عدة محطات تجارية. وكان الفينيقيون في بداية الأمر يهتمون بالتجارة البحرية ولما أصبحت مدينة قرطاجة بعد ذلك تهيمن على الحوض الغربي للبحر المتوسط بدأوا يعتنون بأسطولهم الحربي حتى يضمنوا لأنفسهم السيطرة الكاملة على المنطقة. فبدأت الدويلات الإغريقية تنافس قرطاجة في جنوب إيطاليا وصقلية للتوسع التجاري، فعملت قرطاجة على تحطيم الأسطول الإغريقي وطردهم من بعد من جنوب إسبانيا.

وفي حروبها مع الإغريق والرومان كانت بحاجة إلى جيش، فاعتمدت إلى جانب مواطنيها على تجنيد المرتزقة من السكان المحليين. واستطاعت مدينة قرطاجة بحكم موقعها الاستراتيجي أن تتزعم كل المستوطنات الفينيقية، وكانت في بداية الأمر قرطاجة مرتبطة بالوطن الأم مدينة صور التي كانت تمدها بالعون ولم تتحول إلى دولة مستقلة إلا بعد أن كثر عدد المهاجرين الفينيقيين إليها وسقوط مدينة صور في أيدي الأشوريين في القرن السادس ق.م، وبذلك تحول مركز الحضارة الفينيقية إلى قرطاجة. وحل الفينيقيون بسواحل شمال افريقيا حوالي القرن الثاني عشر ق.م. وشملت المحطات التجارية الفينيقية كامل سواحل بلاد المغرب الشرقية من الحدود الشرقية لخليج السرت إلى مدينة قرطاجة غربا، فعلى طول المسافة الساحلية بين سوسة و قرطاجة أنشئت على التوالي : سوس (Sousse)، نابلس (Néapolis)، طبركة (Tabarca) وكيركوان (Korkowane)، محطة بنزرت (Hippo-zarit)، عنابة (Rigius)، وسكيكدة (Rusicada)، قسنطينة (Cirta) وجيجل (Ighilgili)، بجاية (Saldae)، ودلس (Rusuccru)، الجزائر العاصمة (Icosium)، تيبازة، شرشال (Iol)، تنس (Kartennae) و مليلة (Rusadur)، وواصلت حتى المغرب الأقصى تطوان (Tamuda) طنجا (Tingi)، أغادير، وكانت كلها محطات تجارية. و من هذه المحطات بدأ الفينيقيون يمارسون نشاطهم التجاري مع الأهالي، يتبادلون مختلف السلع. واكتفوا في البداية ببناء المستوطنات والمحطات التجارية على السواحل دون محاولة التوغل داخل الشمال الإفريقي، وكانت تسود علاقة طيبة بين الفينيقيين والسكان المحليين مبنية على المصالح المتبادلة.

نشأة قرطاجة
814 ق.م- 146 ق.م

يرجع تاريخ تأسيس مدينة قرطاجة إلى سنة 814 ق. م. من طرف المهاجرين الفينيقيين الذين خرجوا أفواجا متتابعة من مدينة صور متوجهين إلى إفريقيا حيث أنشأوا مدينتهم العظيمة قرطاجة والتي تعني المدينة الجديدة. ويرجع الفضل في تأسيسها إلى أسطورة أليسا (Elisa)، وتذكر الأسطورة بأنه بعد وفاة الملك متان بقي الحكم لابنته الأميرة أليسا وابنه الأمير بغماليون، و كانت أليسا على غاية كبيرة من الجمال فتزوج بها خالها عاشر باس الكاهن الأكبر لمعبد الإله ملقارت الذي كان موفور الثروة. فقتل بغماليون زوج أخته بغية الحصول على ماله. فخافت أليسا على حياتها. وفي غيابه حملت أموال زوجها وأبحرت بها صحبة مؤيديها إلى قبرص وهناك انظم اليها كاهنها يونو juno، كما حملت معها ثمانين فتاة من قبرص ليكن أزواجا للشباب الذين كانوا معها ومن ثم إلى شمال إفريقيا فنزلت بالقرب من مدينة أوتيكا وقد رحب بها سكان المنطقة من البربر الذين ابتاعت منهم قطعة أرض مقدار جلد ثور، قطعت الجلد إلى أشرطة صغيرة أحاطتها بمساحة تكفي لبناء مدينتها الجديدة. فوسعتها بتشييد بنايات وموانى ومعابد لممارسة الطقوس الدينية، وساعدها في هذا المشروع السكان الأصليون من النوميديين بمنحهم لها أراضيهم واليد العاملة. وهكذا شيئاً فشيئاً أصبحت قرطاج عاصمة للمستعمرات الفينيقية.

وتقع مدينة قرطاجة في خليج تونس في موقع استراتيجي مما سمح لها بالهيمنة على البحر المتوسط فأصبحت أول قوة بحرية وتجارية في المنطقة فتقاطرت عليها أفواج الفينيقيين، مما جعل سكانها يتكاثرون حتى أصبحت تكون امبراطورية. وإلى جانب قرطاجة أسس الفينيقيون العديد من المدن من أهمها أوتيكا وحضرموت وهي، سوس الحالية بتونس، وناحيتي مضيق جبل طارق قادس ولكسوس. وتمكنت قرطاج من التغلب على منافستها الاغريق حتى قضى عليها الرومان.

وقد وصف المؤرخ أبيان (Appien) مدينة قرطاجة "بأنها تشبه السفينة الراسية". أما المؤرخ بوليبيوس (Polybius) فقد ذكر بأن "قرطاجة تمتد

ـى شاطئ خليج وسط شبه جزيرة محاطة بالبحر من جهة، وبالبحيرة من جهة الأخرى. ولا يزيد عرض البرزخ الذي يربطها بليبيا عن خمسة وعشرين ستاد، وعلى مسافة غير بعيدة من قرطاجة عبر الشاطئ، كانت تقع وتيكا بينما تقع تونس على الجانب الآخر من البحيرة".

وكانت مدينة قرطاجة مقسمة إلى أحياء حسب الطبقات الإجتماعية التي يتكون منها المجتمع القرطاجي. وفي أوائل نشأة قرطاجة كان القرطاجيون يؤدون ضريبة سنوية للقبيلة الليبية التي كانت تملك الأرض التي أقيمت عليها المدينة، ثم أوقفوا هذه الضريبة لمَا بلغت دولتهم مركز القوة وأعلنوا حرب على القبيلة وبسطوا سلطتهم على الأراضي الساحلية المجاورة، فنشأوا مستعمرات فلاحية لغرس أشجار الزيتون و الكروم و زراعة القمح وتربية الماشية، وقد تبنى البربر طرق الفلاحة القرطاجية، كما استطاعوا الاندماج في المجتمع البوني فتبنوا لغتهم ومعتقاداتهم، وتمدرس أولادهم في المدارس القرطاجية. كما كانت قرطاج تعتني بصناعة البواخر والنسيج والجلود والفخار والزجاج وتتبادلها مع السكان المحليين بمقابل مواد أخرى. واستمرت الرفاهية القرطاجية حتى الحرب البونيقية الثالثة 146 ق. م. السنة التي صممت فيها عدوتها روما على تحطيمها واستبدالها في منطقة شمال افريقيا. ولم ينجح النوميديون أي السكان الأصليون الوقوف في وجه القرطاجيين لأنهم كانوا لازلوا يعيشون على النظام القبلي، كما كانوا يفتقدون إلى الوحدة السياسية، هذا ولابد أن نشير إلى أنَ علاقة سكان المغرب القديم بالوافدين الجدد من الفينيقيين كانت مبنية على التعاون السلمي، وأن كان التأثير السياسي لقرطاج في البداية جد محدود على السكان المحليين فبالمقابل كان تأثيرها الاقتصادي يتجلى من خلال الممارسات التجارية على مختلف الموانئ والتي تركت أثراً كبيراً على البربر.

واعتمدت سياسة قرطاج على ربط علاقات ودية مع الأمراء البربر المحالفين لها، ولم تحاول التدخل في شؤونهم الداخلية، هذا ولم تكن سلطة قرطاج في بداية الأمر تمارس بصفة مطلقة على كامل شمال إفريقيا، فبسطت نفوذها فقط على السواحل لممارسة التجارة ولم تحاول التوغل، واستلزم سنين عديدة لاحتلال باقي الأراضي النوميدية، وساعدهم في ذلك المرتزقة من البربر.

نظام الحكم و الإدارة

كان القرطاجيون يخضعون في البداية للملكية الوراثية ثم حلت مكانها الملكية الانتخابية، وتساعد الملوك حكومة تتكون من كبار الموظفين المنتمين إلى العائلات الغنية، وكان الحكام يدعون ب Sufflètes أما الحكومة فكانت تتألف من مجلسين: مجلس شيوخ يضم ثلاث مئة عضو ومجلس دائم ينتقي أعضاءه من بين أفراد مجلس الشيوخ ينتخبهم الشعب والذي كان له الحق في إعلان الحرب أو السلم، كما كان مجلس الشيوخ يقرر الضرائب ويصدر التشريعات القانونية ويشرف على تعمير المدن وإنشاء الموانئ، وفي حالة ما إذا لم يصوت المجلس حول قرار ما بالأغلبية يعمد إلى الشعب لأصدار القرار النهائي. ويقول المؤرخ الألماني المعاصر: Beloch " أن نظام الحكم في قرطاجنة قد مر بمراحل تاريخية وسياسية حسب التسلسل التاريخي، ألا وهي أولا مرحلة الحكم المقدس ثانيا مرحلة الحكم الأرستقراطي، وأخيرا مرحلة الحكم الديمقراطي". أما البربر فقد عاشوا في العهد القرطاجي يشكلون إمارات مستقلة الواحدة عن الأخرى ترتكز على النظام القبلي، حيث لا حكم ولا قرار إلا للجماعة، أمّا الرئيس فكان دوره يتمثل في التوجيه والنصيحة والتوفيق بين الآراء. في مسألة الجيش فعلى خلاف الرومان لم يكن القرطاجيون محاربين بطبيعتهم، فقد كان استعمارهم للبلاد تجاريا اقتصاديا، ولم يكن سياسيا أو حربيا. ففي البداية اعتمدوا في الدفاع عن أرضهم على أبناء وطنهم وحلفائهم البربر ولمّا توسعت رقعة امبراطورياتهم جندوا في صفوفهم المرتزقة في الأراضي التي ضموها إليهم ولكن يسرحونهم حالما تنتهي الحرب، ولهذا لم يكن لهم جيش نظامي. وعلى العموم لم يتجاوز جيش قرطاج المئة ألف جندي، ويقول ديودوري Diodoré "أن من مجموع 75000 جندي لا يوجد إلا 2500 قرطاجي". وكانوا يعتمدون كثيرا على الغزو البحري نظرا لتفوقهم في هذا الميدان، ويلجأ عادة مجلس الشيوخ إلى حل النزاعات الخارجية بالوسائل السلمية ولا يدخل في الحرب إلا مرغما. وكان الجيش القرطاجي متكون من المشاة والخيالة، يستعمل في حروبه السيوف والرماح والمقاليع والأحصنة والفيلة والمدافيع، وهذه الأخيرة عبارة عن مجانيق تقذف الحديد والحجر. ومما لاشك فيه أن البحرية القرطاجية كانت الأقوى في تلك الفترة بفضل مهارة الحرفيين القرطاجيين وجودة الخشب، حيث كان أسطولهم البحري يتكون بين مئة ومئتي سفينة تمكنوا بها من توفير الازدهار لشعبهم و توسيع رقعة مملكاتهم.

الحياة الاقتصادية و الاجتماعية

أهلها موقعها الاستراتيجي لأن تلعب دورا هاما في الميدان الاقتصادي، ولم يكن القرطاجيون في أول الأمر يهتمون بالصناعة والزراعة بقدر ما كانوا يعتنون بالتجارة التي كانت تدر عليهم أرباحا طائلة. فكانوا يجلبون معادن الفضة والقصدير والرصاص من الدول المصنعة في شرقي المتوسط ثم نقلها محولة من هذه الدول الأخيرة وبيعها للشعوب المتأخرة عن طريق المقايضة. وقد كان القرطاجيون يحصلون على هذه المعادن من مواطنها الأصلية في كل من مقاطعة كرنويل في جنوب انجلترا، وجزر كاسيتريدس التي كانت تحتوي على معادن القصدير، واسبانيا التي وجدت بها مناجم الفضة والرصاص والنحاس. كما كانت تجارتهم تتم عن طريق البر بواسطة القوافل، وإلى جانب هذه التجارة كان الفينيقيون يتعاطون تجارة الرقيق. وكان القرطاجيون يصنعون ويصلحون السفن وينتجون الملابس وأنواع الآلات الزجاجية والفخار والخزف والتماثيل الصغيرة والعاج والحلي وصبغة الأنسجة وصناعة الأخشاب والنقش على الحجارة الكريمة، كما أصبحوا يقلدون مصنوعات الشعوب المصنعة، إضافة إلى هذا كانوا يصنعون الأسلحة الحربية كالسيوف والرماح. وقد برع القرطاجيون في الزراعة، ومن أشهر علمائهم في هذا الميدان ماغون الذي ألف العديد من الكتب في الفلاحة من أشهره " دراسة في علم الزراعة ". وقد اهتموا بغرس أشجار الزيتون والكروم والرمان والتين وزراعة القمح والشعير وإنتاج الخمور وزيت الزيتون بالإضافة إلى أنواع مختلفة من الفواكه والخضروات، كما اعتنوا بتربية المواشي كالغنم والبقر والأحصنة و الحمير و البغال و الصيد البحري الذي أسهم إسهامًا كبيرا في تموين سكان قرطاج. و تشير كتب التاريخ بأنه في أواخر القرن الرابع ق.م. عندما غزا أجاتوكليس بلاد شمال إفريقيا، ونزل بجنوده في طرف شبه جزيرة إسبونة وجد في المنطقة الريفية المحيطة بقرطاجة بساتين جميلة ومروجا خضراء مليئة بالقطعان والأبقار والخيل. ولتأمين الاحتكار التجاري ارتبطت قرطاجة مع روما بمعاهدتين كانت أولاهما سنة 509 ق.م. والثانية سنة 348 ق.م، وقد نص في هاتين المعاهدتين على حق قرطاجة في احتكار تجارة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وألزمت الرومان وحلفاءهم بعدم تعاطي التجارة على شواطئها قبل أخذ إذن من قرطاجة وبقي الأمر هكذا حتى فقدت قرطاجة سيادتها تدريجيا عن صقلية وإسبانيا. فوفرت التجارة الخارجية لقرطاج

أموال طائلة بحيث لم يعرف ميزانها التجاري العجز أبدا، ومن صادراتها زيت الزيتون والخمر والحبوب والأرجوان واللحوم المقددة بالإضافة إلى المنتوجات المصنعة الأخرى مثل الأثاث والأنسجة المطرزة والخزف والحلي والمعادن الخام التي تستخرجها من مناجم الفضة بإسبانيا والقصدير من كورنواي والذهب من بامبوك، كما كانت خزينة الإمبراطورية تمول من الرسوم المفروضة على السفن الراسية في موانئ قرطاج.

وكانت عادات و تقاليد القرطاجيين شرقية في مظهرها و جوهرها، فكان الأب قائد الأسرة و له السلطة الكاملة عليها. كما كانت للمرأة مكانة محترمة في المجتمع القرطاجي استطاعت من خلالها أن تتولى بعض المناصب الدينية والسياسية ومن هذه النساء نذكر أليسا وسوفونيسب إمرأة هسدروبال. وكان القرطاجيون يبعثون أبناءهم لتعلم فن التجارة، وسمح لهم الاحتكاك مع الشعوب الأخرى تعلم عدة لغات أجنبية، وقسم المجتمع في عهدهم إلى طبقات يأتي في المرتبة الأولى طبقة الحكام والأرسطقراطيين والكهنة ثم عامة الشعب المكونة من التجار والصناع والعمال، وبعدها العبيد، الذين لا يتمتعون بالحقوق السياسية، ولكن كانوا يعاملونهم معاملة حسنة. كما كانَ المجتمع القرطاجي متفتح بحيث عاش فيه الأجنبيون من اليونانيين والمالطيين والصقليين بكل حرية وتمكنوا من الحصول على الجنسية القرطاجية في مدة قصيرة بعد أن برهنوا عن جدارة ونجاح اندماجهم في المجتمع، كما تزوج القرطاجيون بالنساء الأجنبيات. وكانوا يحرَمون أكل لحم الخنزير، ويرسمون يدا بشرية على أبوابهم لتقيهم من العين، كما كان لباسهم يتكون من قميص طويل وطربوش يوضع على الرأس بالإضافة إلى برنوس في بعض الأحيان، أما شعر رؤوسهم فكان قصيرا ولحاهم متوسطة الطول. وكانوا يستعملون الكحل والحناء للزينة، و تركت هذه العادات والتقاليد أثاراً لدى السكان الأصليين من البربر. كما كانوا يمضون أوقاتهم الترفيهية في السيرك حيث يستمتعون بمشاهدة الحيوانات المفترسة التي تزخر بها المنطقة كالضبع والأسد والفيل والزرافة وابن أوى.

الحياة الفكرية و الدينية

أمّا حياتهم الفكرية فتمثلت فيما تركه علماءهم من مؤلفات شعرية وفلسفية وتاريخية وعلمية، ومن أشهر علمائهم في ميدان الفلاحة ماغون Magon الذي كتب الكثير في هذا الاختصاص، ومن المؤرخين سلينوس Silénos، ومن فلاسفتهم (أسد روبال) Asdrubal. ومن أهم المؤثرات البونية في البربر هي اللغة الفينيقية التي انتشرت انتشارا واسعا بينهم، واستمرت لغة التخاطب إلى وقت متأخر من الحكم الروماني. ومن أعظم أثر عمراني تركه الفينيقيون هي مدينة قرطاجة التي لا تزال أطلالها شاهدة على هذه العظمة إلى يومنا هذا. وكانوا يقلدون في بناء مساكنهم وأوانيهم الخزفية الفن الإغريقي والمصري.

أمّا حياتهم الدينية فكانت تتمثل في عبادة الآلهة، وتمتاز بتضحيات قاسية، فكان لكل مدينة الهها و هو تمثال يقدم إليه القرطاجيون الذبيحة من الحيوانات وأولادهم قربنا اذ ألزم الأمر ليكفروا عن خطاياهم، ومن أشهر آلهتهم "بعل" وهو أكبر آلهة قرطاجنة، وقد أسس القرطاجيون العديد من المعابد لآلهتهم نذكر منهم معبد أشمون وبعل حمون وتانيت يقيمون من أجلهم أعياداً ويشرف عليها كهنة كما كانوا يعتنون بدفن أمواتهم إذ يقيمون من أجلهم احتفالات تحفظهم من شر العالم الآخر، لأنهم كانوا يعتقدون بخلود النفس البشرية، والقبر عبارة عن بيت تحت الأرض مبني بالحجارة الجميلة المزخرفة، وقد يدفن الميت مع جواهره وبعض الآنية الفخارية وأدوات زينة ومصباح وأباريق، وقد سادت منذ القرن الرابع قبل المسيح عادة حرق الأموات وحفظ رمادهم في وعاء داخل القبور. وتركت ديانتهم تأثيراً لدى السكان المحليين، فقد كانت بعض آلهتهم موضع تقديس من البربر، خصوصا بعل وتانيت وبعل حمون الذي هو إنه مزدوج يمثل البربر والفينيقيين.

حـــروب قــرطــاجـــة

الحروب البونيقية الإغريقية

بينما كان الاغريق يحتلون الجزء الشرقي من جزيرة صقلية، كان القرطاجيون يحتلون الجهة الشمالية والغربية، وكان الاصطدام محتمل بينهم، لأنَ الاغريق كانوا ينافسون قرطاجة في منطقة نفوذها بجزيرة صقلية، فدخلت قرطاجة في حرب مع الإغريق، استطاعت خلالها التغلب عليهم، ثم انهزمت في معركة هيمر سنة 648 ق. م انتحر على إثرها القائد القرطاجي هميلكار. وفي سنة 395 ق. م. قاد القائد القرطاجي ماغون Magon حملته في صقلية، ووقع دونيس طاغية سرقوسة هدنة مع قرطاجة ثم نكثها واندلعت الحرب من جديد فخسر على إثرها القائد القرطاجي. ثم استأنفت الحرب بين القرطاجيين والإغريق في صقلية ولم يحصل أي الطرفين على النصر، فنقلت الحرب إلى شمال إفريقيا، وتولى الحملة ضد قرطاجة القائد الإغريقي أغاطوكل (Agathocle) فحاصر قرطاجة سنة 310 ق.م بينما كان القرطاجيون يحاصرون بدورهم سرقوسة. وعاد القائد أغاطوكل ليخلص سرقوسة ثم عاد من جديد إلى شمال افريقيا وألحق بالجيش القرطاجي شر الهزيمة فاستولى على العديد من المدن، ودامت هذه الحروب أربع سنوات، وعند ما لم يصل أغاطوكل إلى هدفه وخسر المعركة في نهاية الأمر، اضطر في الأخير إلى عقد هدنة مع القرطاجيين أعاد بموجبها إلى قرطاجة كل المدن التي استولى عليها واستمرت هذه الهدنة إلى وفاته سنة 289 ق. م، ثم استأنفت الحرب من جديد ضد القرطاجيين دون أن يفلح الإغريق.

الحروب البونيقية الرومانية

الحرب البونيقية الأولى (264 - 241 ق.م)

دامت الثلاثة حروب بين قرطاجنة و روما ما يزيد على القرن من سنة 264ق.م إلى 146 ق.م أدت في النهاية إلى سقوط قرطاجنة واحتلال الامبراطورية الرومانية لإفريقيا، وسبب هذه العداوة انتشار نفوذ قرطاجنة في البحر المتوسط وظهور السلطة الرومانية بجنوب إيطاليا.

فوقائع الحرب الأولى كانت تدور بصقلية حيث أصبحت الدولتان وجها لوجه، فبينما كان القرطاجيون يحتلون مسينا كان الرومان موجودين في ريجيوم، وسبب

ـــوب الحرب بينهم يرجع للمرتزقة المامرتيون الذيـن كـانوا جنـداً مـأجورين فـي قوات الاغريقي هيرون الثاني Heiron II حاكم صقلية الشرقية فعندما أنهوا خدمتهم العسكرية وكانوا متوجهين إلى إيطاليا احتلوا مدينة مسانا وقاموا بقتـل سـكانها. نهض إليهم هيرون وحاصرهم ثم تدخل الأسطول القرطاجي الذي كان متواجداً بالساحل فاستولى على مسينا و أرغم المرتزقة على الرحيل، فاستنجدوا بروما التي نقضت معاهدة السلم المنعقدة مع قرطاجة وأعدت لهم جيشاً كبيراً، ودارت المعركة بينهم بميليس Myles سنة 260 ق.م ثم ايكونوموس Economus سنة 256 ق.م. وكان النصر فيها للرومان، فتشجعوا بهذه الانتصارات و بعثوا بجيش إلى إفريقيا ولم يتم لـهم النصـر حيـث وقـع قـائدهم ريغولـوس Regulus وجنــده بـأيدي القرطاجيين و ألحقوا بهم هزيمة نكراء سنة 255 ق.م، ثم بعثوا سجينهم ريغولوس إلى روما لطلب الصلح وإملاء شروط قرطاجنة، لكن مجلس الشيوخ رفضـها. ثـم تجددت الحرب بينهما ثانيا بصقلية بقيادة القائد عملقار فخسرتها قرطاجنة وركنت إلى الصلح والتسليم في صقلية لعدوتها روما سنة 241 ق.م .

ولم تكد تنهي الحرب البونيقية الأولى أوزارها حتى تهددت قرطاجنة ثورات جندها المأجور من النوميديين بقيادة ماثو والمرتزقة بزعامـة سـبينديوس لسـوء معاملتها إياهم والتقاعس في دفع مرتباتهم، وتمكنوا من حصارها وكادت قرطاجة تسقط لولا تدخل عملقار Amilcar لإخماد تمرد الثائرين، فحصارهم بمضيق بين جبلين يقال له طريـق الفـأس، وقطـع مواصلاتـهم حتـى هلكـوا علـى آخرهـم جوعاً وعطشا وقتلا، وكانوا حوالي عشرين ألف. وانتهى هذا التمرد سنة 237 ق.م بعد أن دام حوالي ثـلاث سـنوات، وبينمـا كـان القرطـاجيون مشــتغلين بثـورة جندهـم المأجور انتهزت روما هذه الفرصة واستولت على سردانيا وكورسيكا.

الحرب البونيقية الثانية (219 ق.م- 201 ق.م)

بعد انتصاره على تمرد المرتزقة الثائرين عظمت شعبية عملقار فحاول إصلاح نظام الحكم القرطاجي ولكن الأسر المهيمنـة علـى الحكـم عارضتـه، وللتخلـص منـه عينوه لفتح إسبانيا وهناك استولى على عدة مدن وبدأ يشرع في محاربة الرومان إلا أن الظروف لم تسمح له حيث توفى سنة 229 ق.م دون قتال الرومان، فخلفه زوج ابنته أسدروبال Asdrubal الذي أسس مدينة قرطاجنة الجديدة جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، ومن بعده خلفه سنة 220 ق.م حنبعـل ابـن عملقـار الـذي كـان يبغض الرومان فترك أخوه الأصغر أسدروبال بإسبانيا وسير جيشا ضخما متوجها به لاحتلال روما ناقضا بذلك المعاهدة التي تمت بين أسدروبال والرومان عام

230 ق.م والمتعلقة بحدود الدولتين فاستولى به على عدة مدن ثم تقدم في فصل الشتاء فاجتاز جبال البيريني وقطع جبال الألب بعد مشاق وصعوبات هلك على إثرها الكثير من جنوده وفيلته جراء البرد والثلوج ولم يبق معه إلا حوالي ستة وعشرون ألف جندي تمكن بفضلهم من الانتصار على الرومان في عدة معارك بالجنوب الشرقي من إيطاليا وقتل حوالي سبعين ألف من الرومان سنة 216 ق.م واستمر في انتصاراته حتى كاد أن يقضي على روما لولا تقاعس قرطاجنة من امداده بالمال والجنود، فسرع إليه أخوه أسدروبال بقوة عسكرية متكونة من الإسبان والغاليون، لكنه قتل قبل أن يصل إليه. وفي تلك الفترة سنة 205 ق.م عين القائد العسكري سيبيون قنصلا عاما لروما، فتحصل على ترخيص من مجلس الشيوخ الروماني بتنظيم حملة عسكرية ضد قرطاجة في شمال إفريقيا، ونظرا لتخوفة من قرطاجنة التي كانت في ذلك الوقت تهدد روما وعدم معرفته بالأرضية الإفريقية اتصل بملك نوميديا الشرقية ماسينيسا Massinissa وملك نوميديا الغربية سيفاكس Syphax لمساعدته، ولكن سيفاكس المتزوج من بونيقية فضل التحالف مع قرطاجنة.

فنزل الجيش الروماني بقيادة سيبيون الإميلي Scipion Emilien ومساعدة ماسينيسا بإفريقيا ودخلوا في معركة مصيرية ببلدة زاما بتونس سنة 202 ق.م استطاعوا من خلالها القضاء على الجيش القرطاجي الذي كان يقوده حنبعل، وانتهت هذه الحرب بتوقيع معاهدة سنة 201 ق. م تم بموجبها تنازل قرطاجنة عن ممتلكاتها خارج افريقيا وتسليم أغلبية سفنها وتسريح جيشها ومنعها من انشاب أية حرب داخل وخارج افريقيا دون إذنٍ من روما، وأن تدفع غرامة مالية حربية لروما، وأن تحتفظ قرطاجة باستقلالها وممتلكاتها في إفريقيا، كما نصت في نفس الوقت على حق ماسينيسا في المطالبة بأراضيه. بعد ذلك حاول حنبعل اصلاح حال البلاد والجند بتحقيق العدل وتقوية قرطاجنة، فلم ينجح بسبب معارضيه الأرستقراطيين خوفا على امتيازاتهم فدبروا له مؤامرة اضطرته إلى مغادرة بلاده متوجها نحو سوريا وهناك انضم إلى قوات ملكها أنطيوخس، وحاول تنظيم حلف لمواجهة روما لكنه لم يفلح فطارده جواسيس روما، ولمّا اكتشفوا مخبأه حاصروه فتجرع كأس من السم كان بحوزته ومات مسموما بمدينة أنطاكية بالشام سنة 183 ق.م .

ماسينيسا

وفي أثناء هذه الحروب البونيقية عمل ماسينيسا على التوسع لحسابه الخاص بضم بعض مستعمرات قرطاجة إلى نفوذه وهذا بعد انتصاره على منافسه سيفاكس ملك نوميديا الغربية وضم أراضيه إلى ملكه، وكانت فكرة ماسينيسا تهدف من البداية إلى التخلص من كل سيطرة أجنبية، فكانت طموحاته كبيرة في أن تصبح كلّ نوميديا مستقلة تحت حكمه، ومن الدوافع التي أدت بماسينيسا إلى الانقلاب على قرطاجنة بعد أن كان من قبل حليفاً لها، هو تدخل هذه الأخيرة رفقة سيفاكس في شؤون مملكته، هذا بالاضافة إلى إغراء القائد سيبيون له في حالة التحالف معه باستعادة أجزاء مملكة والده من مغتصبيها القرطاجيين، ولهذا الغرض تحالف مع الرومان للقضاء على قرطاجة. وكان شعاره أنذاك "إفريقيا للإفريقيين" وكانت تعني إفريقيا في وقته بالمغرب العربي حاليا. ودامت الحروب التي خاضها ماسينيسا ضد قرطاجة طيلة حكمه أي خمسين سنة. والغريب في الأمر حسب المؤرخ أبيان (Appien) أن ماسينيسا تربى في أحضان قرطاجة و زوّج إحدى بناته إلى قرطاجي بوني. وقد استطاع ماسينيسا استرجاع مملكته وتوسيع أراضيه التي كانت تابعة للدولة القرطاجية في خلال فترة تاريخية تمتد من 201 ق. م. إلى 150 ق. م. فوحّد مملكة نوميديا الشرقية والغربية، ونظمها حسب النموذج القرطاجي، فعم الازدهار الاقتصاديّ في عهده، وكان يعمل ماسينيسا على دفع النوميديين إلى الارتباط بالأرض والتخلي عن حياة الترحال، فشجعهم بذلك على العمل الزراعي، فتعلم النوميديون كيفية استغلال الأراضي الخصبة وممارسة الزراعة حتى أصبحوا يصدرون الحبوب من قمح وشعير إلى روما. وسبب نجاحهم في الميدان الزراعي هو استفادتهم من التجربة القرطاجية في استصلاح الأراضي ووسائل الإنتاج، كما أنشأ أسطولاً بحرياً وكوّن جيشاً منظماً واعتمد في تمويل خزينة مملكته على الجباية التي فرضها على مواطنيه من النوميديين. وربط مملكته بعلاقات تجارية مع كل من قرطاجنة وروما وإسبانيا واليونان. وتوفي ماسينيسا سنة 148 ق. م. عن سن يفوق مائة سنة ودفن في عاصمة مملكته مدينة سيرتا (قسنطينة).

الحرب البونيقية الثالثة (149 - 146 ق.م)

على إثر هزيمة زاما انتهز البربر فرص ضعف قرطاجنة فأخذوا يهددون سلطتها و يشنون عليها الغارات و في مقدمة هؤلاء ماسينيسا. و كانت روما تساعد البربر خفية على إيقاع الثورة ضد قرطاجنة بينما كانت هذه الأخيرة تطالب روما ببعث لجنة تحقيق لدراسة الوضع و كانت تنحاز دائما إلى جانب ماسينيسا و في إحدى المرات أرسلت روما أحد ساستها وهو قاطون للبحث عن أحوال افريقيا وأثناء تجواله شهد ما وصلت إليه قرطاجنة من نهضة وما تزخر به من خيرات فلاحية وما يتمع به شعبها من رخاء فلما رجع طلب من مجلس الشيوخ الروماني بمهاجمه قرطاجنة وأعلن في مجلس النواب "لابد من تخريب قرطاجنة". من بعدها اضطرت قرطاجة إلى إعلان الحرب ضد ماسينيسا منتهكة معاهدتها مع روما مما أجبر هذه الأخيرة على إعلان حرب ضدها سنة 149 ق.م فحاصرت قرطاجنة مدة سنة عاش خلالها القرطاجيون الجوع والوباء ركنوا في النهاية إلى الصلح وقبلوا جميع الشروط مع كونها قاسية عليهم فسلموا أسلحتهم وسفن أسطولهم. لكن لما رأوا عزم الرومان على تدميرهم تداركوا ما فات فحصنوا مدينتهم من جديد واستخدموا كل الوسائل المتوفرة لديهم ليدافعوا عن مدينتهم. فأنشاوا أسطولا بأخشاب منازلهم وصهروا الحلي وصنعوا من شعر النساء حبالا لسفنهم لكن تقاعس قائد الأسطول في الهجوم على الرومان ضيع الفرصة من أيدهم، وفي الأخير كانت قوات القائد الروماني سيبيون اقوى منهم فقد نجحت في اقتحام أسوار مدينة قرطاجنة سنة 147 ق.م بعد أن أخفقت عدة مرات. فقاوم القرطاجيون بقيادة (أسدروبال) المعتدين داخل المدينة التي امتلأت بالدماء والقتلى مدة اسبوع إلى أن سقطت قرطاجنة في أيدهم سنة 146 ق.م. وعندما أوشكت المدينة أن تسقط في يد سيبيون حاول (أسدروبال) الذهاب إليه سرا ليطلب العفو. ولما علمت إمراته بما فعل زوجها صعدت إلى سطح المعبد مع أولادها، ونادت القائد الروماني سبيون بهذه الكلمات "إنني أرجو لك أيها الروماني كل النجاح لأنك تتصرف بالحقوق التي تمليها الحرب. لكني أطلب من الهة قرطاج ومنك أن تعاقبوا زوجي (أسدروبال) لأنه خان وطنه والهته وامرأته وأولاده "ثم رمت بنفسها مع أولادها في نار أشعلتها لهذه الغاية. ولمحو آثار القرطاجيين إلى الأبد دمره الرومان قرطاجنة تدميرا وحولوها الى مقاطعة رومانية وهكذا انطفأ نور قرطاجنة بعد أن دام ملكها و شعاعها أزيد من ستة قرون.

العهد الروماني

146 ق.م - 430 م

من المبررات التي دفعت روما لاحتلال شمال إفريقيا الوجود الفينيقي الذي كان ينافسها في البحر المتوسط. فعملت على تقليص نفوذه شيئاً فشيئاً حتى بسطت نفوذها على حوض البحر الأبيض المتوسط كله. إضافة إلى الثروة الفلاحية الهامة التي كانت تزخر بها إفريقيا. وبعد تحطيم قرطاجة سنة 146 ق.م لم يحتل المستعمر الروماني الشمال الإفريقي مباشرة وكلية، وإنما تم تدريجيا فاكتفوا في البداية بالنواحي المجاورة لقرطاج أي تونس وحولت أوتيكا إلى عاصمة رومانية. وفصلت المستوطنات الرومانية عن المملكة النوميدية بحدود. وفي نفس الوقت كانت روما تتجسس أوضاع النوميديين و تفتعل المؤامرات ضد حكامها.

حكم الملوك النوميديين

يوغورطا

ترك ماسينيسا أولاداً كثيرين ومن أبرزهم ثلاثة وهم مسطنبعل Mostanabal وغلوسا Gulussa وميسيبسا Micipsa، وحسب ما يقول بعض المؤرخين خوفا من دخول أولاده في صراع على العرش النوميدي أوصى ماسينيسا قبل موته القائد الروماني سيبيون الايميلي بتسوية أمر الخلافة بين أبنائه. إلا أنه حسب رأيي فإن سيبيون قام بهذا التقسيم لإضعاف مملكة نوميدية وخلق التفرقة بينهم ومن ثم تسهيل سيطرة روما على الأراضي النوميدية وهذا ما تم فعلا. فقام هذا الأخير بتوزيع المسؤولية فيما بينهم فأسند قيادة الجيش إلى غلوسا والإدارة إلى ميسيبسا وكلف مسطنبعل بمهمة القضاء. وبعد وفاة أخويه تولى ميسيبسا جميع المسؤوليات في يده، وأصبح ملكا لنوميديا كلها ودام حكمه الى سنة 119 ق.م. ولم يكن الشيخ ميسيبسا فقد كان يحب الحياة السهلة ولا يهتم بشؤون مواطنيه. ويمضي وقته في المطالعة، ولهذا كانت السلطة الحقيقية في يد الرومان. فكانت

تقتصر مهامه على تمثيل دور الحليف المخلص لروما يزودها بما تحتاجه من قموح، وما تطلبه من جنود للدفاع عن امبراطورية روما، وكان هذا التصرف لا يعجب السكان النوميديين. وفي هذه الفترة ظهر يوغورطا حفيد ميسيبسا الذي ربي في بلاط ملكه وكان الشعب النوميدي معجبا بذكائه وشجاعته، ووصفه المؤرخ الرومانيْ سالوست Salluste كالآتي : "كان يوغورطا لامعا بقوته وجماله، وعلى الأخص بقوة شخصيته، فلم يسمح لنفسه أن يفسده البذخ والميوعة، كان يمارس كلَ أنواع الرياضة التي كانت معروفة في بلده، يركب الخيل، ويمارس لعبة الرماح، ويسابق الشبان أمثاله وبالرغم من أنه كان ينتصر عليهم جميعا، فإنهم كانوا يحبونه، وفي الصيد الذي كان يشغل أكثر وقته، كان دائما أولهم في ضرب الأسد وغيره من الحيوانات المفترسة، وعلى الرغم من أنَه كان أكثر أصدقائه نشاطا، فانه كان أقلهم كلاما". ولهذه الخصال كان عمه الملك ميسيبسا معجبا به، وفي نفس الوقت يكرهه خوفا من أن يستبد بالعرش بعد وفاته دون بني عمه، وللتخلص منه أرسله إلى إسبانيا ليحارب هناك مع الجيش الروماني رفقة الجنود النوميديين بعد أن استنجد به الرومان، فلمع اسمه في المعركة واكتسب شهرة نظرا لانتصاراته وشجاعته الفائقة التي تالت اعجاب القائد الروماني سيبيون Scipion فقد أوعز هذا الأخير إلى ميسيبسا بأن يشاركه في وراثة العرش التوميدي مع ولديه وهذا ما تم فعلا. وبوفاة ميسيبسا قسمت المملكة بين ابنيه أدربال Adherbal وحيمبسال Hiempsal وابن عمهم يوغورطا Jugurtha، وكان هذا الأخير يرفض تجزئة نوميديا ويطمح لتحريرها من كلّ القيود، ولهذا إقترح إلغاء المراسيم التي وضعها ميسيبسا لصالح الرومان فاتضح ليوغورطا أن لا مجال للتفاهم مع ابني عمه، فاشتدت الأزمة بينهم ودخل يوغورطا في حرب ضدهم فقتل حيمبسال، ولما سمع أدربال بمقتل أخيه استنجد بالرومان فتدخلوا سياسيا ببعث وفد يمثل مجلس الشيوخ الإيطالي برئاسة أوبيميوس Opimius لحل النزاع القائم بينهم، فأعادوا أدربال إلى حكمه ومنحوه المنطقة الشرقية من نوميديا أمَا يوغورطا فقد تحصل على المنطقة الغربية، غير أن يوغورطا كان يهدف إلى توحيد نوميديا تحت حكمه والتخلص من السيطرة الرومانية، فاستولى فيما بعد على القسم الباقي والذي كان بحوزة أدربال فدخل إلى مدينة سيرتا Cirta وقتل فيها أدربال والايطاليين الذين دافعوا عنه، وقد أغضب قتل الجالية الرومانية حكومة روما فأعلنت سنة 111 ق.م الحرب على يوغورطا وأعدت له جيشا كبيرا، إلا أنَ قادة الجيوش الرومانية كالبورنيوس باستيا Calpurnius Bastia وscaurus سرعان ما عقدوا الصلح أو صلحاً مع

يوغورطا بطلب من هذا الأخير الذي التزم بموجبها بدفع الذهب لهم كرشوة. ولم يوافق مجلس الشيوخ الروماني على هذا الصلح، واتهم خصوم باستيا هذا الأخير بالرشوة فاستؤنفت الحرب من جديد، رغم أنّ يوغورطا ذهب بنفسه إلى روما لأداء الشهادة و يعتذر، فغادرها قائلا كلمته المشهورة "في روما كل شيئ يباع". وعند عودته إلى سيرتا أعلن يوغرطا الحرب على روما وألحق بالجيش الروماني الذي كان يقوده ألبينيوس Albinus هزيمة سنة 110 ق.م، وفي سنة 109 ق.م أسندت روما المهمة للقائد الروماني ميتيلوس Metellus فأحرز هذا الأخير انتصاراً على يوغورطا في معركة زاما فحارب وخرب المدن التي خرجت عن طاعته، ونظرا للتفوق الروماني من حيث العتاد والعدة استنجد يوغورطا بصهره باخوس Bocchus ملك موريطانيا فانضم إلى صفوفه، وكان القائد الروماني أثناء هذه المواجهة ماريوس Marius فدمر هذا الأخير القبائل الموالية ليوغورطا وأحرق بيوتهم ومزارعهم وقتل سكانها. وأمام المقاومة الشديدة ليوغورطا لم يجد القائد الروماني ماريوس الحل إلا ببعث مساعده المسمى سيلا Sylla في مفاوضات مع باخوس لتسليم يوغورطا، ولما شعر باخوس هذه المرة بالخطر يحدق بمملكته قبِلَ العرض ودبر مؤامرة ليوغورطا الذي سلم إلى أعدائه ثم حمل إلى روما فأودع في السجن حتى مات جوعا سنة 104 ق م و هكذا تخلصت روما منه بعد حرب دامت ست سنوات، وكمكفأة لتحالف باخوس مع روما أضافت إلى نفوذه جزءا من المملكة النوميدية.

هيامبسال الثاني و هيرباص

وبمقتل يوغرطا قسمت نوميديا إلى قسمين : جزء منها أعطوه إلى باكوس جزاء تحالفه مع الرومان والجزء الآخر أعطوه إلى غودة Gauda شقيق يوغورطا ولكن هذا الأخير لم يعيش طويلا، فخلفه في ملكه الأمراء هيامبسال الثاني Hiempsal II حفيد ماسينيسا وهيرباص Hierbas ابن غودة وتحصل كل واحد منهم على جزء من المملكة، وسرعان ما دخلوا في حرب جراء انحياز كل طرف منهم إلى قادة الحرب الأهلية التي كانت مشتعلة في روما بين الجمهوريين والملكيين يقودها كل من ماريوس وسيلا. استطاع في الأخير هيرباص أن يخلع هيامبسال من حكمه، وبمجيئ الحاكم الروماني بومبي Pompée إلى إفريقيا أعاد هيامبسال إلى ملكه وقتل هيرباص.

يـــوبـا الأول

وعنـدما توفـي هـيامبسال الثـاني خـلفه ابـنه يـوبا الأول Juba I. وكـان الـنزاع لازال قائما بيـن الجمهورييـن والملكييـن. فـناصر يـوبا الأول حزب بومبي الملـكي بينما أيد باخوس الثاني ملك موريطانيا حزب القيصر César الجمهوري. وسرعان ما استطاع القيصر الانتصار علـى جيـوش بومبي في معركة تابسـوس Thapsus. فبـقى يـوبا الأول لوحـده يحـارب عـدوه القـيصر فـطارده هـذا الأخـير ونـزل بإفريقـيا بمدينـة سوسـة فـدخلوا فـي حـرب شرسـة انتصـر عـلى اثرهـا القـيصر الروماني، واثر الهزيمة انتحر يوبا الأول. وفي سنة 46 ق. م ألغى القيصر المملكة النوميدية وضمها إلى المستعمرات الرومانية وسمها بافريقيا الجديدة ومنح الجزء الشمالي الغربي منها إلى مرتزقة سيتيوس Sittius جزاء مشاركتهم مع القيصر في الحرب ضد بومبي فاتخذوا من سيرتا عاصمة لامارتهم وهي كونفيديرالية تضم مدن سكيكدة والقل وميلة، وأضـاف جـزءًا مـن الأراضــي النوميديـة إلـى مملكـة موريطانية بقيادة الملك بـاخوس، وشـجع القيصـر سياسـة الاسـتغلال والاسـتيطان فوزع الأراضي الفلاحية على جنوده وأخضع الشمال الإفريقي للحكم المباشر لروما. من بعدها وقع نزاع بين الولايتين الإفريقيتين الجديـدة والقديمة فطلب سيكتيوس Sextius الحاكم المخلوع من طرف مجلس الشيوخ من النوميـدي أرابيـون Arabion مساعدته للقضـاء علـى كورنيفيـسيوس Cornificius حـاكم إفريقيـا القديمة المـوالـي لمجلس الشـيوخ والـذي أصبـح بقـرار مجـلس الشـيوخ حاكِماً للولايتيـن، فـانضم أرابيـون رفقـة جنـوده النوميدييـن إلـى جـانب الحـاكم القديـم لافريقيـا الجديـدة سيكتيوس فتمكن النوميـدي أرابيـون مـن القضـاء علـى سـيتيوس رئيـس المرتزقـة وأخرج أنصاره من مدينة سيرتا وطرد جيش باخوس عن الجزء الغربي من نوميديا والـذي منحـه لـه سـابقا القيصـر، وبـهذا الانتصـار الكبيـر استطاع أرابيـون توحيـد نوميديا من جديد فجلب له هذا العمل غيرة حليفه الروماني سيكتيوس الـذي خـاف أن يستحوذ أرابيون على نوميديا بكاملها فأوعز بقتله.

يـــوبـا الـثـانـي

وبموت باخوس الثاني نصبت رومـا يـوبا الثـاني ملكـا علـى الشـمال الإفريقـي (نوميديا الشرقية و الغربية) وهذا نظرا للاستعداد الذي وجدوه لديه في التعاون مع رومـا وكـان عـلى قـدر كبيـر مـن العلـم، فتلقـى فـي صغـره العلـوم بمدينـة رومـا وألف العديد من الكتب في تاريخ الرومان وجغرافية افريقيا وجزيرة العرب وفي الموسيقى وقد تزوج من سيلينـي ابنة كليوباطرة المشهورة. فكان يحكم تحت

حماية الرومانية كموظف في خدمتها، واتخذ من مدينة شرشال عاصمة له. واستمر حكمه حوالي نصف قرن عرفت فيها المملكة النوميدية الاستقرار والهدوء حتى وفاته سنة 23 م.

بطليموس

ومن بعده تولى الحكم ابنه بطليموس Ptolémée، وفي عهده ظهر ثائر نوميدي اسمه تاكفاريناس Tacfarinas الذي فر من الجيش الروماني ثم أعلن الحرب ضدهم وتحالف مع قبائل المور والكنتانيين ضد سياسة روما التوسعية بمساعدة نائبه مازيبا Mazippa، وكانت من الدوافع الأساسية لهذه الثورة مطالبة الامبراطور الروماني تبيريوس بإعادة أراضي مواطنيه لأصحابها النوميديين وقد خسر معركته الأولى ضد بروقنصل إفريقيا فيريوس كاميلوس Furius Camilius سنة 17 م ثم غير تاكفاريناس أسلوبه الحربي معتمدا على الكر والفر بمهاجمة الحصون و القلاع الذي أرهقت الجيش الروماني المتعود على الحرب النظامية وتمكن من إحراز عدة انتصارات عليهم. وتوسيع نار الثورة في العديد من مناطق نوميديا، وبقي الحال هكذا إلى أن فاجأه القائد الروماني دولا بيلا في حصنه بمنطقة صور الغزلان وانقض على جنوده ورمى تاكفاريناس كل قواه في هذه المعركة التي قتل أثناءها. وهكذا بعد مقاومة دامت سبع سنوات من 17 م إلى 24 م تمكن الرومان من إخمادها. وخلال هذه الفترة اتسم حكم بطليموس اتجاه روما بالمسالمة متبعا سياسة يوبا الثاني وبالرغم من ذلك قتل على يد الامبراطور كاليكولا Caligula حسدا وبغضا سنة 41 م. وبموته انتهى نظام الحماية ودخلت نوميديا تحت الحكم المباشر الروماني فأصبحت اقليما تابعا لها.

الحكم المباشر

وفي سنة 42 م قسم الإمبراطور الروماني كلود Claude شمال إفريقيا إلى قسمين : موريطانيا القيصرية وعاصمتها شرشال وموريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة. ثم قسموها إلى عدة مقاطعات منفصلة فيما بينها يحكمها ولاة ذو سلطة واسعة يخضعون كلهم للسلطة المركزية بروما، وقسموا هذه المقاطعات إلى نوعين: مدنية وهي التي يسود فيها الهدوء، وعسكرية المناهظة لروما، وتعاقب على حكمها عدة أباطرة أقاموا فيها نظاما تمييزيا استغلاليا طيلة حكمهم الذي دام أربعة قرون من سنة 42 م إلى 430 م، مستعينين في مهماتهم ببعض القواد النوميديين مثلما كان الباشاغات في عهد الاحتلال الفرنسي. وعاشت نوميديا فترة طويلة من الهدوء Pàx Romana ولكن نظرا لتسلط الرومان على الأهالي كان لا مَفرَ من الدخول في مواجهة اندلعت على إثرها ثورات في مختلف المدن الجزائرية من أشهرها ثورة الثائر النوميدي فرموس Firmus بجرجرة سحق الجيش الروماني خلال عامين متواليين ابتداءً من سنة 369 م، وانضم إلى صفوف المعارضين المسيحيين الدوناتيين وعلى رأس قوة مقّدرة بعشرين ألف ثوري استولى على مدينة الجزائر وشرشال والتنس، واستطاع أن يهزم القائد الروماني رومانوس Romanus لكنه خسر المعركة من بعد عندما اصطدمت قواته بالجيش الروماني الذي كان يقوده تيأودوس Théodose فأعاد له مفاتيح مدينة الجزائر وانسحب منها، وعلى إثْرِ المؤامرة التي دَبَرَها له أخوه غيلدسون Gildson الموالي للرومان ألقي القبض على فرموس وزجَ به في السجن أين انتحر. اجتاحت من بعدها الإمبراطورية الرومانية فوضى عارمة وتسبب ذلك في ضعف السلطة الرومانية. وهكذا انتهى الحكم الروماني بشمال إفريقيا على يد القائد العسكري الروماني بونيفاس Boniface انتقاما من الحكومة المركزية بروما في عهد الامبراطور Valentinien IIII، فاستنجد بالوندال الذين كانوا مقيمين في إسبانيا وسلم لهم شمال إفريقيا سنة 429 م.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لم يستفد النوميديون شيئا كبيرا من الاحتلال الروماني رغم أنه استغرق بعة قرون، فكان عهدهم يتسم بالطابع العسكري والاقتصادي، يهدف من ورائه لاستيلاء على ثروات شمال إفريقيا دون رقيب لخدمة مصالح سكان روما وسياسة فرق تسد" اتجاه الأهالي، وهي نفس السياسة التي انتهجتها فرنسا قرونا من بعد في الجزائر. ولهذا الغرض اهتم الإيطاليون بالفلاحة منذ أن وطئت أقدامهم ضي افريقيا، وبلغ عددهم في المرحلة الأولى اثني عشر ألف معمر، اشتغلوا زراعة ونزعت أخصب الأراضي من أصحابها الشرعيين بالقوة وقسمتها إلى حصص متناسبة ووزعتها على المواطنين الرومان من الأرستقراطيين والموظفين سامين والضباط والجنود اعتبارا أنّ الأرض ملك للامبراطورية الرومانية و تدخل ضمن أملاك الدولة وبالمقابل قامت بترحيل النوميديين إلى الأراضي القاحلة والرعوية، ومن أجل الاستيلاء نهائيا على هذه الأراضي الفلاحية قامت روما بمسحها وتنظيمها وتشجيع المواطنين الرومان للهجرة والاستيطان بها، فأنشأوا مستثمرات فلاحية كبيرة وشرعوا في شق الطرق وتعبيدها لتسهيل المواصلات الداخلية وطوروا وسائل النقل لخدمة مهمة التصدير فوسعوا من الأراضي الفلاحية، وكرس الرومان مجهوداتهم في زراعة القمح التي كانت له شهرة كبيرة، ولهذا الغرض أنشأوا مخازناً لتخزين الحبوب والمطاحن لطحنها، وفي القرن الثاني ميلادي تقلصت زراعة الحبوب بسبب موجات الجفاف التي أحلت بإفريقيا فعوضها الرومان بزراعة أشجار الزيتون وساعدهم في ذلك مناخ إفريقيا. كما اهتموا بزراعة الكروم وتربية المواشي وكانت معظمها تصدر إلى إيطاليا، كما اعتنى الرومانيون بنظام الري لخدمة الفلاحة واعتمدوا في هذا الجانب بالتجربة القرطاجية للخبرة الكبيرة التي كانت تمتلكها، فأنشأوا السدود والآبار والصهاريج وطوروا قنوات نقل المياه والخزانات وقنوات التوزيع وكانت تؤدي وظائف مزدوجة حيث تمون الأرياف والمدن وأنشأوا مصانع كمعاصر الزيتون ونسج الملابس ودبغ الجلود وكانت كلها موجودة بالمدن.

وأخضع الرومان سكان إفريقيا لنظام جبائي متعدد الوجوه وهذا ما نص عليه أبيانوس Apianus "أنّ الرومان أخضعوا الأرض والأشخاص لضريبة المهزومين".

وبالتالي أصبحت الأرض والشعب النوميدي في عِداد الغنائم، وكانت أموال الضرائب ترسل إلى خزينة الدولة بروما وتكلف بجمعها الإدارة المالية تحت سلطة الوالي، وهي إجبارية تفرض على الرجال والنساء. أمّا المزارعون الرومان فكانوا معفيين من دفع الضريبة. ومن أنواع الضرائب المفروضة على النوميديين ضريبة التموين وضريبة المركوبات أي الخيل، هذا إلى جانب الرسوم الجمركية على المبيعات.

أمّا من الناحية الاجتماعية، فكان معظم الأهالي يشتغلون بالفلاحة لدى الملاك الكبار من العائلات الأرستقراطية الرومانية وكانت وضعيتهم الاجتماعية جد سيئة، كما أن القانون الروماني كان يرفض احتكام النوميديين للقانون الروماني لأنهم يعتبرون غرباء، ولهذا كانوا يفتقرون إلى قانون يحميهم من جور الرومان، كما أصدرت الامبراطورية قراراً يحق بموجبه للنوميديين الحصول على حق المواطنة ولكن كانت شكلية أكثر منه واقعية لم يستفيد منه إلا القليل من المواطنين النوميديين من الطبقة المثقفة والأغنياء وكانت إجراءاته جد معقدة وطويلة ولا تعفي صاحبها من دفع الضريبة المستحقة للشعب الروماني.

هذا، وعرفت إفريقيا طيلة الاحتلال الروماني هجرة كبيرة من الوافدين الإيطاليين اشتغلوا بالفلاحة والتجارة والتعليم والطب واستقر معظمهم بالمدن، هذا بالإضافة إلى العبيد الذين جلبوا من المستعمرات الرومانية واستخدموا في مختلف الخدمات ذات الطابع الحضري والريفي. كما كانت المدن تحتوي على فنادق وحمامات وأسواق، وكان سكان نوميديا يشاركون في الألعاب الرياضية مثل المصارعة، هذا وبالرغم من دخول عادات رومانية في حياة البربر إلا أنهم لم يتأثروا كثيرا بها.

الحياة الفكرية والدينية

انتشرت اللغة اللاتينية انتشارا واسعا بين البربر وهذا بالطبع راجع لطول ـدة الاستعمار الروماني في شمال افريقيا، وبالرغم من ذلك بقيت اللغة البونية في عهدهم إلى جانب اللغة اللاتينية لغة تخاطب وكتابة لدى بعض السكان. كما انتشر في عهدهم النشاط المسرحي وكان جل النشاط الثقافي متمركزاً في روما. وعلى خلاف الحضارة الإغريقية لم تساهم الحضارة الرومانية كثيرا في الحضارة الانسانية ما عدا الدور الذي لعبته في انعاش الفكر السياسي عن طريق تزويده بمشرعين بارعين وفقهاء قانونيين برعوا في تنظيم وتدوين القوانين. أما سياستها الخارجية فكانت تعتمد على السيطرة العسكرية تهدف من ورائها الاستيلاءَ على أراضي الشعوب المجاورة لها واستغلال ثرواتها.

أما من حيث العمارة فقد ترك الرومان آثارا كبيرة بالجزائر لازالت أطلالها باقية إلى يومنا في كل من مدينة جميلة وتيبازة وشرشال في غرب الجزائر العاصمة وتيمقاد بباتنة.

في بداية الاحتلال الروماني بقي النوميديون محتفظين بديانتهم الوثنية من عبادة الشمس والقمر وآلهات قرطاجنة مثل تانيت وبعل وحمون، كما كان الكثير منهم يؤمنون بالسحرة والمنجمين، وحاولت روما نشر ديانتها الرسمية المتمثلة في عبادة الامبراطور وأقامت لأجلها كهاناً يسهرون على نشرها ومآدب ومهرجانات يحتفلون بها، إلا أنَ هذه الديانة لم تستطع التغلغل في نفوس النوميديين وظلوا محتفظين بمعتقداتهم القديمة. وفي حوالي القرن الثاني الميلادي دخلت الديانة المسيحية إلى شمال افريقيا عن طريق تجار المشرق وبالضبط من مدينة أرشاليم، فلسطين حاليا ثم مصر ثم ليبيا ونشرتها البعثات التبشيرية، وحظيت بإقبال شديد فاعتنقها الكثير من سكان البربر المحرومين، خاصة سكان المدن، ولم تستطع هذه الديانة التوغل في الأرياف والجبال بدليل أن الكثير من سكان البربر بقوا على ديانتهم الأولى وهي الوثنية، ووجد النوميديون في الديانة المسيحية مخرجاً لآلامهم التي كانوا يعانون منها جراء الاضطهاد الروماني، وفي بداية الأمر لم تعتنق الطبقة البورجوازية الرومانية المسيحية على أساس أنها دين الضعفاء، واضطهدتهم الإمبراطورية الرومانية أشد اضطهاد. فعذبتهم وقتلتهم وزجت بهم في

السجون فالتزم أتباعها بالسرية والكتمان، وأمر الإمبراطور بتصفية الإدارة والجيش من معتنقي المسيحية، ولم تعتنق الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية رسميا إلا في عهد الإمبراطور قسطنطين الأكبر (306 م– 337 م) فشجع حركة التنصر وشيد كنائس وأقر يوم الأحد عطلة رسمية للمسيحيين وبهذا أصبحت الكنيسة حليفة الإمبراطور واستفاد القساوسة من امتيازات لا تحصى، فاشتغلوا في القضاء والمجالس البلدية وأصبحوا يشكلون طبقة خاصة بهم مما دفع الرومانيين المترددين من الأرستقراطيين والمواطنين إلى اعتناق هذه الديانة حبا في احتلال المناصب والحصول على امتيازات. وهذه الوضعية التي آل إليها رجال الكنيسة من بذخ في المعيشة هي التي أدت بهم للإنحراف عن المبادئ الأولى للمسيحية وشكلت نقطة انفجار وشقاق بينهم وبين المسيحيين النوميديين من الدوناتيين Donatistes، وبالتالي ظهر حزبان حزب الكنيسة الكاثوليك المؤيد للامبراطورية، وحزب مناهض للسلطة والكنيسة وهو حزب دونا نسبة لزعيمهم دوناتوس Donatus فرفضوا الخضوع للإمبراطور ولم يعترفوا بأسقف قرطاجنة، والحقيقة أنهم لمسوا أنَ الإمبراطور يستغل هذه المسيحية لأغراض سياسية لخدمة مصالح ملكه، وفي البداية اعتمدت حركة دونا على للطرق السلمية في نشر مبادئها، ولكن الإمبراطور الروماني سنة 316 م قرر توحيد المسيحية في إفريقيا ولكن الدوناتيين رفضوا ذلك ودفعوا ضريبة كبيرة جراء ذلك في الأرواح والممتلكات، ورغم تدخل القسيس أغسطس Augustin سقف مدينة عنابة لحل هذا النزاع بين الكاثوليك والدوناتيين إلا أنه لم يفلح في ذلك، ومن ثم دخل أتباع الدوناتية في مواجهة عنيفة ضد السلطة والكنيسة المؤيدة لهم وذلك ابتداء من سنة 347 م، ولهذا الغرض تحالف الدوناتيون مع الثوار الريفيين في مواجهة السلطة والكاثوليك والأغنياء، ولكن استطاعت روما إخماد هذه الثورة. هذا وللعلم أنَ الديانة اليهودية سبقت المسيحية في شمال إفريقيا بحيث جاءت بمجئ الفينيقيين.

واستمر من بعد البربر في عدائهم للمسيحية. وخلاصة القول: أنَ الديانة المسيحية لم تؤثر كثيرا في البربر بدليل دخولهم قروناً من بعد في الإسلام والذي استطاع أن يمحو الآثار المتبقية من الاستعمار الروماني،

عـــهـــد الـــونـــدال

429 م - 534 م

هاجرت شعوب الوندال وهي من أصل جرماني من سواحل البلطيق حوالي القرن الأول الميلادي وزحفوا إلى أوروبا واستولوا على بلاد الغال وإسبانيا سنة 409 م واستقروا بها، وأثناء استعدادهم للحملة على الشمال الإفريقي قتل ملكهم Gandéric فخلفه في الحكم أخوه Geiséric سنة 428 م الذي استولى في نفس هذه السنة على إفريقيا الرومانية وأسس بها مملكة دامت إلى غاية عام 534 م. وأثناء اكتساح الوندال لشمال افريقيا كان الصراع قائما بين الرومان على عرش الامبراطورية، وكان النوميديون ينتظرون دخول الوندال بلهف ليخلصوهم من الاستعمار الروماني، كما وجد الدوناتيون Donatistes فرصة للانتقام من الكاثوليك الذين اضطهدوهم، ودخلوا إلى إفريقيا الشمالية كما ذكرنا سابقا من إسبانيا تلبية لنداء القائد الروماني بونيفاس حاكم سبتة عن طريق مضيق جبل طارق (طنجة) سنة 428 م بجيش عدده ثمانين ألفا من رجال ونساء وأطفال من بينهم 15000 عسكري بقيادة الملك جزريك Geiséric، وأثناء دخولهم للشمال الافريقي خربوا كلّ ما وجدوه في طريقهم، من مزروعات ومباني وطردوا أتباع الديانة الكاثوليكية. وعندما أعيد بونيفاس إلى الحكم من طرف الإمبراطور الروماني طلب الوندال بالرحيل من شمال إفريقيا فكان جوابهم الرفض، فأعلن الحرب ضدهم وخسر المعركة ثم لجأ إلى مدينة عنابة Hippone واستطاع أن يصمد أمام قوة الوندال التي حاصرته مدة عام وفي الآخير دخلوها عنوة سنة 431 م وجعلوها عاصمة لهم، ففر بونيفاس إلى إيطاليا وندم على خيانته حين لا ينفع الندم، وأثناء هذا الحصار توفي الفيلسوف والقسيس الجزائري المشهور أغسطوس Augustin. وفي سنة 435 م انعقدت معاهدة بين روما والوندال تم بموجبها الاتفاق على بقاء الوندال في الأراضي النومدية مقابل دفعهم لضريبة الأرض، ولكن سرعان ما خرق الوندال هذه المعاهدة، وبينما كانت روما تتخبط في مشاكل داخلية استولى الونداليون على قرطاجنة سنة 439 م بدون مقاومة، ثم صنعوا أسطولاً ضخماً و شنوا به حملات على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية واستولوا عليها ثم استطاعوا من بعد مقتل الامبراطور فالنتينيان الزحف إلى روما واحتلوها سنة 455 م ومكثوا فيها حوالي نصف شهر وبعد تخريبها رجعوا منها إلى إفريقيا بغنائم وافرة، وأخيرا اعترفت الإمبراطورية الرومانية بسيادة الوندال على الشمال الافريقي. وأثناء وجودهم

بشمال افريقيا استولى الوندال على أخصب الأراضي الزراعية وطردوا ملاكها من البربر وفرضوا عليهم ضرائب فاحشة، كما طردوا واضطهدوا رجال الكنيسة، وأصبحت في عهدهم الديانة الآرية هي الديانة الرسمية، واحتفظ حكم الوندال على النظام الإداري الذي كان سائدا في عهد الرومان، وتمت هذه الانتصارات على يد مالك الوندال المشهور جنسيريك الذي توفي سنة 477 م، ثم خلفه ابنه هونيرك Hunéric ولكن حكمه لم يدم طويلا وكان خصما عنيدا للكاثوليكيين وقد توفي سنة 484 م، ومن بعده حكم الوندال كونطامون Gunthamund وفي عهده رد الاعتبار لرجال الكنيسة وعرفت نوميديا ثورات خضها البربر ضد حكم الوندال وتوفي سنة 496 م، فخلفه ثرازامون Thrasamun وكان شخصا مثقفا واتسم عهده بالبذخ واضطهاد رجال الكنيسة الكاثوليكية وانهزم جيشه أمام ثوار البربر فمات غما من أجل ذلك سنة 523 م، فخلفه ابنه هيلديريك Hildéric الذي تزوج ابنة امبراطور القسطنطينية الذي كانت تربط بينهم علاقة جيدة وكان متسامحاً جدا مع رجال الكنيسة وخلع من منصبه إثر ثورة البربر ضده فاعتقل ونصبوا جيليمير Gélimer مكانه، فاستنجد هيلديريك بالإمبراطور البيزنطي جوستينيان Justinien الذي طالبهم بإرجاعه إلى عرشه ولكن الوندال رفضوا، فأعلن عليهم الحرب وشن حملة كبيرة تتكون من 14000 عسكري تحملهم 500 سفينة حربية بقيادة القائد البيزنطي بليزار Bélisaire واستطاع أن يحتل قرطاجنة سنة 534 م دون مقاومة تذكر لأن الأسطول الوندالي كان موجوداً في السواحل الإيطالية محاصرا جزيرة سردينيا الثائرة، ثم تبع بليزار هجومه على جيوش الوندال المتبقية، وإثر هذا الانهزام فرّ جيليمير من قرطاجنة واختبأ في الجبال ولشدة قساوة الحياة هناك استسلم إلى القائد بليزار. وبعد حوالي قرن من احتلال نوميديا انتهي عهد الوندال في الشمال الإفريقي دون أن يترك أي أثر حضاري، وأكثر ما كتب عليهم أنهم شعب همجي لا يعرف معنى لحضارة متاز حكمهم بالظلم والاستبداد.

وكان الحكم في عهدهم ملكيا وراثيا استبدادياً يساعده مجلس أعيان متكون من القادة الكبار في الجيش والموظفين السامين في المملكة، وقسمت في عهدهم نوميديا إلى خمس مقاطعات يحكم كلَ منها حاكم يتولى الشؤون الإدارية والقضائية واحتفظ الوندال باللغة الاتينية في معاملتهم الإدارية مع الأهالي.

واتسم المجتمع الوندالي بالطابع العسكري، وكانوا كغيرهم من المحتلين السابقين مقسمين إلى طبقات تأتي في المرتبة الأولى طبقة النبلاء المتكونة من

قادة العسكريين والموظفين السامين ومنحت لهم أوسع وأجود الأراضي الفلاحية ويليها طبقة الجنود المحاربين وتضم كل المواطنين الوندال وزعت عليهم قطعة رض، هذا بالإضافة إلى المرتزقة الذين كانوا يحاربون معهم وأخيرا الرقيق جلبوهم معهم من إسبانيا واستخدموهم في الفلاحة.

وفي عهدهم تقلصت الحياة الاقتصادية في نوميديا لسبب أعمال القرصنة التي كانوا يقومون بها في البحر المتوسط وهذا خاصة في العهد الأول لم تكن تكفي إلا لسكان نوميديا وركزت على صناعة النسيج والحرير والأثاث وصناعة الأسلحة الحربية والسفن. وقد استولى الوندال على أخصب الأراضي الزراعية وترك الأقل جودة للأهالي وكبلوهم بالضرائب بينما كان الونداليون معفيين منها، هذا وبقيت الفلاحة على حالها مثلما كانت عليه في عهد الرومان من إنتاج الحبوب والأشجار المثمرة و تربية المواشي من الأغنام والخيول، وكانوا يتاجرون بهذه الخيرات مع الدول الأجنبية.

العهد البيزنطي
534 م - 647 م

حلت الامبراطورية البيزنطية عام 330 م محل الامبراطورية الرومانية واتخذت من القسطنطينية عاصمة للمسيحية ويرجع الفضل في تأسيسها إلى قسطنطينيوس الذي نقل مقر الحكم من روما إلى القسطنطينية، والسبب في ذلك أنّ هذه البلاد لم تعرف حملات غزو كما عرفتها روما ولم تتلق ضربات قوية مثلها.

وبانتصار بليزار كما ذكرنا سابقا على جيوش الوندال أصبحت افريقيا الشمالية خاضعة للحكم البيزنطي، واستولى من بعدها على جميع الأراضي التي كانت بحوزة الوندال سواء في نوميديا أو سردينيا أو جزر البليار، ثم بنى حصونا في الأراضي المحتلة من الشمال الافريقي لحمايتها من العدوان الخارجي، وعند رحيله عُينَ مكانه مساعده سليمان Solomon حاكما على نوميديا واتخذ من قرطاجنة عاصمة له. ولم يحسن البيزنطيون كغيرهم ممن سبقوهم معاملة البربر ففرضوا عليهم ضرائب فاحشة مما جعلهم يستنفرون منهم، فعرف عهدهم عدة ثورات بربرية متتالية وعنيفة عمّتْ كلّ أرجاء الشمال الإفريقي، لم تتوقف إلا

برحيل البيزنطيين، وقادها كل من الأمراء النومديين كوتسيناس وسطوزاس وابيداس وأناطالاس وميناس وأورثابس في فترات متقاربة ضد الحكام الذين تعاقبوا على الشمال الإفريقي من البيزنطيين أمثال سليمان الخصي وسرجيوس وأريو بندوس وأرتبان وجان طروكليتا، ووقعت أغلب هذه المعارك في الجزائر في كلّ من مناطق الأوراس وتبسة واستطاع القادة النوميديون التغلب عليه في الكثير من المعارك، حتى أنّ القائد البيزنطي سليمان الخصي قتل أثناء معركة، واستطاع البربر سنة 593 م محاصرة مدينة قرطاج لمدة من الزمن. ورغم أن الحاكم البيزنطي جان طروكليتا استطاع في نهاية الأمر التغلب على البربر وإخماد ثورتهم لمدة معينة حتى استأنفوا من جديد بعد وفاة الامبراطور البيزنطي جستينيان سنة 565 م فخلفه جوستين justin الذي دام حكمه حتى سنة 578 ق.م. وفي سنة 596 م استدعى القائد البيزنطي على شمال افريقيا جرناديوس Gernadius رؤساء قبائل البربر إلى قصره للتفاوض معهم ثم قتلهم جميعا فزادت هذه العملية الشنيعة من إصرار البربر على المضي قدما في الكفاح، وفي سنة 610 م اعتلى على العرش البيزنطي هرقل Heraclius وفي عهده شهدت إفريقيا فترة من السلم والرخاء وبعد موته خلفه ابنه Constant II والذي عرف عهده فترة انحطاط الامبراطورية البيزنطية، وبينما كان العرب يكتسحون الامبراطورية البيزنطية أعلن حاكم شمال افريقيا جرجير Grégoire سنة 646م انفصاله عن الحكومة المركزية ونصب نفسه امبراطورا واتخذ من مدينة سبيطلة المتواجدة بالقطر التونسي في الجنوب الغربي من القيروان مقرا له. هذا وحارب البيزنطيون في عهدهم أتباع Dona واليهود والآريين حربا دينية عنيفة، كما أن البربر رفضوا دفع الضرائب والخضوع لسلطة البيزنطيين، وكانت الجزائر في عهدهم مقسمة إلى عدة إمارات يحكمها أمراء من البربر مستقلين عن الحكم البيزنطي، وهذا ما يفسر الصعوبات والمقاومة الشديدة التي واجهت الفتوحات الإسلامية في الشمال الإفريقي، ولم يترك البيزنطيون آثاراً عمرانية تذكر تمجد مرورهم بافريقيا الشمالية و ذلك على خلاف الرومان فكان اهتمامهم منْصَبًا على بناء القلاع والحصون وتعبيد الطرق وتشجيع الفلاحة لخدمة وطنهم الأم.

الفتح العربي الإسلامي للشمال الإفريقي

في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثاني الخلفاء الراشدين استطاع عمر بن العاص فتح مصر وذلك سنة 20 ه، ومن تم توجه إلى برقة فصالح أهلها مقابل دفع جزية سنوية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، ثم تمكن من فتح طرابلس عنوة وقضى على الروم الذين كانوا متواجدين بها وغنم بما كان موجوداً في المدينة، ثم فكر في اجتياح شمال إفريقيا فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل "فكتب إليه عمر" لا... إنها ليست بافريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت".

وبتولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة الإسلامية عزل عمر بن العاص عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 24 ه، فكتب إلى عثمان بن عفان يستأذنه في فتح شمال إفريقيا، فأذن له سنة 27 ه من الهجرة الموافقة لعام 647 م وأمده بجيش كبير قوامه عشرين ألفا من الجند شارك فيه سبعة من الصحابة وهم : عبد الله بن سعد بن أبي سرح، عبد الله بن الزبير بن العوام، عبد الله بن جعفر، عبد الله بن عباس بَن عبد المطلب، عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر بن العاص، وانتصر عبد الله بن سعد على قوات جرجير الحاكم البيزنطي على الشمال الإفريقي المتكونة من مائة وعشرين ألف فارس من البيزنطيين والبربر وقتل القائد جرجير في المعركة، وتحصل الجيش الإسلامي على غنائم كبيرة في هذه المعركة، ثم أسرع الروم والبربر إلى طلب الصلح، فأمنهم عبد الله بن أبي سرج على مقدار من المال ثلاثمائة قنطار من الذهب، وعاد إلى مصر عام 29 ه.

وبمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 35 ه بايع المسلمون مكانه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فشب خلاف بينه وبين معاوية بن أبي سفيان الذي طلب الخلافة لنفسه نتجت عنها فتن داخلية ظهر خلالها الخوارج وهي طائفة من المسلمين نقضت بيعة علي ولم تعترف بالبيعة لمعاوية وانقسمت فيما بعد إلى عدة طوائف كالاباضية والصفرية والأزارقة والإسماعلية، ولم تتوقف الفتنة إلا بمقتل علي على يد متعصب خارجي عام 40 ه. وفي تلك المدة نسي المسلمين

الفتوحات ولم تستأنف إلا باستقرار الحكم في يد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان فعين معاوية بن حديج الكندي والياً على إفريقيا، وبينما كان المشرق يعيش صراعاً حول الخلافة انتهز امبراطور بيزنطة هذه الفرصة وبعث بجيش لاحتلال شمال إفريقيا من جديد، فطرد حاكمها الذي التجأ إلى الخليفة معاوية طالبا منه النجدة، فكلف الخليفة القائد معاوية بن حديج وأمده بجيش كبير لغزو إفريقيا فاستطاع هزم الجيش البيزنطي بسهولة وسمحت هذه الحملة بفتح العديد من المدن التونسية مثل بنزرت وسوسة، ثم عاد معاوية بن حديج إلى مصر. وما هذه الحملات التي قام بها كل من عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج إلا تمهيدا سمح للقادة المسلمين فيما بعد ومن بينهم عقبة بن نافع التعرف على إفريقيا ومن تم الفتح الأكبر للشمال الإفريقي.

وفي سنة 50 ه عين معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع الفهري والياً على إفريقيا وهو قريشي تابعي وليس صحابياً لأنه ولد أثناء حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولم يشارك في الجهاد إلا بعد وفاته، وكان لهذا القائد تجربة كبيرة في الحروب التي خاضها المسلمون في إفريقيا، فواصل الفتح و ... مدينة القيروان بتونس واتخذها مقرا له ولجيشه. ولما استدعى عقبة من طرف الخليفة، عين مكانه سلمة بن مخلد الأنصاري على إفريقيا، فعين هذا الأخير أبو المهاجر دينار حاكما على الشمال الإفريقي عام 55 ه وكانت بينه وبين عقبة عداوة. فدمر القيروان وأسس بالقرب منها مدينة جديدة وواصل أبو مهاجر الفتح ونشر الدعوة الإسلامية في القطر الإفريقي بالطرق السلمية والإقناع وأسلم الكثير من أهالي البربر ومن بينهم القائد كسيلة وقبيلته أوربة التي كانت على دين النصرانية وأصبح من أحسن أو قادته وأنصاره نظرا للصداقة والمحبة التي كانت تربطهم. وتوغل من بعد إلى الجزائر وتغلب على خصومه من البربر والبيزنطيين حتى وصل إلى مدينة تلمسان.

وفي عهد الخليفة يزيد بن معاوية سنة 62 ه وبطلب منه أعيد عقبة بن نافع إلى حكم إفريقيا نظرا للدور الفعال الذي لعبه في فتحها، وكانت علاقته بأبي المهاجر سيئة جدا، فجدد بناء مدينة القيروان وواصل زحفه إلى الشمال الإفريقي لنشر الإسلام، وأثناء غزوه صحب معه أبي المهاجر وكسيلة مقيدين بالحديد وتغلب على البربر والبيزنطيين حتى وصل إلى المغرب الأقصى ففتح مدينة طنجة ولم يوقفه عن تقدمه إلا البحر فقال قولته المشهورة: "اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد

من دونك". ولما بلغ هذه المدينة بعث جيشه إلى القيروان ولم يبق معه إلا عدد قليل من الفرسان حوالي ثلاثة مائة، وأثناء العودة فرّ كسيلة من قبضته فجمع حوله عدداً كبيراً من قومه والبيزنطيين، وعندما وصل عقبة حصن تهودة بالزاب الجزائري استغل كسيلة هذه الفرصة الثمينة وحاصر عقبة الذي وقع في كمين وقضى عليه، فاستشهد معه كلّ أصحابه بما في ذلك الأسير أبو المهاجر وذلك سنة 64 ه، ولازال قبره إلى يومنا هذا في قرية سيدي عقبة التي سميت باسمه والمتواجدة بمدينة بسكرة. ثم توجه كسيلة إلى القيروان واستولى عليها سنة 64 ه واتخاذها مقرا لإقامته وعاصمة لمملكته وبسط نفوذه على معظم القبائل وتحالف مع الروم، وانسحب زهير بن قيس البلوي منها والتجأ إلى برقة ومكث بها مدة خمس سنوات بقيت افريقيا خلالها بدون حاكم إسلامي، ثم بعث له الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 67 ه جيشا زحف به إلى مدينة القيروان ففر منها كسيلة والتجاء إلى الأوراس فتبعه زهير بن قيس وهناك وقعت معركة حاسمة بينه وبين كسيلة وتم النصر لزهير وقتل كسيلة وأنصاره، ولم يواصل زهير زحفه لأن مدينة برقة كانت مهددة من البيزنطيين، فسار نحوها واشتبك معهم ونظرا لقلة عدد جنوده لم يستطيع الصمود كثيرا فقتل زهير وأصحابه جميعا.

وفي سنة 73 ه عين حسان بن النعمان حاكما على إفريقية فأمده الخليفة بجيش كبير قوامه أربعين ألفا. فزحف به على قرطاجة وحاصرها ثم استولى عليها وقضى على البيزنطيين الذين كانوا متواجدين بها، فدمرها حتى لا يعود الروم إليها. ثم اشتبك مع جيش الكاهنة واسمها الحقيقي دهيا الذي كان متواجداً بالأوراس فهزمته، فاضطر حسان بن النعمان إلى التراجع نحو مدينة برقة ينتظر المدد الذي دام ثلاث سنوات. وخلال تلك المدة عملت الكاهنة على تحطيم القرى وإتلاف المحاصيل الزراعية وقطع الأشجار وحرق الغابات لكي لا يعود إليها توهما منها بأن العرب جاؤوا للشمال الإفريقي كغيرهم ممن سبقوهم للاستيطان فيها واستغلال ثرواتها، فزاد هذا العمل من استياء البربر ضدها وكان سببا في انهزامها إذ أصبح البربر يمدون يد المساعدة لحسان ويستعجلونه في الانقضاض عليها. ولما وصلت الإمدادات من الشرق اتجه إليها حسان وقتلها بجبال الأوراس سنة 84 ه، وأصبح أبناؤها من أكبر دعاة الإسلام في المنطقة فأصلحوا ما أفسدته الكاهنة، واتسم عهد حسان بن نعمان في المنطقة بالرخاء والاستقرار والعمران وتنظيم الشؤون الإدارية والمالية والعسكرية.

ولما عزل حسان بن النعمان خلفه في حكم افريقيا موسى بن النصير سنة 85 ه، ولم يجد هذا الحاكم أي صعوبة في بلاد الشمال الإفريقي لأن الطريق مهد له من سبقه، ولما وصل إلى المغرب الأقصى عين طارق بن زياد حاكما على طنجة، ففكر موسى في فتح الأندلس بايعاز من جوليان البيزنطي حاكم سبتة المواجه لجنوبي جزيرة الأندلس والذي كانت له عداوة مع ملك إسبانيا لذريق الذي اعتدى على ابنته التي كانت تتربى في قصره، وعموما كانت إسبانيا تعيش حنة تمزق جراء الصراعات السياسية بين أمرائها من أجل الحكم، ممّا شجع موسى عى فتحها، فأمر طارق بن زياد بغزو الأندلس بعد استشارة الخليفة الأموي، فجمع جيشا كبيرا متكوناً من البربر والعرب قوامه 12 ألفا عبر به البحر وانتصر على جيش الملك لذريق Rodriguez الذي قتل أثناء هذه معركة التي دامت ثمانية أيام. ثم استولى على الأندلس سنة 90 ه بما فيها قرطبة وطليطلة ومالقا واشبيلية ثم لحقه من بعد موسى بن النصير وأكمل فتح باقي المدن الإسبانية حتى وصل إلى جبال البيريني، وتحصل المسلمون خلال غزوهم على العديد من الغنائم من بينها مائدة سليمان والتي قدرت قيمتها في دمشق بمائة ألف دينار، ثم استدعى الخليفة الأموي موسى بن النصير وطارق إلى دمشق، ودام حكم المسلمين في هذه المنطقة ثمانية قرون عرفت بالعصر الذهبي وصلت خلالها الحضارة العربية الإسلامية إلى قمة مجدها ولاسيما في المجالين العلمي والمعماري، بينما كانت أوروبا أنذاك تعيش الجهل وسط الحكم الإقطاعي الرجعي المستبد.

وعندما استدعى موسى بن النصير إلى المشرق، توالى العديد من الولاة على الشمال الإفريقي وكانوا يتمتعون بنفوذ كبير في ولايتهم، ولو أن ادارتهم لشؤون المغرب العربي لم تختلف عن الأساليب التي استعملها الأمويون في بقية أجزاء العالم الإسلامي، فقد ارتكبوا أخطاء فادحة كانت لها نتائج خطيرة في حياة المغرب، فشهد عهدهم اضطرابات وفتن قادها الخوارج بالمغرب مثلهم مثل إخوانهم خوارج المشرق العربي ولو أن دعوة الخوارج اتخذت طابعاً دينياً إلا أنها في الحقيقة مقاومة باسمه ضد السياسية الاقتصادية والاجتماعية الأموية، ولم يسترجع الاستقرار والهدوء إلا بمجيء الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الملقب بخامس الخلفاء الراشدين واعتمد في دعوته لنشر الإسلام على الطرق السلمية بالإقناع والحجة وحسن السيرة وتطبيق مبادئ الإسلام، فقام بعزل محمد بن يزيد القرشي وعين مكانه إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر حاكما على إفريقيا سنة 100 ه

فكان حسن السيرة، وأرسل له عشرة فقهاء يفقهون أهل الشمال الإفريقي في أمور الدين فأسلم البربر جميعهم في أيامه.

وفي عهد الخليفة يزيد بن عبد المالك عين تلميذ الحجاج بن يوسف يزيد بن أبي مسلم حاكما على افريقيا سنة 101 ه فحاول تطبيق السياسة التي اتبعها معنمه في العراق، فأساء معاملة البربر ففرض عليهم الجزية مع أنهم مسلمون، فثاروا عليه وقتلوه سنة 102 ه دون خلع الطاعة للخليفة الأموي، ثم ولي بشر بن صفوان، وعند وفاته خلفه عبيدة بن عبد الرحمن.

وفي عهد هشام بن عبد المالك عين سنة 116 ه عبيد الله بن الحبحاب واليا على الشمال الإفريقي، فولى عمر بن عبد الله المرادي حاكما على طنجة فأساء السيرة وتعامل مع البربر بمنتهى القساوة، فكان عمله الذميم هذا سببا في وقوع الفتن، فثاروا عليه سنة 122 ه تحت قيادة ميسرة المطغري وقتلوه، ثم خلفه عبد الأعلى بن حديج واليا على طنجة ثم قتلوه، ثم بايعوا ميسرة ولم يحسن السيرة في البربر، فثاروا علية وقتلوه، وولوا عليهم خالد ابن حميد الزناتي، وتفاقمت الاضطرابات في تلك الفترة، فبعث إليهم بن الحبحاب جيشا كبيرا بقيادة خالد بن حبيب الفهري واشتبك معهم في طنجة، وقتل خالد الفهري مع مجموعة من أصحابه، ولمّا سمع هشام بن عبد الملك بهذه الحادثة عزل الحبحاب عن ولاية افريقيا عام 123 ه وحل مكانه كلثوم بن عياض القشيري، وزحفت جيوش كلثوم على طنجة وجابهت البربر بقيادة خالد الزناتي، فانهزم العرب والتجأوا إلى سبتة، وعندما بلغ خبر الهزيمة الخليفة هشام أرسل امدادات بقيادة حنظلة بن صفوان سنة 124 ه وتمكن هذا الأخير من القضاء على ثورة عكاشة بن أيوب الفزاري الخارجي. ولما اضطر حنظلة مغادرة الشمال الافريقي سنة 127 ه، عاد عبد الرحمن بن حبيب الفهري من الأندلس فولاه مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين في مكانه، فاستبد بالحكم ولم يستطع إخضاع البربر، واستمرت في عهده الفوضى ثم في عهد أسرته.

وفي عهد الخلافة العباسية استمرت الثورات في الشمال الإفريقي بين الجيوش العربية والخوارج، وتمكن أبو الخطاب من هزم جيوش العباسيين واستولى على القيروان وعين الإباظي عبد الرحمن بن رستم حاكما عليها، ثم عاد إلى طرابلس، وفي سنة 144 ه شن القائد محمد بن الأشعب حملة من مصر بأربعين ألف فارس زحف بها إلى افريقيا، وتمكن من قتل أبو الخطاب ثم وصل إلى تونس واستولى

على القيروان، فغادرها بن رستم، وتوجه إلى تاهرت بالجزائر، وهناك أسس الدولة الرستمية التي لعبت دورا هاما في تاريخ الشمال الإفريقي.

وتعاقب من بعد محمد بن الأشعب العديد من الولاة على المغرب العربي أمثال الأغلب بن سالم التميمي وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم المهلبي وناصر بن حبيب المهلبي، فأساءوا معاملة البربر وأهملوا شؤونهم، فثار عليهم الخوارج وقتل أغلبهم على أيدهم، وتدريجيا بدأت تظهر دول في المغرب العربي منفصلة عن الخلافة العباسيية أمثال الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى والدولة الأموية بالأندلس والأغلبية بتونس والرستمية بالجزائر.

ويقول ابن خلدون في كتابه "تاريخ البربر"، "بأن اعتناق البربر للإسلام لم يتم كلية إلا في سنة 101 ه، وأثناء غزو العرب للشمال الإفريقي من لم يكن منهم يعتنق النصرانية أو اليهودية كان يعبد الشمس والقمر والأصنام".

الدولة الرستمية
160 هـ - 296 هـ
776 م - 909 م

عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي ولد في العراق، وفي صباه رافق والداه لأداء فريضة الحج فمات أبوه إثر مرض أصابه في مكة، وبقي عبد الرحمن رفقة أمه فصادفت حاجاً من القيروان تزوجها، وعاد بالابن عبد الرحمن وأمه إلى مدينة القيروان أين نشأ على الأخلاق الإسلامية الفاضلة وقضى صباه وشبابه وتلقى علوم الشريعة الإسلامية، فحفظ القرآن وتعلم السنة في مساجد القيروان، وفيها التقى بدعاة الإباضية، وكان شخصا تقيا ومتقشفا وفي هذه الفترة كان الكثير من سكان الجزائر يعتنقون المذهب الإباضي الذي وجدوا فيه ملجأ من ظلم الأمويين وسموا بالخوارج والواقع أنَ اعتناق المذهب الخارجي كان يهدف من ورائه تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافرها بما ينتج عنها من مساواة سياسية واقتصادية واجتماعية وحق المسلمين في الثورة على الحكام عندما يتعدون على شرع الله. ولما نضج عبد الرحمن بن رستم بعثه داعية الإباضية سلمة بن سعيد في بعثة علمية إلى العراق، وفي البصرة تتلمذ على يد شيخها إمام الإباضية أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مدة خمس سنوات من سنة 135 ه حتى سنة 140 ه وكان يدرس في مدرسة سرية لأنَ المذهب الاباضي لم يكن مسموحٌ بتدريسه، وتخرّج داعية حمل علمه إلى المغرب العربي وتولى نشره وتخرج على يديه الكثير من الدعاة، وهذه الخصال الحميدة من أخلاق وعلم وذكاء هي التي أهلته فيما بعد لبناء الدولة الرستمية. ولما وصل إلى المغرب العربي كانت الثورات مشتعلة ضد جور الحكام الأمويين فوجد جوا مناسبا لنشر أفكاره لأنَ سكانها قد اعتنقوه من قبل مجيئه وذلك بمجهود السالف من الدعاة الإباضيين، واستطاع الإباضيون احتلال مدينة طرابلس وعقدوا الإمامة لأبي الخطاب ومن ثم سار أبو الخطاب حاكم طرابلس إلى القيروان، في ثورته ضد العباسيين ودارت بينهم حرب عنيفة انتهت بانتصار الاباضيين، ولما دخل أبوس الخطاب القيروان سنة 141 ه عين عبد الرحمن بن رستم الاباضي واليا عليها ودام حكمه أربع سنوات أصلح أمورها، أمّا أبو الخطاب فعاد إلى طرابلس وواصل مواجهته للجيوش العباسية واستطاع أن يهزم كل من قوات العوام بن عبد العزيز البجلي ومن بعده القائد أبا الأحوص عمر بن الأحوص وحين علم المنصور بنبأ الهزيمة بعث بجيش إلى محمد بن الأشعث والي مصر وأمره بالخروج لاسترداد طرابلس والقيروان في جيش قوامه أربعين ألف

جندي فطلب أبو الخطاب معونة بن رستم ووقع نزاع في صفوف جيشه بين زناتة وهوارة ولمّا التقى الجيشان سنة 144 ه قرب مدينة طرابلس نجزه وقتل أبو الخطاب والعديد من أصحابه على يد جيش بن الأشعث، وحينما كان في طريقه لنجدة أبو الخطاب علم عبد الرحمن بن رستم بهزيمته وعاد إلى القيروان لم ير جدوى من الاستمرار في محاربة الجيش العباسي، وفضل جمع قوته وبذل مجهوداته في بناء الدولة الرستمية.

فانسحب من القيروان واتجه إلى الجزائر وواجهته صعوبات عديدة في طريقه، ولما وصل إلى واد أجج و هو جبل منيع تحصن به فلحقه هناك شيوخ الاباضية من طرابلس، فعلم ابن الأشعث بأمرهم فتوجه إليهم ولم يتمكن من بن رستم الذي بقي متحصنا بهذا الجبل ثم واصل سيره، ولما نزل على قبيلة محلية تبنى سكانها أفكاره والتفوا حوله وبدأوا في تأسيس دولتهم الإباضية. واختاروا منطقة تيهرت لجودة مناخها وخصوبة تربتها ووفرة مياهها هذا بالإضافة كان يقطن بها الكثير من الإباضيين وموجودة في موقع بعيد عن أنظار القيروان. فلحق به ستون شيخا من شيوخ الاباضية من طرابلس كما وفد اليه عدد كبير من اباضي الدول المجاورة وشرعوا في تشييد المساجد والمساكن والمرافق الضرورية الحية الاجتماعية، وعندما اكتملت المدينة نظروا لمن يولونه حكمها، فلم يجدوا أحسن من عبد الرحمن بن رستم لتوفر جميع الشروط فيه من علم وأخلاق وقدرة على الحكم، فبايعوه إماما للدولة الرستمية سنة 160 ه وبذلك تحققت آمال الاباضيين في تأسيس أول دولتهم في المغرب الأوسط، وانكب عبد الرحمن بن رستم على تنظيم شؤون الدولة فأسس الإدارة ودار الزكاة ودار القضاء والجيش وشرع في العمارة والبناء والفلاحة حتى أصبحت دولته مفخرة المغرب العربي. واعتمد في سياسته على الشورى وتطبيق القرآن و السنة فكان يصرف أمور المسلمين في المسجد واقتدى في ذلك بمسلك الخلفاء الراشدين، فكان إماما عادلا وحكما عطوفا على الفقراء وعرف عهده الاستقرار والهدوء لم يعرفه من قبل المغرب الأوسط ساده الرخاء والعدل والعلم وسلك مع جيرانه سياسة السلم وحسن الجوار. ولما شاعت شهراتها في ربوع الأقطار الاسلامية استبشر بها اباظية المشرق خيرا فأعانوه بأموالهم وتوافد إليها الزوار من شتى الأقطار الاسلامية. وأسهمت هذه الدولة التي دامت قرنا وثلاثين سنة إسهامًا كبيراً في تطوير الحضارة العربية الاسلامية شهد خلالها المغرب الأوسط ازدهارا كبيرا في ميادين العلم والعمران والاقتصاد والثقافة والفلاحة والتجارة.

وبوفاة عبد الرحمن بن رستم سنة 171 ه خلفه ابنه عبد الوهاب بن عبد ـرحمن فواصل مسيرة أبيه إلى حين وفاته سنة 190 ه، ثم تعاقب على حكمها كل ـن الأئمة التالية أسماؤهم : أفلح بن عبد الوهاب، أبو بكر بن أفلح، أبو اليقظان ـن أفلح، أبو حاتم بن أبي اليقظان، يعقوب بن أفلح وآخيرا اليقظان بن أبي ـيقظان، وساد في أغلب فترات عهدهم الأمن والهدوء، وأصلحوا شؤون الراعية وكرسوا حياتهم في العمران والنشاط الاقتصادي ونشر الثقافة الاسلامية حتى ـصبحت دولتهم مركز اشعاع يتوفد عليها طلاب العلم من شتى الأقطار الاسلامية، ـأنجبت الكثير من علماء الدين والفكر والأدب أمثال الشاعر والفقيه بكر بن حماد ـتاهرتي، والأديب الحسن بن علي بن طريف التاهرتي والفقيه أبو يعقوب يوسف ـبراهيم الورجلاني وأبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي وكثيرون لا يتسع ـلوقت لذكرهم جميعا، وأصبحت تيهرت عاصمة المغرب الأوسط، امتد نفوذها من ـدينة الزاب حتى تلمسان وضمت إليها مجموعة من المدن تنس ومليانة والشلف ووهران ومستغانم ومعسكر وجزء من تلمسان، وربطتها بدول القيروان والمشرق والأندلس وخصوصا إفريقيا السوداء علاقات تجارية هامة، وكانت مدينة تيهرت ـزودة بمكتبة كبيرة يقصدها طلاب العلم و يجتمعون داخلها في حلقات حول ـلعلماء، كما كانت المدينة مفتوحة على العلماء، من غير الإباضيين يأتونها من ـختلف الأقطار الإسلامية.

ومن النقاط السلبية للدولة الرستمية أنها لم تعتني بالجانب العسكري وهذا ـا سهل سقوطها بسرعة على يد الشيعة العبيديين الفاطميين والاستيلاء على ـاصمتها تيهرت سنة 296 ه، وأرغم سكانها على الهروب واللجوء بصدراته ـلموجودة بضواحي مدينة ورقلة ومنها توجهوا إلى مدينة غرداية وجزيرة جربة بتونس، ولازالت هذه المدن إلى يومنا هذا يقطن بها الإباضيون، كما أنها بقيت ـحافظة على عمرانها ومذهبها بعد عشرة قرون من ظهورها.

الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية في عهد الرستميين

للاباضية سياسة شرعية تختلف عن الشيعة والخوارج فهم يؤمنون بشرعية الخلفاء الراشدين، وبالتالي يرون أن الإمامة حقَ لكل مسلم تتوفر فيه الشروط الشرعية من فقه وأخلاق وعدل ومساواة، فان رأوا منه انحرافًا أثناء حكمه أوجبوا عزله وتتم مبايعته من طرف الشعب يساعده في حكمه مجلس شوري، هذا من الجانب النظري أما في الحقيقة فإن نظام الحكم طيلة فترتهم لم يخرج من عائلة الرستميين ولم يسمح لعامة المسلمين تولي الإمامة فكانت دولة دينية وراثية، وهذا الأسلوب في الحكم الوراثي هو الذي سبب لهم خلافاً في صفوف الإباضيين، فانتشرت الفرق بينهم وظهرت النكارية والوهابية والخلفية وغيرها من الاتجاهات المذهبية داخل الدعوة.

وماعدا فترة السلم والرخاء التي عرفها عهد عبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب، ظهرت بعض الاضطربات والنزاعات أثناء حكم الإمام الأفلح بن عبد الوهاب (190 - 240 ه) فحاولت بعض القبائل معارضة حكمه ولكن خبرته السياسية والعسكرية مكنته من السيطرة عليهم وقضى طيلة فترة حكمه في الهدوء وعرف عهده الرخاء و الرفاهية. ولمّا ولي الحكم من بعده أبو بكر بن الأفلح (240 – 241ه) سأت أحوال سكان تيهرت سياسيا واقتصاديا فكان حاكما سيئ الأخلاق انغمس في الملذات والترف ففسد حكمه وعرف عهده الفتن والحروب فعاش سكان تيهرت جواً من الاضطربات والعنف لم يعرفه من قبل ولمّا وافته المنية خلفه أبو يقضان بن الأفلح (241 - 281 ه) وكان شخصا متدينا زاهدا مثقفا وله خبرة سياسية مكنته من استرجاع الهدوء في تيهرت وساعده في حكمه أشخاص من مختلف القبائل انضموا إلى مجلسه الشوري، وانتشر الرخاء وازدهرت الحياة الاقتصادية والعلمية في عهده حتى وفاته. فخلفه أبو حاتم بن أبي اليقضان (281 - 282 ه) وكان يشغل قبل ولايته بالتجارة فكان رجلاً غنيا يفتقر للجانب الديني لم يلتزم بالمذهب الإباضي. فنافسه في الحكم عمه يعقوب بن الأفلح (282 - 294 ه) وعقدت المعارضة الولاية له فدارت حرب بينهم فعمت الفوضى مدينة تيهرت وقام بنو اليقضان بقتل عمهم وإمامهم أبو الحاتم سنة 294 ه وولوا

الامامة لوالدهم اليقضان بن أبي اليقضان واستمر حكمه حتى سقوط الدولة الرستمية على يد أبي عبد الله الصنعاني سنة 296 ه.

وقد سلكت الدولة الرستمية اتجاه الدول المغاربية الإسلامية سياسة المسالمة وحسن الجوار سواء مع القيروان التي كانت تخضع للدولة العباسية أو الأندلس التي كان يحكمها الأمويون أو سلجماسة أو الأدارسة بالمغرب الأقصى وهذا رغم اختلاف أنظمتهم السياسية، وعاش المغرب العربي طيلة هذه الفترة في هدوء واستقرار. كما ربطت مع هذه الدول علاقات جيدة خاصة في الجانب الاقتصادي والفكري ففتحت مدينة تيهرت أبوابها للعلماء، فوفدوا إليها من مختلف الأقطار الإسلامية وانتشرت حرية الفكر وتعددت حلقات الجدل والمناظرة وتوسعت التجارة مع هذه الدول فجابت قوافل تيهرت مختلف هذه الأقطار ووصلت حتى أعماق الجنوب الصحراوي، أي إلى السودان رغم أنَ هذه الأخيرة لم تكن تدين بالإسلام.

وكان المجتمع الرستمي متكوَن من طبقة الأغنياء، والطبقة المتوسطة من الحرفيين والمزارعين والعبيد السود، وضم مجتمعهم مختلف الأجناس والأديان من بربر وعرب وفرس ومسيحيين ويهود. وكانت مدينتهم تيهرت متعددة الأسواق محاطة بسور لا يمكن دخولها إلا عن طريق أبواب.

دولـــــة الأدارســـــة

172 هـ - 375 هـ

788 م - 1018 م

عرفت الخلافة العباسية ثورة العلويين التي قادها الحسن بن علي وأشياعه، ومفادها أنّ الخلافة حق لآل علي ولكنّهم لم يتمكنوا منها وقتل علي بمكة أثناء المعركة. فنجا ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وأخوه يحيى الذي توجه إلى خرسان ثم بلاد الديلم ووقع في نهاية الأمر في قبضة الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي قتله بالسم. أمّا ادريس فقد توجه رفقة مولاه الراشد إلى مصر ومنها إلى بلاد المغرب الأقصى وعندما وصل إلى بلدة وليلا استقبله اسحاق بن محمد بن عبد الحميد حاكم قبيلة أوربة الذي كان معجباً بالمذهب الشيعي فرّحب به وطلب قومه مبايعته وتمت البيعة سنة 172 ه وكان طموحه كبيراً في انشاء خلافة علوية، فزحف على القبائل التي كانت لاتزال تؤمن بالمجوسية وتمكن من نشر الإسلام بين القبائل البربرية التي كانت تدين بالنصرانية واليهودية، ولما بسط نفوذه على المغرب الأقصى اتجه إلى مدينة تلمسان فبايعه أميرها محمد بن خزر المغراوي، فأقام بها مدة ثلاث سنوات وبنى بها مسجدا سنة 174 ه ثم رجع إلى المغرب الأقصى. ولمّا سمع الخليفة هارون الرشيد بالتقدم الذي أحرزه إدريس الأول في بناء دولة المغرب، فكر في شن حملة عسكرية عليه ولكن لبعد المسافة بين بغداد والمغرب غير رآيه، فأرسل إليه سليمان بن جرير الذي تقرب منه وتمكن من التوغل في حاشيته، وفي غياب مولاه راشد الذي كان لا يفارق ادريس قدم له سما في صورة عطر توفى على اثره، فطارده راشد ولحق به ولم يتمكن من قتل سليمان لكن استطاع قطع يده وفر إلى المشرق، وتوفي ادريس الأول سنة 177 ه ولازال ضريحه إلى يومنا هذا بمدينة فاس المغربية. فخلفه ابنه إدريس الثاني الذي بايعته قبائل البربر وكان سنه عشر سنوات، ووفد في عهده العرب من إفريقيا والأندلس واستقروا بدولته واستعان بهم وتخلى عن البربر الذين لم يعد يطمئن إليهم وعرف مشاكل مع الدولة الأغلبية التي كان يحكمها ابراهيم بن الأغلب التي كانت تثير البربر ضده، ثم شرع في التخطيط لبناء مدينة فاس، وامتد نفوذه من السوس الأقصى إلى واد الشلف الحد الجغرافي الفاصل بين دولة الأدارسة والأغالبة، وتعاقب عل حكم دولة الأدارسة التي دامت من سنة 172 ه إلى

375 ه الأمراء التالية أسمائهم : 1) إدريس الأول 2) إدريس الثاني 3) محمد بن ادريس 4) علي بن محمد 5) يحي بن محمد و ولده يحي 6) علي بن عمر 7) يحي بن القاسم بن إدريس 8) يحيى بن ادريس بن عمر 9) حسن بن محمد الحجام 10) موسى بن أبي العافية 11) القاسم كنون بن محمد بن القاسم ابن ادريس 12) أبو العيش أحمد بن كنون 13) الحسن بن كنون.

ولم يقع في عهدهم أي تقدم يذكر ماعدا بعض الهدوء النسبي الذي ساد دولتهم، وبناء مدينة فاس ومسجد القرويين، ولما قسمت الدولة بين أمراء العائلة الحاكمة في عهد محمد بن إدريس بدأت السلطة تضعف إلى حد أنهم فقدوا نفوذهم تدريجيا على بعض أقاليم مملكتهم. فأساء حكامها السيرة واشتد الصراع بينهم على السلطة إضافة إلى الاضطرابات التي أحدثها الخوارج في عهدهم وعدم تمكنهم من بناء دولة قوية وإهمالهم للجانب العسكري مما شجع العبيديين الفاطميين بالزحف عليهم بقيادة جوهر الصقلي فقضى على جيش زناتة واستولى على مدن سجلماسة وفاس وبسط نفوذ الفاطميين على المغرب. إلا أن هذا لا يقلص دور الادارسة وفضلهم في نشر الإسلام في بعض القبائل التي كانت لا تزال تدين بالمسيحية والماجوسية وتعميم اللغة العربية، كما امتاز حكمهم على خلاف الدول الإسلامية الأخرى بالامركزية في تسيير شؤون دولتهم، وسلكوا سياسة المرونة وحسن التعامل مع الأهالي، وساد في عهدهم رخاء اقتصادي نسبي، أما الحياة الفكرية فكانت ضعيفة جدا عدا البعض القليل من الفقهاء في الدين والأدباء والشعراء ومن بينهم الشاعر إدريس الثاني.

الدولة الأغلبية
184 هـ - 296 هـ
800 م - 909 م

تأسست الدولة الأغلبية على يد ابراهيم بن الأغلب وضمت كل من تونس وجزءاً من قسنطينة وطرابلس، وتعد بذلك أول دولة افريقية استقلت في شؤونها الداخلية عن الخلافة العباسية مع الاعتراف بالسيادة لها، ويرجع السبب في تأسيسها إلى سؤ تسيير محمد بن مقاتل العكي أخو هارون الرشيد من الرضاعة والذي عينة حاكما علي القيروان عام 181 ه، فعرف عهده الظلم و الطغيان مما دفع الأهالي للثورة عليه فلم يستطع مقاومتهم واستنجد حينئذ بابراهيم بن الأغلب حاكم اقليم الزاب الذي استطاع إخماد الثورة واسترجاع الهدوء والأمن، ولما سمع الهارون بما جرى عزل العكي عن ولاية تونس، وعيَن ابراهيم بن الأغلب مكانه سنة 184 ه إرضاءً لأهالي إفريقيا وبطلب منه، بشرط دفع خراجا للخليفة قدره أربعون ألف دينارٍ ذهبي في كلُ عام، فقبل الشرط ومنذ ذلك العهد أصبحت الإمارة مستقلة ووراثية.

فأسس بن الأغلب مدينة العباسية بالقرب من القيروان واتخاذها مقراً لامارته واستقبل بها شرلمان أحد أكبر ملوك فرنسا في ذلك الوقت والذي كانت تربطه بهارون الرشيد علاقة صداقة متينة، وتوفي سنة 196 ه. فخلفه ابنه أبو العباس عبد الله سنة 197 ه والذي كان غائبا بطرابلس عند وفاة أبيه، فكان على خلاف أبيه رجلا طاغيا سلك سيرة الجور و العنف و أثقل الأهالي بالضرائب وتوفي سنة 201 ه. وتولى الإمارة من بعده أخوه زيادة الله الأوَل وفي عهده عرفت إيطاليا صراعات سياسية على السلطة فاستغل الفرصة وجهز أسطوولا بحريا بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات غزى به جزيرة صقلية واستولى على العديد من الحصون والمدن الموجودة بها وألحق بجيشها هزيمة نكراء، كما ساد حكمه الهدوء والرخاء الاقتصادي، وانتشار العمران، وتوفي سنة 223 ه. وفي عهد أبو ابراهيم أحمد الذي ولي الحكم سنة 242 اعتنى الأغلبيون بتطوير وسائل الري وبنوا من أجل ذلك عدة صهاريج تخزن كميات كبيرة من الماء. وفي ولاية محمد الثاني الملقب بأبي الغرانيق تم فتح جزيرة مالطا سنة 255 ه وضمت إلى الإمارة الأغلبية. وفي عهد ابراهيم الأصغر بلغت الإمارة الأغلبية قمة مجدها فشيد العديد

من القصور والحدائق وبنى مدينة رقادة التي تبعد عن القيروان بثمانية أميال وانتقل إليها من العباسية واتخذها مقرا لدولته، كما تمكن من فتح سرقوسة والاستيلاء عليها بعد حصار دام تسعة أشهر، وتم ذلك عام 264 ه، وعاد إليها مرة ثانية سنة 289 ه في أسطول كبير قاصدا فتح مدينة روما واستولى على العديد من مدن إيطاليا الجنوبية ولما نزل مدينة كسنته أصابه رمح أثناء المعركة قتل على اثره ودفن ببلرم عاصمة صقلية. وفي فترة حكم أبو العباس عبد الله ظهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر) دعوة الفاطميين على يد أبي عبد الله الصنعاني التي أدت إلى سقوط الدولة الأغلبية ولقيت تأييدا كبيرا من قبيلة كتامة فحاول زيادة الله الآخر الذي تولي الحكم بعد مقتل أبيه أن يقضي عليهم فالتقى الجيشان سنة 296 ه في معركة الاربس وكان النصر حليف الفاطميين، ولمَا وصل نبأ الهزيمة زيادة الله الهزيمة جمع أمواله وعائلته وفر متوجها إلى المشرق طالبا النجدة من الخلافة العباسية فلم يتم له ذلك.

وتعاقب على حكم الدولة الأغلبية منذ تأسيسها الأمراء التالية أسماؤهم :

1 - ابراهيم بن الأغلب : 184 هـ- 196 ه

2 - أبو العباس بن عبد الله الأول : 197 هـ- 201 ه

3 - زيادة الله الأول : 201 هـ- 223 ه

4 - أبو عقال الأغلب : 223 هـ- 226 ه

5 - أبو العباس محمد الأول : 226 هـ- 242 ه

6 - أبو ابراهيم أحمد : 242 هـ- 249 ه

7 - زيادة الله الثاني : 249 هـ- 250 ه

8 - محمد الثاني الملقب بأبو الغرانيق : 250 هـ- 261 ه

9 - ابراهيم الأصغر : 261 هـ- 289 ه

10 - أبو العباس عبد الله الثاني : 289 هـ- 290 ه

11 - زيادة الله الثالث : 290 هـ- 296 ه

وخلاصة القول: عرفت الدولة الأغلبية طيلة وجودها الذي دام قرناً وتسع سنوات الاستقرار و الأمن عدا بعد الاضطرابات التي ظهرت في عهد ابراهيم بن الأغلب وزيادة الله الأول وتمكنوا من القضاء عليها بسرعة، ويرجع لهم الفضل في فتح جزيرة مالطا والتوسع في فتح جنوب ايطاليا والاستيلاء نهائيا على جزيرة صقلية التي تأثرت كثيرا بالحضارة العربية الإسلامية وانتشرت من خلالها فيما بعد سائر العلوم العربية إلى أنحاء أوروبا بعدما كانت من قبل تعيش في عصر الظلام، اضافة إلى دورهم الفعال في تحريك النشاط الثقافي والاقتصادي وبالخصوص مشاريع الري الكبرى التي أنجزوها والتي وفرت لهم عوامل الرخاء والرقي.

الدولة العبيدية الفاطمية

297 هـ - 362 هـ

910 م - 973 م

دخلت الدعوة الفاطمية من المشرق إلى المغرب بواسطة الداعية أبو عبد الله الصنعاني ويقال أنه من أصل يمني كان مقيما بالكوفة عاصمة الشيعيين يمتاز بالذكاء والبلاغة وكان عالما بعلمي الظاهر والباطن ومعتنقا للمذهب الشيعي الاسماعيلي. وأثناء تأديته لفريضة الحج في عهد الخلافة العباسية التقى في مكة بجماعة من أفراد قبيلة كتامة من بينهم حريث الجميلي وموسى بن مكارمة فسحرهم بقوة شخصيته وفصاحة لسانه وغزارة علمه ثم أخذ يستفسرهم عن أحوال بلادهم وعلاقتهم بابن الأغلب و لم يبين لهم قصده ثم رافقهم إلى بلاد المغرب الأوسط واستقر بمنطقة ليكجان ببلد كتامة قرب بجاية سنة 288 ه وهناك تظاهر أمامهم بالزهد والتقشف وأنه من أنصار آهل البيت فاستغل سذاجة وحماس البربر فشرع في نشر مذهبه الشيعي الاسماعيلي يدعو للمهدي المنتظر بين بربر كتامة وصنهاجة مدة سبع سنوات، ولقت دعوته أتباعاً وأنصاراً كثيرين فعظم شأنه بين القبائل، ولما تيقن من اخلاصهم لدعوته والخضوع لطاعته شرع في تنظيمهم سياسيا وعسكريا وبدأ بمهاجمة الجيوش الأغلبية في الشرق الجزائري، فاستولى على مدينة ميلة وسطيف وطبنة وغنم غنائم كثيرة. ولما بسط نفوذه عليها كوّن جيشا كبيرا وزحف به على دولة بني الأغلب وهزم زيادة الله الثالث آخر أمراء بني

الأغلب واستولى على القيروان، واستطاع أن يقضي على الأغالبة في رقادة ويعلن قيام الخلافة الفاطمية سنة 296 ه، وحقق بذلك ما لم يستطع تحقيقه دعاة الشيعة في المشرق العربي. ولما دخل رقادة أمن سكانها على أنفسهم وأموالهم وعهدهم بنشر العدل والمساواة، وشرع في تنظيم أمور الدولة سياسيا وإداريا وفرض المذهب الشيعي الاسماعيلي، ثم راسل عبيد الله المهدي الذي كان متواجداً بمصر وحثه على انتصاراته، وعندما كان هذا الأخير متوجها إفريقيا قبض عليه حاكم سلجماسة بالمغرب الأقصى ووضعه في السجن ثم أعلم صديقه أمير الأغالبة لأن عبيد الله كان محل بحث من طرف الخليفة العباسي، ولما وصله نبأ اعتقاله سير له عبد الله الصنعاني جيشا كبيرا وتوجه به إلى هذه المدينة وفي طريقه دخل تاهرت بدون مقاومة حيث قضى على حاكمها اليقضان بن أبي اليقضان آخر أمراء الدولة الرستمية وولى عليها حاكما، ثم واصل زحفه على سلجماسة جنوب المغرب الأقصى وطلب من أميرها اليسع بن ميمون المنتصر إطلاق سراح المهدي لم يلَبِ دعوته فحصار مدينته يوما واحدا ولم يستطيع أميرها مقاومته ففر منها وقضى الصنعاني على دولة سلجماسة وحرر المهدي وابنه من السجن وسلم له الملك. فقام هذا الأخير بتعيين حاكم عليها لكن بمجرد خروج المهدي منها متوجها إلى رقادة ثار سكان سلجماسة على حاكمها وقتلوه هو ومن معه من حامية الجيش الفاطمي، ثمَ قام أبو عبد الله من بعد بتحرير أخوه أبو العباس المتواجد بسجن طرابلس. ويعتبر عبيد الله المهدي أول أمير للدولة العبيدية الفاطمية بافريقيا سميت نسبة اليه، واختلف المؤرخون في نسبه فمنهم من نسبه، إلى سلالة فاطمة زوجة علي وبنت النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومنهم من ذكر خلاف ذلك. وفي سنة 297 ه باشر المهدي سلطاته في بداية حكمه بمدينة رقادة بتونس ولقب نفسه بأمير المؤمنين، ولما استقر الحكم في يديه وبايعه الناس بالخلافة أمر الأئمة بإقامة الدعوة له بذكر اسمه في خطب يوم الجمعة وبعث الدعاة الفاطميين إلى مختلف مناطق المغرب العربي للتبشير بمذهبه، فحارب المذاهب المالكية والإباضية وأتباعهم وأصبغ على نفسه صفات الجلالة والتقديس فركز السلطات الروحية والدنيوية في يديه فاستبد في حكمه تجاه الأهالي فثاروا عليه لكن تمكن من اخمادها وتبخرت آمال البربر في الدولة الفاطمية وخاصة بعد قتل داعيته عبد الله الصنعاني وأخوه أبو العباس سنة 298 ه خوفا على نفوذه، وشيّد بتونس مدينة المهدية نسبة إليه، ولما اكتمل بناؤها انتقل اليها سنة 308 ه رفقة عائلته واتخاذها مقرا لدولته. ولما بسط الفاطميون نفوذهم على المغرب العربي توجهت أنظارهم إلى مصر فجهز عبيد الله المهدي جيشه واتجه به رفقة ابنه القائم بأمر الله

واستولى في طريقه على العديد من المدن حتى بلغ مدن الاسكندرية والفيوم، ثم عاد إلى إفريقيا أين توفى سنة 322 ه. فخلفه ابنه القائم بأمر الله فسار على سيرة أبيه والتي اتصفت بالقسوة والصرامة وفي عهده استولى المسلمون بقيادة يعقوب بن اسحاق على جزيرة سردانية Sardaigne وكرسيكا Corse الواقعة في البحر المتوسط بالقارة الأوروبية. وبسبب سوء سيرته وقسوته ثار عليه سنة 326 ه رجل بجبال الأوراس يسمى أبا يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناتة ويدعي بصاحب الحمار استطاع أن يجند أنصاراً كثيرين حول دعوته وتظاهر أمامهم بالدفاع عن المذهب السني المالكي فكون جيشا يقارب مائتي ألف جندي وزحف به على الدولة العبيدية وأثناء فتوحاته ارتكب جيشه أبشع الأعمال من نهب وتهديم وقتل ولما بلغ المهدية وحاصرها استنجد القائم بأمر الله بقبيلة صنهاجة وكتامة بالمغرب الأوسط، فلبوا نداءه ورفع أبا يزيد الحصار عنها وعاد إلى المغرب الأوسط. وبوفاة القائم بأمر الله سنة 334 ه خلفه ابنه اسماعيل المنصور و في عهده تم القضاء نهائيا على ثورة أبا يزيد، وتوفي هذا الأخير متأثرا بجراحه عام 336 ه، فعرف المغرب العربي هدوءًا نسبياً فاستفاد المنصور من هذه التجربة وحسن سيرته مع الأهالي من بعدها أسس مدينة المنصورية على نصف ميل من القيروان وباشر فيها حكمه ودفن بها سنة 341 ه. فخلفه ابنه المعز لدين الله وفي عهده أرسل أشهر قواده جوهر الصقلي على رأس جيش واجه جيش زناتة ثم زحف على سلجماسة فاستولى عليها، واستمر في فتحه للمغرب حتى اقتحم فاس ورجع إلى المهدية بعد أن نكل بالزناتيين اشنع تنكيل واتسعت رقعة مملكته من المحيط الأطلنطي بالمغرب الأقصى إلى مدينة طرابلس عاصمة جمهورية ليبيا حاليا. وعندما توفي حاكم مصر كافور الأخشيدي تدهورت الأوضاع في هذا البلد وكثرت الفتن فاستغل المعز هذه الفرصة، وفي سنة 358 ه شن حملة عسكر ية على مصر بقيادة جوهر الصقلي وتمكن من دخولها بدون مقاومة، فرحب به أهلها وشيد بها مدينة القاهرة سنة 358 ه والجامع الأزهر، فأصبحت بذلك خاضعة للسلطة العبيدية الفاطمية، فرحل إليها المعز سنة 361 ه ونقل معه أمواله ورفاة أبائه وأجداده واتخذ من القاهرة عاصمة لمملكته، واستخلف على شؤون إفريقيا الأمير بلكين بن زيري الصنهاجي وواصل قائده جوهر الزحف على المشرق واستولى على مدينة الرملة بفلسطين ثم دمشق سنة 359 ه، وتوفي المعز بمصر سنة 365 ه، ويعد بذلك آخر خلفاء الدولة العبيدية بإفريقيا. وتولى من بعده الخلافة الفاطمية بمصر عشرة خلفاء من سنة 365 إلى 567 ه. وتربع على عرش الخلافة العبيدية الفاطمية في إفريقيا أربعة خلفاء وهم :

1 - عبيد الله المهدي : 297 ه - 322 ه

2 - القائم بأمر الله 322 ه - 334 ه

3 - اسماعيل المنصور : 334 ه - 341 ه

4 - المعز لدين الله : 341 ه - 362 ه

و خلاصة القول أنَ الخلافة الفاطمية في إفريفيا لم تقم بدور حضاري كبير إذا ما قرناها بالدول التي سبقتها الأغالبة والرستمية وهذا راجع بالطبع لكثرة الثورات الداخلية التي ظهرت في عهدهم مما جعلهم يعتمدون كثيرا على الجانب العسكري فطوروا جيوشهم البرية والبحرية وزودوها بمختلف الأسلحة حتى أصبحت سيدة إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط، هذا بالاضافة إلى أنهم كانوا يتطلعون منذ نشأة دولتهم بالمغرب الأوسط إلى الرحيل عن هذه المنطقة وذلك ما تَم فعلا بمصر. كما أنَ سكان إفريقيا السنيين لم ينسجموا مع مذهبهم الشيعي الإسماعيلي الذي اعتبروه غريبا عنهم، ولكن هذا لم يمنع الفاطميين من الاهتمام بالجانب العلمي ولو أنه كان يخدم بالدرجة الأولى مذهبهم، فلقد ازدهرت الحياة الثقافية في عهدهم فكثرت حلقات العلم وانتشرت حركة التأليف وظهر الكثير من المؤلفين في الفقه الشيعي الإسماعيلي والأدب واللغة والطب ورغم أنَ الحياة الاقتصادية تقلصت نوعا ما، إلا أنَ سكان افريقيا كانوا يعيشون حياة رخاء وهذا بشهادة مؤرخي تلك الفترة فقد اعتنى الفاطميون بالفلاحة والصناعة والتجارة.

الدولة الصنهاجية
362 هـ - 543 هـ
973 م - 1152 م

تولى بلكين بن زيري الصنهاجي شؤون افريقيا (تونس) والمغرب سنة 362ه بعدما انتقل المعز بالخلافة الفاطمية لمصر وعهد له بالإمارة وكناه بأبي الفتوح يوسف واختاره نظرا للخصال التي كان يتميز بها من شجاعة وعزم وللدور الفعال الذي لعبته قبيلة صنهاجة بقيادة أبيه زيري بن مناد في التمكين للدعوة الفاطمية بالمغرب الأوسط ومساندته في القضاء على ثورة قبائل زناتة المعادية والموالية للخلفاء الأمويين بالأندلس وثورة أبا يزيد الملقب بصاحب الحمار. وفي عهد بلكين بن زيري باعت له قبيلة مزغنة قطعة أرض جدد ووسع فوقها بناء مدينة الجزائر العاصمة على إنقاذ مدينة ايكوسيوم القديمة في أسفل بلدية القصبة حاليا وكذلك مدينة مليانة والمدية.

فغادر بلكين مدينة آشير بالمغرب الأوسط متوجها إلى مدينة المنصورية بالقيروان ليستقر بها ليس كملك مستقل وإنما كحاكم برتبة أمير ممثل للفاطميين بالمغرب. وفي سنة 368 ه قام بحملة عسكرية ضد قبيلة زناتة ومغراوة وايفران وأخمد الثورة التي كانت تدبر بداخلها ثم استولى من بعد على تلمسان، وعندما كان يستعد للدخول إلى المغرب الأقصى لمطاردة زناتة الذين فروا. هناك جاءه أمر من المعز بالعودة إلى القيروان. ولمّا توفي المعز الفاطمي سنة 365 ه بالقاهرة خلفه ابنه العزيز، فبعث له بلكين من إفريقيا قافلة محملة بالهدايا، وجدد الخليفة الفاطمي فيه الثقة، فواصل بلكين بن زيري حربه ضد معارضه وأعداء زناتة بالمغرب الأقصى بعد أن طردهم من الجزائر فقضى على نفوذ الأمويين الأندلسيين هناك، واستولى من جديد على مدينة فاس وهزم قبيلة برغوتة واستولى على سلجماسة فأصبح أمير المغرب الأدنى والأقصى، ورغم ولائه للفاطميين إلا أنه كان يُسَيِّر المغرب بصفة مستقلة، وفي سنة 373 ه توفي بلكين بالقيروان. فخلفه ابنه المنصور بن بلكين الذي بقى وافيًا للفاطميين وفي عهده اندلعت ثورة زناتة من جديد فأمر أخه حماد بالقضاء عليها وتمكن هذا الأخير من اخمادها، فعقد له ولايتي آشير والمسيلة. وفي عهد باديس بن المنصور الذي بويع سنة 388 ه خرج مع عمه حماد للمغرب الأقصى للقضاء على ثورة زناتة واشترط حماد بالمقابل أن يمتلك المدن التي يفتحها فقبل باديس هذا الشرط وتم النصر لهما، وعند عودته إلى المغرب

الأوسط اتجه حماد إلى مدينة أشير والمسيلة وشيد بها قلعته التي سميت نسبة إليه واتخاذها مقرا لدولته واستقل عن سلطة إفريقيا وانقسمت من يومئذ دولة صنهاجة إلى إمارتين الأولى شرقية وعاصمتها المنصورة والثانية غربية وعاصمتها قلعة بني حماد.

وفي عهد المعز بن باديس اندلعت بالقيروان ثورة دموية بين الشيعة الفاطميين والسنيين المغاربة تسببت في مقتل الكثير من الأهالي، وساند المعز أتباع السنة وقطع علاقته بالخلافة الفاطمية سنة 435 ه ودعا للعباسيين السنيين ببغداد وأمر الأئمة بأن تخطب في المساجد للخلافة العباسية. ولما بلغ الفاطميون بمصر نبأ انفصال صنهاجة عنها، أشار الباروزي الوزير على الخليفة الفاطمي أن يسرح العرب إلى إفريقيا حتى يقضوا على الصنهاجيين ويحل محلهم في الدعوة للعبيديين، فسلطوا عليه سنة 440 ه أعراب بني هلال وبني سليم وهم بدو قطنوا بصعيد مصر، فخرج إليهم المعز ولم يتمكن منهم فعاد إلى المنصورية وتحصن بها. ولما رأى ما فعلوه في مدينة القيروان من تخريب وفساد ونهب واضطهاد لسكانها بادر إلى صلحهم. وأصل بنو هلال وبنو سليم من شبه الجزيرة العربية (المملكة العربية السعودية) ثم انتقلوا إلى البحرين وعمان ودخل قسم منهم في دعوة الفاطميين فنقلوهم إلى صعيد مصر. ولما خلفه ابنه تميم بن المعز قسمت الدولة الصنهاجية إلى عدة مملكات وكانت أشبه بالأندلس في عهد ملوك الطوائف مما أدى إلى ضعفها وتسلط النرمان عليهم فانتزعوا منهم جزيرة صقلية سنة 484 ه بعد أن دام فيها حكم المسلمين ثلاثة قرون ثم استولوا على المهدية سنة 532 ه وفر منها الحسن بن علي آخر أمراء صنهاجة الشرقية والتجأ إلى ابن عمه يحي بن العزيز آخر ملوك بني حماد. وتعاقب على حكم الدولة الصنهاجية منذ تأسيسها إلى يوم انقراضها الأمراء التالية أسماؤهم :

1 - بلكين بن زيري : 362 ه - 373 ه
2 - أبو الفتوح المنصور : 373 ه - 386 ه
3 - باديس بن منصور : 386 ه - 406 ه
4 - المعز بن باديس : 406 ه - 453 ه
5 - تميم بن المعز : 453 ه - 501 ه
6 - يحي بن تميم 501 ه - 509 ه
7 - علي بن يحي : 509 ه - 515 ه
8 - الحسن بن علي : 515 ه - 543 ه

الـحـمـاديـون

408 هـ - 552 هـ

1018 م - 1152 هـ

بعد الاتفاق الزيري الحمادي شرع حماد بن بلكين في تأسيس عاصمته القلعة سنة 398 ه والموجودة بالقرب من مدينة أشير جنوبي غربي برج أبي عريرج وشمال شرقي مدينة المسيلة وشيد بها مباني ومساجد وأحطاها بأسوار وأبواب وأقبل عليها المسلمون من إفريقيا والمشرق كالتجار والحرفيين والفقهاء حتى أصبحت مدينة كبيرة ومزدهرة. فبعث له الأمير باديس رسولا يطلب منه التنازل عن مدينة قسنطينة لابنه المعز فرفض حماد وأعلن الطلاق مع الدولة الزيرية واستبدل الخلافة الفاطمية بالخلافة العباسية، فبادر باديس بالهجوم عليه وألحق به هزيمة نكراء ففر حماد إلى قلعته وتحصن بها إلى أن توفي باديس أثناء حصاره سنة 06 ه، فواصل المعز بن باديس حربه ضد حماد انتهت في آخر المطاف إلى الصلح بينهما والاعتراف بحكم الدولة الحمادية على المغرب الأوسط، وعاش حماد بقية حياته في قلعته إلى أن وافته المنية على اثر مرض أصابه. فخلفه ابنه القائد سنة 419 ه فولى أخاه يوسف حاكما على المغرب ووغلان على حمزة ودام حكمه خمس وعشرين سنة مرت خلالها الدول الحمادية بأحداث كثيرة منها انقطاع العلاقات الفاطمية - الزيرية وغزو القائد بن الحماد على قبيلة زناتة واخضاع مدينة فاس لسلطته، وفي سنة 432 ه توجه الأمير الزيري المعز بجيشه إلى قلعته وحاصرها سنتين فطلب ابنه القائد بن حماد العفو فعفى عنه ورجع المعز عائدا إلى إفريقيا ثم انقطعت من بعد العلاقات الزيرية - الحمادية وتوفي القائد بن حماد سنة 446 ه. فخلفه ابنه محسن بن القائد على رأس الدولة الحمادية ولم يدم حكمه إلا تسعة أشهر عرفت خلالها الدولة الحمادية اضطرابات كثيرة جراء سوء تصرفه فعزل أعمامه من حكم ولاياتهم فثار عليه عمه يوسف حاكم المغرب ولم يتمكن محسن من السيطرة عليهم حتى قتل من طرف ابن عمه بلكين بن محمد الذي خلفه في الحكم، وكان بلكين شخص شجاعا صارما سافكا للدماء، في عهده دخل بنو هلال المغرب الأوسط عنوة وأمام بطشهم وقوتهم لم ير بلكين سبيلاً إلا مصالحتهم فاتفق معهم على أن يحافظ الحماديون بالمدن ويتركوا الأرياف لبنو هلال. وفي سنة 450 ه تحالف بلكين مع بني هلال لمحاربة قبيلة زناتة وانتصر عليهم وفي نفس السنة ثار

عليه سكان بسكرة ثأرا لقتل قائدهم جعفر بن أبي رمان فاستطاع الأمير بلكين اخمادها ودخل المدينة عنوة فألقى القبض على شيوخ بني رمان وقتلهم جميعا، هذا ولمّا بلغ بلكين سنة 454 ه نبأ اجتياح المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين على المصامدة سيّر لهم جيشاً كبيراً غزى به مدينة فاس وفتحها وعند رجوعه من المغرب الأقصى وهو في طريقه لوحده قتله الناصر بن علناس ثأرا لأخته التي قتلها بلكين ظنا منه أنها هي التي قتلت أخاه مقاتل، وكانت زوجة لهذا الأخير، فبايعت صنهاجة الناصر بن علناس حاكما على الدولة الحمادية سنة 454 ه وكان شخصا صارما أسس سنة 460 ه مدينة بجاية واستقر بها سنة من بعد فنظم شؤون الدولة الحمادية وولى إخواته وأبناءه على المغرب وقسنطينة ومليانة والجزائر وأشير، وفي عهده ثار من جديد سكان بسكرة بنو رمان على الحماديين فسير لهم جيشاً بقيادة وزيره خلف بن أبي حيدرة فقمع ثورتهم ودخل مدينة بسكرة عنوة ومن بعدها استولى سلميا على مدينة صفاقس وتونس وخضع حكامها لطاعته واندلعت حرب بينه وبين تميم الأمير الزيري لكن هذا الأخير تمكن منه وألحق بجيشه شر الهزيمة ففتح تميم مدينة تونس إلا أنّ الناصر أعاد الكرة مرة ثانية سنة 460 ه وتمكن من استرجاع تونس وفتح القيروان عنوة ووقع من بعد الصلح بين الأميرين الحمادي والزيري، وتوفي الناصر سنة 481 ه بعد أن دام حكمه سبع وعشرين سنة. فخلفه من بعده ابنه المنصور وكان عمره أنذاك احدى عشر سنة فسلك سيرة أبيه وبقي على رأس الدولة الحمادية مدة سبع عشرة سنة تمكن خلالها من قمع ثورة عمه بلبار الذي كان حاكما على قسنطينة وبونة وولى مكانه أبي يكني لكن هذا الأخير ثار على المنصور سنة 487 ه وتآمر مع تميم أمير المهدية وطلب المعونة من المرابطين لكن المنصور تغلب عليه واستولى على قسنطينة وبونة وقتل أبي يكني، وفي سنة 474 هاجم المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين الدولة الحمادية وتمكنوا من الاستيلاء على مدن تلمسان وتنس والونشريس والجزائر ثمّ عادوا إلى المغرب الأقصى وتركوا حامية بتلمسان وفي هذه الأثناء تحالف بنو ومانو وبنوبلومي وهما قبيلتان من زناتة مع المرابطين فتوجه إليهم المنصور بجيش وقضى عليهم واسترجع مدينة تلمسان وأخيرا عقد المرابطون الصلح مع المنصور وذلك سنة 497ه وتوفي المنصور عاما من بعد سنة 498 ه. فخلفه ابنه باديس بن المنصور وكان شخصا قاسيا وبعد وفاته تولى أمر الحماديين أخاه العزير بن المنصور وفي عهده هاجم الحماديون افريقيا مرتين استولوا في المرة الأولى على جزيرة جربة واسترجعوا مدينة تونس التي خرجت عن طاعتهم. وفي هذه المدة الزمنية مر على المغرب الأوسط ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية عائدا من رحلته بالمشرق فزار

مدينة قسنطينة واستقر ببجاية فدرس بمساجدها ورأى ماوصل إليه الناس من انحطاط في السلوك فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فأزعجت خطبه وتصرفاته الأمير الحمادي العزيز فأمره بالخروج من بجاية ورحل من هناك إلى قرية ملالة فدرس في مسجدها ومن ثم انتقل إلى المغرب الأقصى أين أتيحت له الفرصة لتأسيس دولة الموحدين رفقة عبد المؤمن وهي التي قضت سنين من بعد على دولة الحماديين في عهد الأمير الأخير للدولة الحمادية يحي بن العزيز وتم ذلك على يد عبد المؤمن سنة 457 ه فاستولى على المغرب الأوسط بما فيها مدينة بجاية وقسنطينة وعنابة وتمكن الموحدون من القبض على الأمير يحي بن العزيز بمدينة قسنطينة وحملوه إلى مراكش، واتسمت خلال هذه الفترة الدولة الحمادية بالضعف والفساد والانحطاط فتكالبت عليها الدولة الافرنجية الصقلية وتمكنت من الدخول إلى مدينة جيجل سنة 537 ه ومدن شرشال وتنس سنة 539 ه فهدموها ونكلوا بسكانها أشد تنكيل. وهذه أسماء الأمراء الذين تعاقبوا على حكم الدولة الحمادية :

1 - حماد بن بلكين : 408 ه - 419 ه

2 - القائد بن حماد : 419 ه - 446 ه

3 - محسن بن القائد : 446 ه - 447 ه

4 - بلكين : 447 ه - 454 ه

5 - الناصر : 454 ه - 481 ه

6 - المنصور : 481 ه - 498 ه

7 - باديس : 498 ه - 498 ه

8 - العزيز : 498 ه - 518 ه

9 - يحي : 518 ه - 552 ه

الحياة الاقتصادية و الاجتماعية

عاشت الدولة الحمادية طيلة حكمها في جو يسوده الرخاء الاقتصادي والاشعاع الفكري وهذا في شتى الميادين، فاهتم الحماديون بصناعة العتاد الحربي والورق والمعادن من حديد ونحاس وفضة ورصاص وشيدوا وراشات على الساحل البحري في كل من مدن بجاية وبونة، مختصة في صناعة السفن الحربية والتجارية وصنعوا أسطولاً بحرياً كبيراً مكنهم من حماية سواحلهم البحرية ونقل صادراتهم إلي الدول الأجنبية، كما اعتنوا بصناعة النسيج، فكانت ملابس وأقمشة بجاية مشهورة لجودتها، يتضاهى بها سكانها من الرجال والنساء، وكانت مدينة بجاية تحتوي على حرفيين كثيرين مختصين في صناعة الأواني المنزلية والفخار والزجاج والحلي الذهبية والفضية هذا إلى جانب المطاحن التي كانت تطحن الحبوب من قمح وشعير.

أما في الميدان الفلاحي فقد عرفت الزراعة تطورا كبيرا، فاعتنى الحماديون خصوصا بزراعة الحبوب من القمح والشعير، وكانت تسد حاجيات سكان المغرب الأوسط كما زرعوا البقول وأشجار الزيتون. ومن الفواكه الكروم والتفاح واللوز والسفرجل والتين والتمور على مختلف. أنواعها كانت هذه الأخيرة مغروسة بمدن بسكرة وطولقة، هذا إلى جانب النباتات النسيجية من القطن والكتان والنباتات الطبية، وكانت مدن بجاية وبونة والقل تحتوي على غابات كثيفة من شجر الصنوبر، يستخرجون منها القطران ويصنعون منها السفن، كما اهتم الحماديون بتربية المواشي من بقر وغنم والخيل والإبل وتربية النحل واشتغلوا في ميدان الصيد، باصطياد السمك والمرجان.

وكانت الحياة التجارية المحلية جد نشطة فأنشأ الحماديون عدة أسواق في كلَ من قلعة بني حماد وبجاية ومختلف مدن المغرب الأوسط يتبادل فيها التجار بضاعتهم، ولتطوير التجارة الخارجية شيدوا موانئ في كل من مدن بجاية والجزائر وشرشال وتنس وجيجل والقل وعنابة يتم من خلالها التبادل التجاري مع الدولة الزيرية بالمهدية والفاطمية بمصر والأندلس والمشرق العربي وايطاليا ومن أهم صادراتهم الخشب والمرجان، وفي مبادلتهم التجارية استعمل الحماديون أثناء حكمهم العملة الفاطمية ثم العباسية وكانت مصنوعة من الذهب والفضة ولتسهيل

واصلات الداخلية قام الحماديون بشق الطرق وتعبيدها وكانت تربط كل من دينة بجاية وقسنطينة وعنابة وغيرها من مدن المغرب الأوسط .

أما المجتمع الحمادي فكان متكونا من عدة قبائل منها قبيلة تلكاتة وكتامة زناتة وتحيط بمدنهم أسوار لها عدة أبواب، وقسمت المدن الكبرى إلى أحياء، من أحياء بجاية نذكر حي اللؤلؤة وباب البحر والمذبح، تتوفر على مرافق عامة كالحمامات والدكاكين والمساجد والفنادق والقصور والصهاريج والآبار والعيون يستهلك منها السكان المياه.

الحياة الدينية و الثقافية و العمرانية

اعتنق المجتمع الحمادي عدة مذاهب فمنهم السنيون والشيعة والإباضيون، فقبيلة زناتة سنية وقبيلة كتامة شيعية وسكان الزاب وورقلة الإباضية إلى جانب هذا كان يقطن بمدينة بجاية وقلعة بني حماد أقلية من الأجانب المسيحيين واليهود لهم كنيسة يؤدون فيها صلواتهم.

وعرفت الحياة الثقافية بفضل اعتناء الملوك الحماديين بها ازدهارا كبيرا في مختلف العلوم فأقبل عليها العلماء من كل جهة وانتعشت بذلك الثقافة في أوساط الجماهير الشعبية فارتفع مستواهم العلمي وأسست بها مدارس علمية وزوايا وأنجبت شعراء وأدباء وفقهاء وأطباء كباراً ومن أفضل شعرائها نذكر : عبد الكريم النهشلي ومحمد بن حسين الطبني وأبي سهل الخشني وابن الفضل النحوي وابن رشيق وأبو حفص عمر بن فلفول. ومن الأدباء الذين اشتهروا في النقد الأدبي النهشلي وابن رشيق ومحمد بن حماد الصنهاجي أمّا في النحو واللغة نذكر كل من الشيوخ ابن أبي سهل الخشني وعبد الكريم النهشلي وأبو القاسم يوسف البسكري ويحي بن عبد المعطي النحوي والحسن بن علي التهارتي ومن علماء الفلسفة والدين نذكر الفضل بن سلمة البجاني وأبو عبد الملك البوني وأبو بكر بن يحي الوهراني وأبو علي حسن بن علي بن محمد وأبو مدين شعيب بن الحسين وأبا محمد الأشيري وابن الرمامة ويوسف الورجلاني، هذا بالاضافة إلى الأطباء والفلكيين والرياضيين. كما اهتم الحماديين بالعمران والفنون فشيدوا

المباني في مختلف المناطق التابعة لدولتهم مثل المسيلة وبجاية وقسنطينة وسطيف وبسكرة ومدينة الجزائر والمدية ومليانة فبنوا المساجد والقصور واعتنوا بزخرفتها حتى أصبحت بجاية عاصمة الحماديين أهم مدينة في الشمال الإفريقي، ومن القصور التي كانت موجودة في ذلك الوقت نذكر المنار والكوكب والرياض وبلارة ومن أشهرهم قصر اللؤلؤة وللأسف لم يبقى من هذه المباني الكبيرة إلا بعض الأطلال في مدينة بجاية وقلعة بني حماد التي لازالت شاهدة إلى اليوم على عظمة الدولة الحمادية.

دولة المرابطين

430 هـ - 541 هـ

1038 م - 1147 م

عبد الله بن ياسين

يعود أصل المرابطين إلى قبيلة صنهاجة البربرية استوطنوا الصحراء الكبرى، وتأسست دولة المرابطين على يد قبيلة لمتونة الذين كانوا يستعملون اللثام بحيث لا ينزعونه مطلقا ولهذا أطلق عليهم اسم الملثمين ومن إخوانهم اليوم التوارق، وهم من البدو منهم الرحال والمستقرون اعتمدوا في حياتهم على الإبل والماشية والتجارة مع دول إفريقيا السوداء النيجر، السنيغال والسودان. ويرجع الفضل إليهم في نشر الإسلام في هذه البقاع. وبلغ الانحلال الخلقي والفساد منتهى الخطورة عند ما تقلد الأمير يحيى بن إبراهيم إمارة الملثمين فأناب ابنه إبراهيم ثم سافر إلى المشرق لأداء فريضة الحج و طلب العلم سنة 427 ه، وعند عودته مر بالقيروان واتصل بالفقية أبي عمران الفاسي امام المذهب المالكي فتزود منه علما غزيراً، وطلب منه أن يبعث معه فقيها من تلاميذه ليعلم الملثمين في شؤون دينهم، فلم يقبل أي تلميذ من تلاميذه الرحيل معه، فكتب له رسالة إلى أحد تلاميذه القدماء وجاج بنو زلو الذي أسس مدرسة لدارسة العلوم الاسلامية ببلدة نفيس ولما وصلته الرسالة عرضها على تلاميذه وتطوع عبد الله بن ياسين لهذه المهمة وهو من أصل صنهاجي شديد التدين ورجل ميدان يعرف جيدا المنطقة، وعندما وصل إلى قبيلة لتمونة صحبة يحي سنة 430 ه شرع في مهمة الوعظ والإصلاح، فمنع عليهم الزواج بأكثر من أربعة نساء وأمرهم بالصلاة في وقتها وحارب

المفسدين من السراق والزناة وكان رجلاً متقشفاً في الملبس والمأكل، ولما رفض االملثمون دعوته، رحل عنهم رفقة الأمير يحي بن إبراهيم وانضم إليهم سبعة من أشراف القبيلة وذهبوا إلى نهر النيجر وهناك أقاموا رباطهم للتعبد ومنه استمدوا اسمهم بالمرابطيين فتدربوا على فنون القتال وقرروا أنذاك بناء دولتهم حسب المذهب المالكي. ولما شاع أمرهم بين الملثمين توافدوا عليهم حتى بلغ عددهم ألف رجل، فشرع ابن ياسين في تعليمهم وتدريبهم حتى تقبلوا دعوته عن اقتناع حينئذ طالبهم بالخروج معه للجهاد، وقبل ذلك وجّه ابن ياسين إنذاراً للملثمين بعد أن دعاهم للتخلي عن منكراتهم. ولما أعرضوا عن دعوته قرر محاربتهم وخرج رفقة أنصاره سنة 434 ه بجيش قوامه ثلاثة آلاف محارب، فبدأ باللمتونيين ثم المسوفين حتى خضعوا جميعا بالقوة لابن ياسين. وبعد وفاة يحي بن ابراهيم سنة 440 ه خلفه يحي بن عمر اللمتوني، وكانت أنذاك عدة قبائل تعيش المظالم، فكتب إليه سكانها من فقهاء سجلماسة يطلبون منه التدخل لوضع حد لمظالم وفساد حكام بني وانودين الخاضعين لهم فزحف عليهم عبد الله بن ياسين رفقة يحي بن عمر فدخل إلى سجلماسة و قتل أميرها مسعود بن وانودين، ثم استولوا على درعة وواصلوا زحفهم إلى السودان. وعندما توفي يحي بن عمر سنة 447 ه خلفه أخوه أبو بكر بن عمر وفي عهده خرج بجيش كبير و استولى صحبة القائد ابن عمه يوسف بن تاشفين على بلاد السوس وتارودانت ثم أغمات وتادلا وأقروا بها مذهب مالك وحاربوا الشيعة الذين كانوا متواجدين بها. وعندما بسطوا نفوذهم على هذه الأقاليم حاربوا قبائل بورغوطة التي كانت تعتنق مذهباً مخالفاً لدين الإسلام ابتدعه رجل يهودي وكانت الحرب عنيفة بين الجانبين أستشهد على اثرها عبد الله بن ياسين سنة 451 ه، وبعد وفاته عين مكانه سليمان بن حدو ولكنه لم يعيش طويلا.

وفي عهد أبو بكر بن عمر وقعت فتنة بين قبيلة لمتونة ومسوفة اضطر من أجلها العودة إلى الصحراء لحل النزاع واستخلف مكانه ابن عمه يوسف بن تاشفين. ولما أخمد بن عمر هذه الفتنة أصلح أحوال الرَعية عاد إلى الشمال فاستقبله يوسف بن تاشفين في جيش عظيم تمكن من خلاله السيطرة على عدة أقاليم، فعرف بن عمر قدرة هذا الرجل في القيادة، فتنازل ليوسف بن تاشفين عن ولاية المغرب وعاد هو بنصف الجيش إلى الصحراء وواصل جهاده في نشر الإسلام وفتح بلاد السودان حتى توفي سنة 480 ه.

يوسف بن تاشفين و دور العظمة

ولما تولى بن تاشفين ولاية المغرب سنة 453 ه اتخذ من مراكش عاصمة لدولته، وشرع في تنظيم جيشه الذي بلغ مائة ألف ثم زحف على مدينة فاس وفتحها سنة 455 ه، وواصل جهاده حتى استولى على مدينة طنجة ثم سبتة ولما بسط نفوذه على جزء كبير من المغرب الأقصى ولى عليها ولاة. ثم كلف قائده مزدلي سنة 472 بفتح مدينة تلمسان، ثم خرج يوسف بن تاشفين رفقة جيشه واستولى على وجدة وتلمسان سنة 474 ه، ومنها توجه إلى المغرب الأوسط واستولى في طريقه على بلعباس ووهران والشلف وغيرها من مدن الغرب وحاصر الجزائر العاصمة واستولى عليها سنة 1082 م ثم رجع إلى مراكش.

فتح الأندلس

لم يكن فتح الأندلس رغبة يوسف بن تاشفين وإنما بطلب من سكانها لمحاربة النصارى بقيادة ألفونس السادس ملك قشتالة، وللعلم أنّ الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية كانت تعيش في تلك الفترة فوضى سياسية بحيث كانت مقسمة إلى عدة إمارات تتصارع فيما بينها وكل طائفة منها يحكمها ملك في غير مملكة عرفوا بملوك الطوائف، مما شجع الملك ألفونس وحليفه ساشو الثاني ملك أراغون بفرض سيطرتهم على هؤلاء الملوك وأثقالهم بالضرائب وتوصل إلى احتلال مدينة طليطلة سنة 478 ه وطرد مالكها يحيى بن ذي النون، ورغم نداءات بعض أشراف المدينة ومنهم القاضي أبي الوليد الباجي لتوحيد الصفوف ضد النصارى إلا أنها باءت بالفشل، وأمام هذا الوضع المزري لم يجد المسلمون المخلصون من بني الأندلس 'لا الاستنجاد بدولة المرابطين فبعث المعتمد أمير اشبيلية باتفاق مع بعض أشراف الأندلس وفدا إلى يوسف بن تاشفين طالبا منه التدخل لانقاذ الأندلس فقبل هذا الطلب على شرط تسليمه الجزيرة الخضراء ليتخذها مركزا لجيوشه وذلك ما تم. وعبر بجيشه مضيق جبل طارق وساعده في مهمته المعتمد وعندما نزل بالاندلس توجه للقاء جيش ألفونس وبسهل زلاقة سنة 479 ه اصطدم الجيشان في معركة عنيفة كان النصر فيها حليف بن تاشفين الذي كبد عدوه خسائر كبيرة رغم كثرة عدده و عداته.

ثم عاد إلى مراكش، واستنجد به الأندلسيون من جديد سنة 481 ه وقضى على ما بقي من جيوش النصارى التي كانت تضايق سكان مرسية وبلنسية وغيرها من الأقاليم، ولما واصل ملوك الطوائف عبثهم وصراعاتهم فيما بينهم والتحالف مع

النصاري للاستمرار في حكمهم، تيقن بن تاشفين أنهم غير أهل للدفاع عن بلادهم فقرر نزعهم من ملكهم وحرر باقي الأقاليم التي كانت خاضعة لحكم النصارى، وخضع الأندلس لحكم المرابطين المباشر. وعيّن عليها نائبه القائد سير بن أبي بكر. ورجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب أين توفي هذا القائد العظيم الملقب بأمير المسلمين سنة 500 هـ عن عمر يناهز مائة عام قضى معظمها في الجهاد في سبيل الله وتوحيد صفوف المسلمين ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة ولا زال قبره إلى يومنا هذا متواجداً بمدينة مراكش المغربية.

خلفاء بن تاشفين

خلف يوسف بن تاشفين ابنه علي بن يوسف في سن [illegible] سنة، وكان أشبه بأبيه فواصل مسيرته وقام بإصلاحات كبيرة في شؤون الدولة، وحضر مرات عديدة للدخول إلى الأندلس ومجابهة النصارى، ففتح مدينة قشتالة ووصل زحفه إلى البرتغال، فاستولى على لشبونة وغيرها من المدن حتى توفي سنة [illegible] هـ. ومن بعده دخل المرابطون مرحلة الضعف في عهد تاشفين بن علي وظهرت في تلك الفترة جيوش الموحدين بقيادة عبد المؤمن تزحف على أقاليم المرابطين [illegible] حتى مدينة تلمسان [illegible] تاشفين بن علي الذي قتل سنة [illegible] هـ [illegible] قبل وفاته [illegible] العرش إلا أنه لم يكن قادراً على حكمه، فانتزعه [illegible] المرابطين [illegible] إسحاق بن علي بن يوسف [illegible] الموحدين في تلك الفترة [illegible] فزحفوا إلى مدينة فاس واستولوا عليها سنة [illegible] هـ، ثم سقطت من بعدها مراكش التي تحصن بها المرابطون سنة [illegible] هـ وقتل فيها إسحاق بن علي، وانتهت بذلك دولة المرابطين.

الأعمال الحضارية لدولة المرابطين

يرجع الفضل للمرابطين في اتخاذ مذهب مالك كمذهب رسمي للدولة ولو أن هذا المذهب دخل للمغرب العربي قبلهم على يد طلبة العلم أمثال وجاج بن زلو وابن عمران [illegible] القاضي عياض وكلهم درسوا على أيدي فقهاء الأندلس التي كانت تعتنق [illegible]، ثم عمم على الشمال الأفريقي في عهد المرابطين، وساعد في القضاء على [illegible] الشيعة وتوحيد المغاربة تحت سلطة مركزية موحدة. هذا [illegible] إلى جانب دورهم الكبير في نشر الإسلام في ربوع افريقيا السوداء والسودان والسنغال والتصدي للدفاع على حرمة المسلمين في الأندلس التي كانت مهددة بالسقوط في أيدي النصارى، وتأثروا بحضاراتها واستفادوا منها في بناء المغرب. وتميز عهدهم بالاستقرار والهدوء والأمن والعدل حيث ألغوا الضرائب التي لم يقرها الشرع الإسلامي وفرضوا بدلها الزكاة وكانت أموال الدولة تجبى منها ومن الأعشار والغنائم والجزية، كما ازدهرت النشاطات الثقافية والعلمية عبر عدة مدارس تخرج منها علماء كثيرون في شتى الميادين كما [illegible] تسيير شؤون الدولة والرعية وكونوا جيشا بريا وبحريا قويا استطاعوا بفضله الدفاع عن [illegible] وتحرير الأندلس. ورغم اتساع نفوذهم بقوا معترفين بسيادة الخلافة العباسية على الأمة الإسلامية بحيث كانت النقود يكتب عليها [illegible] الخليفة العباسي إلى جانب أمير المرابطين. وكانوا يعينون في الوظائف السامية للدولة من ولاة وقضاة الرجال الأكفاء ذوي الخبرة والعلم، كما ساد الرخاء الاقتصادي بفضل عنايتهم بالفلاحة والتجارة مع الأندلس ودول افريقيا [illegible] وذلك ما شهد عليه العلامة الادريسي. وذكر ابن عذاري عن أحياء مكناس قال "كانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار [illegible] في عيش رغد ونعمة تامة، منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين" [illegible] العمارة [illegible] خصوصا بناء المساجد وزخرفتها والقصور [illegible] سكان الأندلس من ذوي الاختصاص [illegible] المرابطين [illegible]

أمّا الميدان الفكري فقد طغى عليه الفقه المالكي لكن احتكاكهم بعلماء الأندلس ساعدهم على البروز في الميادين الأخرى كالأدب والتاريخ رغم أن معظم النشاطات العلمية كانت متمركزة في الأندلس، ومن أبرز علماء ذلك العصر في المغرب العربي الجغرافي المغربي المشهور عالميا أبو عبد الله محمد الإدريسي ولد سنة 494 ه زار الكثير من دول العالم في إفريقيا والمغرب والأندلس وآسيا الصغرى وفرنسا وصقلية وانكلترا، ومن أشهر مؤلفاته الجغرافية "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي كلفه خمس عشر سنة من البحث، وألفه بطلب من ملك صقلية روجر الذي كان معجباً بالحضارة العربية الإسلامية، كما قام بوضع خريطة حائطية للعالم وصنع كرة أرضية من الفضة نقش عليها الأنهار والبحار والمدن الخ، وهو أول من اكتشف منابع النيل.

دولة الموحدين
515 هـ - 668 هـ
1121 م - 1269 م

محمد بن تومرت

يعود الفضل في تأسيس دولة الموحدين إلى الفقيه المصلح محمد بن تومرت، وهو من قبيلة هرغة من المصامدة الموجودة بجبال الأطلاس بالمملكة المغربية ولد سنة 485 ه، تعلم بالمغرب ثم واصل دراسته بقرطبة والإسكندرية والعراق ومن أساتذته الإمام المازري والإمام أبي بكرالطرطوشي وعلي بن المبارك وأبو بكر الشاشي وتأثر خصوصا بشيخه الإمام الغزالي حيث لازمه ثلاث سنين تعلم فيها أصول الدين والحديث وعلم الكلام. وبعد حوالي عشر سنوات بالمشرق عاد إلى بجاية بعد أن مرّ بالاسكندرية والمهدية وفي طريقه كان يلقي دروساً بالمساجد ويعظ الناس بواجبات الشريعة ويحارب المنكرات في الطرق، وبجاية انكب في التدريس والوعظ فأزعجت أفكاره الإصلاحية أمير الحماديين العزيز ابن المنصور فطرده منها، وفي بلدة ملالة القريبة من مدينة بجاية التقى بداخل مسجدها بالشاب عبد المؤمن بن علي جالسا في درسه والذي كان متوجها إلى المشرق من ميناء بجاية طلبا للعلم، وصده عن الذهاب فاعتنق عبد المؤمن أفكاره وبقي بصحبته يساعده ويتعلم منه ثم سافر معه إلى مدينة تلمسان ومنها اتجه إلى فاس ومكناس، وكان خلالها يلقي الدروس والوعظ بمساجدها ويحارب البدع والمنكرات بلسانه ويده حتى ذاع صيت ابن تومرت فرحب الناس بفكره رغم المضايقة التي تعرض لها من قبل ولاتها، وبمدينة مراكش عاصمة المرابطين التقى في المسجد يوم الجمعة بأمير المرابطين علي بن يوسف ابن تاشفين فوعظه ونظار فقهائها أمثال مالك بن وهيب ومحمد بن أسود وأقنعهم بالحجة والبرهان وحثهم على ما تفشى في المجتمع من بيع وشرب للخمر جهرا وتربية الخنازير وتبرج النساء أمام العامة وإهمال الواجبات الدينية والاشتغال بالطرب وضياع أموال المسلمين. ولما تيقن أمير المرابطين من خطورة فكره على حكمه طرده من مراكش، فاتجه إلى قبيلته هرغة بالمغرب الأقصى وهناك كان يدعو الناس إلى محاربة حكم المرابطين، وعندما انتشرت دعوته بين الناس جمع رجال مصمودة وقبائل الأطلس رفقة عشرة من أصحابه الأوفياء فبايعوه في رمضان سنة 515 ه ولقب نفسه بالمهدي المنتظر وأطلق على أنصاره لقب الموحدين. وفي سنة 517 ه

عد جيشا كبيرا ضد المرابطين بقيادة عبد المؤمن وقال ابن تومرت لأنصاره حسب ما ذكره المؤرخ عبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" : "أقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فأدعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والاقرار بالإمام المهدي المعصوم، فان أجابوكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم، فقد أباحت لكم السنة قتالهم". وقد خاض الموحدون من بعد عدة معارك ضد المرابطين، كانت أكبَرها وأعنفها معركة البحيرة سنة 524 ه ففي هذا التاريخ جهز بن تومرت جيشا عظيما متكونا من حوالي أربعين الف فارس بقيادة محمد البشير زحف به إلى مراكش وهناك اصطدم بالمرابطين في معركة البحيرة فانهزم الجيش الموحدي وقتل الكثير من أصحابه من بينهم أبو محمد البشير. اما عبد المؤمن فقد أصيب بجروح بليغة في فخذه الأيمن، ولمّا وصله نبأ الهزيمة قال بن تومرت : "أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا نعم. قال : لم يفقد أحداً". وقد تأثر من بعد تأثرا بليغا بهزيمة الموحدين، توفي على اثرها جراء مرض أصابه أيام من بعد سنة 524 ه ودفن بمنزله بتينملل سرا. وكتم اصحابه نبأ موته ثلاث سنوات، وقبل وفاته وصى أصحابه بمابيعة رفيقه وتلميذه الوفي عبد المؤمن.

عبد المؤمن بن علي

هو من مواليد سنة 487 ه ولد في أيام يوسف بن تاشفين بقرية تاجرا بضواحي ندرومة حاليا تابعة لولاية تلمسان من قبيلة الكومية، وكان والده يشتغل بصناعة الأواني الفخارية، ومن مواصفات عبد المؤمن أنه أبيض اللون أسود الشعر جميل الطلعة معتدل القامة فصيح اللسان شجاعً، ذكي يحب العلم والعلماء، وهو القائد العظيم والمؤسس السياسي لدولة الموحدين استطاع بفضل عبقريته وروحه المتفانية في توحيد القبائل والإمارات المتناحرة في الشمال الافريقي وتأسيس دولة الموحدين بالمغرب العربي. وقد قال عنه المؤرخ بن أبي زرع الفاسي في كتابه روضة القرطاس " كان ملكا عظيما وعادلا، سائسا عظيم الهيبة، عالي الهمة، كثير المحاسن، متين الديانة". وتمكنت هذه الشخصية من تشييد دولة من أعظم الدول الإسلامية. وحسب العلامة ابن خلدون فان المبايعة العلانية العامة لعبد المؤمن تمت بعد وفاة المهدي بثلاث سنوات أي سنة 527 ه.

توحيد دول المغرب العربي

عندما تولى عبد المؤمن بن علي الخلافة لم يباشر في محاربة المرابطين وإنما اعتنى بتنظيم جيشه ونشر دعوة الموحدين لمدة طويلة و كان يقوم بغارات من حين لآخر على المرابطين. ولما كون جيشا كبيرا غير تكتيكه الحربي بحيث أصبح يعتمد على الجبال بعد أن خسر معاركه من قبل في السهول. فزحف بقواته سنة 534 ه على مدن المغرب فحرر عدة جهات من الشمال حتى وصل إلى جبال غمارة. ثم اتجه شرقا فاستولى على مدينة بني عبد الواد ولما بسط نفوذه على جزء كبير من المغرب الأقصى توجه إلى المغرب الأوسط ففتح مدينة تلمسان سنة 539 ه. ثم التحق بأمير المرابطين تاشفين بن علي الذي فرّ منها الى وهران لطلب نجدة أسطوله المتواجد بالأندلس فحاصره الموحدون وتمكنوا منه فمات تاشفين بن علي سنة 539 ه ليلا وهو يحاول النجاة بفرسه من الحصن فسقط من حافة الجبل. ثم عاد إلى المغرب و فتح من بعد مدينة فاس سنة 540 ه ومكناس وسلا والرباط وأخيرا عاصمة المرابطين مراكش التي حصرها لمدة تسعة أشهر وتمكن من الاستيلاء عليها سنة 541 ه والقضاء على الأمراء المرابطين المتواجدين بها. ولما سقطت دولة المرابطين زحف على مدينة الجزائر التي كانت تابعة محمادين واستولى عليها سنة 547 ه بدون مقاومة ثم فتح مدينة بجاية في نفس السنة عنوة وفر أميرها يحي بن العزيز آخر أمراء الحماديين إلى مدينة عنابة ثم انتقل منها إلى قسنطينة فطارده جيش الموحدين واقتحموا المدينة وحملوه الى مراكش أمنا.

ورغبة من سكان تونس الذين استنجدوا به لحمايتهم ضد اعتداءات النرمانديون (النرمان من أصل النرويج والدنمرك استولوا على جنوب ايطاليا وقسم من فرنسا سمي باسمهم نرمنديا) الذين تمكنوا من احتلال العديد من أقاليم تونس كجزيرة جربة والمهدية حتى وصلوا إلى مدينة تونس. وفي سنة 554 ه كون عبد المؤمن جيشا كبيرا بريا وبحريا قوامه مائة ألف فارس وزحف به على مدينة تونس فاستولى عليها عنوة و منها توجه إلى المهدية المحصنة فحاصرها بحرا وبرا مدة ستة أشهر وحررها سنة 555 ه وفي نفس الوقت تمكن من تحرير مدن قابس وصفاقس وقفصة وطرابلس وبايعه سكانها. وعين عليها محمد بن فرج الكومي حاكما. وهكذا تمكن عبد المؤمن من توحيد المغرب العربي لأول مرة في تاريخه وأصبح سيدا عليه.

تحرير الأندلس

ولما عاد إلى مراكش استنجد به سكان الأندلس طالبين منه الحماية ضد الفوضى التي كانت تسود بلادهم من جراء الثورات القائمة ضد حكم المرابطين وعدم قدرة الأمير أبي الحسن علي بن يوسف على إقرار الأمن وخوفهم من استيلاء النصارى عليها. وتزعم هذه الثورات كلّ من قضاة وفقهاء الأندلس أمثال القاضي أحمد بن حمدين بقرطبة سنة 539 ه، وبن حسون بمالقة سنة 538 ه ومحمد بن عبد الله الخشني بمرسية سنة 539 ه وغيرها من مدن الأندلس، وكانت تهدف إلى التحرر من حكم المرابطين واستقلال كلّ واحد منهم بإماراته. فجهز عبد المؤمن سنة 541 ه جيشا ضخما وزحف به على الأندلس عن طريق سبتة واستولى على مدن اشبيلية ومالقة وقرطبة، وفي سنة 546 ه حاصر الموحدون مدينة مرية التي كانت تحت سيطرة جيوش ألفونس السابع لكن لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، ثم استسلمت لهم سنة 549 ه مدينة غرناطة التي كان يحكمها ميمون بن بدر المرابطي، فبايعوا أهل الأندلس عبد المؤمن ودخلوا في طاعته، وفي سنة 552 استرد الموحدون مدينة المرية بعد أن ألحقوا بجيش النصارى هزيمة نكراء. وعندما كان عبد المؤمن متواجدا بمراكش وصله سنة 556 ه نبأ هزيمة الجيش الموحدي على يد ابن مردنيش، فخطط للعبور إلى الأندلس فجمع جيشا ضخما، ولمّا وصل إلى هناك فرّ ابن مردنيش وحرر من جديد مدينة غرناطة. ثم عاد إلى المغرب حيث توفي بمدينة سلا إثر مرض أصابه سنة 558 ه ودفن إلى جوار شيخه الأب الروحي لدولة الموحدين المهدي بن تومرت ببلدة تينملل.

خلفاء عبد المؤمن

وقبل وفاته وصى أصحابه بمبايعة ابنه محمد ولكن سرعان ما خلع من طرف إخواته لأنه لم يكن أهلا للحكم، وعين مكانه أخوه أبي يعقوب يوسف سنة 558 ه، وكان ذا أخلاق حسنة يحب العلم والعلماء درس علوم اللغة والطب والفلسفة، وفي بداية عهده عرفت دولة الموحدين ثورات قادها كل من مرزدغ وسبع بن منغفاد في بلدة غمارة وتمكن من القضاء عليها، وفي سنة 564 ه بعث إلى الأندلس جيشا يقوده الشيخ أبوحفص وتمكنوا من استرداد بطليوس التي احتلها من قبل فرديناند ملك ليون، ثم نزل الخليفة أبي يعقوب بنفسه رفقة جيشه بالأندلس سنة 566 ه وقضى على فتنة ابن مردنيش بقرطبة واستولى على بلدة وبذة ولم يتمكن من القضاء على جيوش سانشو البرتغالي، ثم عاد إلى المغرب سنة 571 ه. وعندما أصر على القضاء نهائيا على النصارى بالأندلس والبرتغال كون جيشا كبيرا سنة

580 ه ولما وصل هناك أمر ابنه أبا اسحاق بمهاجمة لشبونة وخرج بالجيش في الليل تاركا أبوه أبي يعقوب رفقة جيش يسير، ولما بلغ الأمر سكان شنترين البرتغال، هاجموا معسكر أبي يعقوب ولم يتمكن منهم لكثرة عددهم ولكنه واجههم بكل شجاعة رغم قلة جنوده و قتل هو و حراسه سنة 580 ه.

وخلفه من بعده ابنه يعقوب المنصور وعرفت افريقيا في عهده ثورة ابن غانية المرابطي الذي كان حاكما على جزر الباليار الاسبانية فاستولى رفقة قواته على بجاية سنة 581 ه ثم ضموا إليهم مدينة الجزائر ومليانة ومازونة، وتمكن المنصور من إخماد ثورتهم واسترجاع المدن التي احتلوها بعد جهد كبير، سقطت فيه العديد من الأرواح، وعندما استقر الأمن في ربوع افريقيا توجه إلى الأندلس مرتين جاهد خلالها النصارى وعقد معهم صُلحاً دام خمس سنوات ثم نقض النصارى العهد وهاجموا المسلمين في ديارهم، ثم عاد مرة ثانية بعد أن كون جيشا ظخما قاده بنفسه وزحف به على الأندلس لمحاربة ألفونس الثالث ملك قشتالة الذي احتل بعض الأراضي الإسلامية والتقى الجيشان سنة 591 ه بقلعة الارك وكبد جيش قشتالة هزيمة نكراء استطاع ألفونس الفرار منها، ثم واصل هجومه وتمكن من تحرير بعض الأقاليم، وفي الآخير اضطر النصارى الى طلب الصلح، وعاد من بعدها إلى المغرب أين توفى سنة 595 ه. فخلفه محمد الناصر وفي عهده تمكن تحالف النصارى بمساعدة البابا سنة 609 ه من الثأر من هزيمتهم في غزوة الارك، وتمت هذه المعركة في سهل تولوزا وكبدوا الجيش الموحدي الذي انسحب منه جيش الأندلس خسائر كبيرة في الأرواح، وأحدثت هذه الواقعة صدمة نفسية عنيفة لدى الناصر والمسلمين أعتبرت بداية تاريخ تفكيك الدولة الأندلسية بإسبانيا توفى من بعدها الناصر سنة 610 ه. فجاء من بعده يوسف المستنصر ودام حكمه حتى سنة 620 ه عرف بعهد الضعف لما ساد في تلك الفترة من فساد وفتن في إفريقيا خصوصا من طرف بنو مرين الذين ظهروا سنة 613 ه وتمكنوا سنين من بعد في إسقاط دولة الموحدين إضافة إلى الإنهزامات المتكررة لجيش الموحدين وتدخل أمراء النصارى في الشؤون الداخلية للمسلمين بالأندلس وضياع أراضيهم، هذه الاضطرابات التي لم يتمكن أي خليفة من بعده التحكم فيها.

ثم تعاقب من بعده في حكم دولة الموحدين كل من: عبد الواحد ولكن سرعان ما خلع من خلافته وقتل خنقا سنة 621 ه، وعين مكانه عبد الله العادل حتى قتل سنة 624 ه من طرف نائبه بالأندلس أبو العلاء، ثم خلفه ادريس المأمون وحاول أن يعيد مجد دولة الموحدين، ولكن الظروف لم تسمح له بذلك ومات سنة

629 د وكتم خبر موته لمدة سنة، ثم بايعوا ابنه عبد الواحد الرشيد سنة 630 د وانتهت حياته غرقا في أحد صهاريج بستانه بمراكش سنة 640. فخلفه أخاه علي بن المأمون السعيد وبلغت في عهده حركة العصيان والتمرد إلى حد لا يمكن تحمله قتل جرانها سنة 646 د، فبايع الموحدون عمر المرتضى احد ولاة المغرب وقتل سنة 665 د على يد إدريس أبو دبوس الذي حل مكانه ولم يدم حكمه طويلا إذ سرعان ما دخل في حرب ضد يعقوب المنصور الذي قتله سنة 668 ه وفي نفس السنة تمكن بنو مرين من الاستيلاء على مدينة مراكش وإسقاط دولة الموحدين. وقسم المغرب العربي إلى ثلاثة دول الحفصيون بتونس، والزيانيون بالجزائر والمرينيون بالمغرب، وعرفت هذه الفترة بعصر الانحطاط ليس في المغرب العربي لوحده وإنما العالم الإسلامي ككل.

الأعمال الحضارية
لدولة الموحدين

يرجع الفضل للموحدين في توحيد المغرب العربي لأول مرة في تاريخ الشمال الافريقي وذلك بضم كل من المغرب والجزائر وتونس تحت سلطة مركزية واحدة تابعة لدولة الموحدين، هذا إلى جانب تمكنهم من القضاء على الفساد والفتن التي كان يعيشها سكانها وحمايتهم من الاستعمار النورماندي الذي كاد أن يحتل أراضيهم، ودورهم الفعال في الدفاع عن الأندلس التي كانت وشيكة السقوط في أيدي النصارى في بداية العهد الأول للموحدين.

في الجانب الديني فقد تبنوا المذهب الظاهري الذي ينتسب إليه الفقيه المشهور ابن حزم الظاهري وهو من مواليد الأندلس. ويحث هذا المذهب إلى العمل بظاهر نصوص الكتاب والسنة. كما ظهرت في عهدهم الصوفية ومن أشهر علمائها في تلك الفترة أبو مدين الغوث الملقب حاليا بسيدي بومدين والذي توفي بمدينة تلمسان سنة 594 ه ودفن بها ولازال ضريحه إلى يومنا هذا مزارا لسكانها وشخصيته موضع تقدير وإعجاب. وهو من مواليد اشبيلية بالأندلس سنة 520 ه، ثم سافر الى المغرب وتتلمذ على الشيخ أبي الحسن حرزهم وابن الحسن بن غالب. وكان يشتغل أحيانا بصناعة النسيج ليعيش أو ليقتات منها، وتوصل إلى جمع تعاليم كبار الصوفية بالمغرب والمشرق، وأثناء أدائه لفريضة الحج اتصل بالشيخ عبد القادر الجيلاني وتعلم منه. ثم عاد إلى بجاية أين باشر بها تعليمه ولما ذاعت شهرته وتكاثر اتباعه استدعاه الأمير يعقوب المنصور إلى المغرب وتوفي في طريقه بمدينة تلمسان إثر مرض اصابه هناك. ومن أشعاره :

بكت السحاب فأضحكت لبكائها ... زهر الرياض وفاضت الأنهار

وقد أقبلت شمس النهار بحلة ... خضرا وفي أسرارها الأسرار

لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا ... مزمارنا التسبيح و الأذكار

و شرابنا من لطفه و غناؤنا ... نعم الحبيب الواحد القهار

أما في الجانب السياسي فقد اعتمد حكمهم على ارث الخلافة مثلهم مثل لمرابطين وسمي الخليفة في عهدهم بأمير المؤمنين وتتم مبايعته من طريق

الأسرة الحاكمة أو مشايخ الموحدين بمحضر أهل الجماعة واعتمدوا في تسيير دولتهم على هيئة استشارية ووزراء وحجاب وقضاة وولاة ينوبون عنهم في أجزاء دولتهم، وكانوا يستخلصون الموارد المالية للدولة من الضرائب والزكاة والأعشار إضافة إلى الغنائم الحربية، وتمكنوا بها من انشاء جيش بري وبحري قوي.

وعرف عهدهم تطورا حضاريا لابأس به ورخاء اقتصاديا كبيرا وأمن واستقرار وخاصة في أيام الأمراء الكبار، وكانت الجاليات الأجنبية من مسيحيين ويهود موضع احترام، كما سمحت هجرة بني هلال الى الغرب العربي على تعريب العديد من القبائل، إضافة إلى العائلات الأندلسية التي فرت من الأندلس إثر سقوط العديد من أقاليمها في يد النصارى وحملت معها الفنون والعلوم وساهمت بها في التقدم الحضاري لربوع شمال افريقيا.

كما اعتنى الموحدون بالصناعة والفلاحة والتجارة، ومن أهم صناعاتهم النسيج والجلود والورق والآلات الحربية واستغلال مناجم الذهب والفضة والحديد والنحاس والكبريت، وكان التبادل التجاري قائما بين المغرب والجزائر وتونس اضافة الى الأندلس والبلدان الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وبلاد المشرق، كما اهتموا بإنشاء المدن والمساجد والموانئ والقناطر والحصون، وساد في عهدهم نشاط فكري كبير في مختلف التخصصات الأدب الفقه التاريخ الجغرافية الفلسفة ولو أنهم كانوا يفتقرون إلى علماء في ميدان الطب والهندسة إلا أن الأندلسيون ساعدوهم في ذلك، ومن بين أشهر علماء تلك الفترة في الفقه والحديث والتفسير نذكر: علي بن القاسم الصنهاجي، وابن عبد الجليل القصري الذي توفي سنة 606 ه، وأبو الحسن علي بن محمد الكتاني المعروف بابن القطان، وأبو عبد الله المواق الفاسي، وأبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي المتوفي عام 655 ه، وابن عبد الجليل القصري، وأبو العباس أحمد بن فرتوت السلمي، وأبو عبد الله محمد بن حسن الفاسي، وعلي بن محمد الشاري الغافقي. ومن الأدباء والشعراء عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، ومالك ابن المرحل المتوفي سنة 699 ه، وأبو موسى الجزولي توفي سنة 610 ه، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي، وأبو زكريا يحي بن معط، وأبو العباس الجراوي المتوفي سنة 609ه، وميمون بن علي بن عبد الخالق المعروف بابن خبازة. ومن المؤرخين عبد الواحد المراكشي، وأبي بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيدق، ويوسف بن عمر الاشبيلي، وأبي مروان عبد الملك بن أبي القاسم الكردبوسي. وفي ميدان الطب سعيد الغماري، ويحي بن محمد بن بقي السلوي، ويوسف بن

سمغون الفاسي وهو يهودي. وفي الرياضيات أبو علي المراكشي، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج الفاسي، أمّا في الفلسفة فقد نبغ ابن رشد وابن طفيل وهم من أشهر علماء العصر الاسلامي من أبناء الأندلس.

الدولة الحفصية

627 هـ - 981 هـ

1229 م - 1273 م

تأسست الدولة الحفصية على يد الأمير أبو زكرياء يحي عندما كان واليا على اقليم تونس فلما رأى ما وصلت إليه الدولة الموحدية من ضعف وتفكك استقل بتونس سنة 627 ه ونصب نفسه أميرا عليها. وينتسب أبو زكرياء إلى الشيخ أبي يحي حفص بن عمر الهنتاني أحد القادة الكبار للدولة الموحدية والذي لعب دورا كبيرا في التمكين لدعوتهم، ومن بعده تقلد أبناؤه مناصب عليا في افريقيا والأندلس. ولما بسط نفوذه على إقليم تونس زحف أبو زكرياء سنة 628 ه على المغرب الأوسط واستولى على قسنطينة وبجاية ثم مدينة الجزائر سنة 632 ه ولما وصل الى تلمسان سنة 640 ه فر منها أميرها الزياني يغمراسن ثم توجه إلى المغرب الأقصى واقتحم سلجماسة وسبتة وطنجة وبايعه أمراء بني مرين بالخلافة لمدة من الزمن ثم نقضوها وبوفاته سنة 647 ه، خلفه ابنه المستنصر بالله أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء، وفي عهده شن الملك الفرنسي لويس التاسع حملة عسكرية بحرية على تونس قوامها أربعين ألف عسكري وتم ذلك بايعاز من أخيه دانجو حاكم جزيرة صقلية ومساندة البابا، ولما نزل بقرطاجنة سنة 668 ه تصدى له الجيش الحفصي ودامت المعركة بينهما حوالي ستة أشهر ولم تتوقف إلا بظهور وباء الطاعون بتونس والذي تمادى إلى جيش لويس فمات الكثير منهم ومن جملتهم لويس ملك فرنسا. وفي عهد المستنصر الثاني الذي تولى الملك سنة 683 ه انقسمت الدولة الحفصية إلى مملكتين الأولى شرقية بتونس ويحكمها المستنصر الثاني والثانية بالجزائر عاصمتها بجاية ويرأسها ابن عمه يحي بن ابراهيم، ودام هذا الانفصال لمدة معينة من الزمان الى حين وفاة المستنصر ثم توحدت من جديد. كما تعرضت دولة بني عبد الواد سنة 720 ه لسبب تحالفها مع الأمير

الحفصي ببجاية المتمرد على السلطة المركزية بتونس الى غضب الأمير الحفصي ابو بكر الثاني، فتحالف هذا الأخير مع المرينيين بالمغرب الأقصى، فهاجموا مملكة عبد الواد واقتسموا ملك تلمسان فيما بينهم، فبسط الحفصيون نفوذهم على شرق المغرب الأوسط واستولى المرينيون على غربها بما فيها عاصمتها تلمسان. وبقيت الأمور تسير عى هذا الحال بين هذه الدول المغاربية تارة تكون الغلبة للحفصيين وتارة للزيانيين وتارة للمرينيين وكل واحدة منهم تحاول أن تضم كامل المغرب العربي تحت حكمها الى أن ضعف سلطانهم وهيباتهم امام الدول الأوروبية. وفي السنين الاخيرة من عهدهم تفشى الفساد والفتن داخل مملكتهم فضغط القائد التركي خير الدين الذي كان متواجدا بالجزائر الى الزحف اليها واستولى على تونس بسهولة ومكث فيها بعض الوقت ثم رحل عنها، ففر منها اميرها الحسن بن أبي عبد الله الحفصي وتوجه إلى اسبانيا طالبا النجدة من ملكها شارلكان فلبى نداءه ودخل الجيش الاسباني إلى تونس سنة 942 ه وأصبحت من ذلك الوقت تحت الحماية الإسبانية إلى يوم احتلالها من طرف الدولة العثمانية سنة 981 ه. وهكذا انقرضت الدولة الحفصية بعد ان تعاقب عليها خمسة وعشرون اميرا دام ملكهم ما يقرب ثلاثمائة وخمسين عاما. عرفت خلالها الدولة الحفصية رخاء اقتصاديا وتطورا فكريا وخاصة في عهد الأمراء الأولين، ومن اشهر العلماء الذي انجبتهم ذلك العصر هو المؤرخ والاقتصادي المشهور عبد الرحمن بن محمد بن خلدون مؤسس علم الاجتماع. وهو من مواليد تونس سنة 732 ه درس في شبابه بجامع الزيتونة ثم المغرب الأقصى وقضى معظم حياته في التجول بين تونس والجزائر والمغرب وتقلد عدة مناصب سياسية عليا في الدولة الحفصية والزيانية والمرينية والاندلس. كما اشتغل بمهنة التدريس ومكث اربع سنوات (776 ه- 780 ه) في قلعة بني سلامة بولاية تيارت كرسها للبحث العلمي وألف خلالها كتابه المشهور "المقدمة" ثم بعدها رحل الى مصر فاشتغل بالتدريس ثم عين قاضي القضاة وكان في نفس الوقت يواصل بحوثه العلمية فزار عدة مدن من المشرق العربي وتوفي بالقاهرة في سنة 808 ه بعد ان ترك للأمة العربية والإسلامية تراثا فكريا كبيرا استفادت منه الأ[illegible] من بعد في نهضتها العلمية

دولة بني عبد الواد الزيانية

1236 م - 1554 م

ظهرت دولة بني عبد الواد مثلها مثل دولة الحفصيين والمرينيين على أنقاض دولة الموحدين فاستقر الحفصيون بتونس والمرينيون بالمغرب وبني عبد الواد بتلمسان. ويرجع الفضل في تأسيس هذه الدولة للدور الذي لعبته قبيلة بني عبد الواد الزناتية وعلى رأسها جابر بن يوسف في مساندة الموحدين ضد المرينيين ووقوفه مع والي الموحدين على تلمسان أثناء ثورة الأهالي ضده. فمن ذلك اليوم أسند الخليفة الموحدي المأمون ولاية تلمسان إلى رئيس قبيلة بني عبد الواد جابر بن يوسف اعترافا له بالجميل وكان ذلك بداية لقيام دولة بني عبد الواد. لكن هذا الأخير قتل أثناء حملة قام بها في نواحي ندرومة، فخلفه ابنه الحسن سنة 629 ه ولكن بعد سنتين من ولايته ثار عليه أهالي تلمسان وخلعوه من منصبه وحل محله ابن عمه زغدان بن زيان بن ثابت سنة 631 ه الذي قتل أثناء صراع نشب بين قبائل بني عبد الواد. فخلفه أخوه يغمراسن بن زيان سنة 633 ه والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة بني عبد الواد الزيانية. فقام بتنظيم شؤون دولته واعتمد على قبيلة بني عبد الواد فاعتنى بتكوين الجيش ووفر لهم الأسلحة والذخيرة وعين الوزراء والحجاب وأعلن استقلاله على دولة الموحدين. ولم يبق لهم إلا الدعوة بمنابر المساجد يوم الجمعة والأعياد ووثق الصلة معهم. ثم سير جيشه للاستيلاء على ناحية الشلف. فاستنجد أمراء مغراوة بأبي زكرياء الحفصي فاحتل هذا الأخير مدينة تلمسان سنة 640 ه. ففر منها يغمراسن إلى جبل ورنيد جنوب تلمسان ثم استدعه أبي زكريا وعقد معه صلح على شرط أن تقام الخطبة باسمه وعداوة الموحدين وأعطاه جزء من أراضي افريقيا مقابل دفع ضريبة سنوية ثم انصرف إلى تونس. ولما سمع السعيد أمير الموحدين بموضوع الاتفاق الذي تم بين يغمراسن وأبي زكريا سير جيشه نحو تلمسان والتقى الجيشان سنة 646 ه بواد ايسلي فانتصر يغمراسن وقتل أمير الموحدين السعيد في المعركة. وخاض من بعدها عدة معارك ضد المرينيين وبني توجين سمحت له بتوسيع رقعة إماراته وتقوية دولته ضد الأطماع الخارجية. وبعد حكم دام 48 سنة توفي يغمراسن وكان عمره 76 سنة فخلفه ابنه أبو السعيد عثمان سنة 681 ه فوسع مملكته بالاستيلاء على المغرب الأوسط مازونة والمدية وتنس وقضى على امارتي مغراوة وبني توجين بالمغرب الأوسط. بعد ذلك قام يوسف المريني يوسف بن يعقوب سنة 698 ه

بمحاصرة تلمسان مدة ثماني سنين و عندما لم يتمكن من دخولها شيد بالقرب منها مدينة المنصورة التي لازالت أطلالها الى يومنا شامخة، ولحق بسكان تلمسان خلال هذه الفترة بلاء عظيم فنقصت الأموال وقلت الأغذية وعمت المجاعة، إلا أنها لم تستسلم، وتوفي ملكها أبو السعيد والحصار لازال قائما على دولته. فخلفه على العرش ابنه أبو زيان محمد سنة 703 ه فواصل المقاومة ضد العدو المحاصر حتى جاءه سنة 706ه م نبأ مقتل السلطان المريني يوسف بن يعقوب فعاد الجيش المريني إلى المغرب ورفع الحصار على تلمسان، فأصلح ما أفسدته الحرب وأعاد أبو زيان منطقة الونشريس والشلف وغيرها من مدن المغرب الأوسط إلى حظيرة ملكه ثم توفي سنة 707 اثر مرض، فخلفه أخوه أبو حمو موسى الأول بن عثمان وكان شخصا صارما شجاعا داهية شرس الأخلاق محبا للعلم، فأمن دولته من الخطر المريني بتحقيق السلم معها، ونهض أبو حمو باقتصاد تلمسان فتحسنت أوضاع سكانها وعم الرخاء أرجاءها فاستعادت الدولة العبداوية قوتها، ثم سير جيشه نحو بجاية التي كانت في يد الحفصيين فحاول الاستيلاء عليها سنة 715 ه و716 ه لم يستطيع، وأثناء وجود أبوحمو بالشلف وصله نبأ تحرك الجيش المريني بقيادة الملك أبا السعيد بحجة أنه يستضيف أعضاء من أسرته مناهضين لملكه فعاد أبو حمو إلى تلمسان وتحصن في مدينته وأطلق إشاعة بأن أعضاء من أسرته بفاس يدبرون له مؤامرة لازحاته من الملك، فرفع أبا السعيد الحصار وعاد إلى المغرب، وأثناء وجوده بتلمسان ثار عليه راشد بن محمد المغراوي بشلف فاستخلف أبوحمو على تلمسان ابنه أبا تاشفين وزحف رفقة ابن عمه مسعود بن برهوم على شلف ففر منها راشد بن محمد إلى بلاد القبائل فاستولى في طريقه على الونشريس ومتيجة ومدينة الجزائر، وحاول من جديد التوسع على دولة الحفصيين في كل من بجاية وقسنطينة وعنابة لكنه لم يفلح، وقتل أبو حمو في قصره رفقة مسعود بن برهوم ووزيره سنة 718 ه اثر مؤامرة دبرت من ابنه والمقربين منه وهذا لسبب صرامة أبوحمو اتجاه ابنه، إلا أنّ أبو تاشفين لم يتفق مع أنصاره على قتل أبيه وإنّما فقط عزله عن العرش وسجنه. فخلفه ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول وكان شخصا مولعا بالعمران فعرفت في عهده تلمسان ازدهارا كبيرا في الفنون والصناعات وأول شيئ قام به القضاء على ثورة محمد بن يوسف فحصاره هو وجنوده بجبل الونشريس وقتله وعفا عن الباقين من أتباعه ثم واصل سيره نحو بجاية الخاضعة لدولة الحفصيين فاستولى عليها سنة 730 ه وضمها إلى ملكه وزحف من بعد إلى تونس فهزم جيش الملك الحفصي أبو يحي ودخلها عنوة فمكث فيها أربعين يوما ثم سلمها إلى ابن أبي عمران الحفصي وعاد إلى تلمسان،

فاستنجد الملك الحفصي المخلوع بالملك المريني أبي السعيد فوافق على تلبية الطلب. فأرسل هذا الأخير رسُلا إلى أبي تاشفين يطلب منه الاقلاع عن بجاية فرفض وكان ذلك سببا في تحرك الملك المريني نحو تلمسان، وفي تلك المدة الزمنية ثار عليه أخوه حاكم سلجماسة أبي الحسن فقتل الملك أبي السعيد وأصبح ملك الدولة المرينية ثم سير جيشه نحو تلمسان فحصارها سنة 735 ه وشيَد بالقرب منها مدينة المنصورة الجديدة على أنقاض القديمة وبعد حصار دام سنتين تمكن من الاستيلاء على تلمسان سنة 737 ه عنوة وقتل الملك أبي تاشفين أثناء المعركة وضم المغرب الأوسط الى ملكه، وأحسن أبي الحسن المريني معاملة بني عبد الواد فضمهم إلى جيشه وأبقى لهم امتيازاتهم، وتلبية لنداء ابن الأحمر بالأندلس ضد النصارى تمكنت القوات البحرية المرينية من التغلب على الأسطول الإسباني سنة 740 ه لكنها هزمت سنة من بعد في معركة وقيعة طريف شر الهزيمة فعاد ما تبقى من الجيش المريني إلى المغرب وهناك اعتنى بالعمران، وبعد وفاة أبي يحي الحفصي حاكم تونس سنة 747 ه اشتد الصراع على الحكم الحفصي بين ولي العهد أبو العباس ومنافسه أبي حفص عمر، فخرج أبي الحسن مع جيشه سنة 748 ه من تلمسان نحو تونس وفي طريقه استولى على بجاية وقسنطينة ثم تونس وأقام بها حوالي سنتين ودفاعا عن امتيازاتهم تمردت عليه قبائل العرب وهزموا جيشه بالقرب من القيروان ثم حاصروا المدينة سنة 749 ه، ولكن أبو الحسن استطاع أن يفلت من قبضاتهم وبينما كان بنو عبد الواد ومغراوة محاصرين لمدينة تونس سمعوا بهزيمة أبي الحسن فبايعَ بني عبد الواد أبا السعيد ملكا على تلمسان وعادوا هم و مغراوة إلى المغرب الأوسط لإحياء الدولة العبد الوادية من جديد. ولما اقترب جيشهم من مدينة تلمسان خرج إليه حاكمها ابن جرار فهزمه أبا السعيد ودخل تلمسان وتولى السلطة رفقة أخيه سنة 749 ه فاعتنى أبو السعيد بالشؤون السياسية وأبو ثابت بالشؤون الحربية ثم وصلهم نبأ دخول الملك المريني المخلوع أبي الحسن من تونس إلى الجزائر بحرا فسير إليه القائد أبو ثابت جيشا ضخما متكونا من بني عبد الواد ومغراوة والتقى الجيشان في تيعزيزن في ناحية الشلف سنة 751 ه فهزم أبي الحسن وفرَ ليلا اتجاه الصحراء ثم توجه نحو المغرب الأقصى وهناك دخل في صراع على العرش المريني مع ابنه أبي عنان الذي استخلفه عندما كان في تونس، وغيره من بني عبد الواد، لانتصارهم قتل جنود مغراوة بعض الأفراد من جيش بني عبد الواد فقضى أبو ثابت عليهم واستولى على قبيلة مغراوة ثم واصل زحفه إلى مليانة والمدية والجزائر وضمهم إلى ملكه ثم عاد إلى تلمسان. ولمَا سمع الملك المريني أبي عنان بمقتل بن الراشد حاكم مغراوة غضب

لرد شفاعته وعزم على الثأر لحاكم مغراوة فبادر في الهجوم على تلمسان فخرج إلية أبي السعيد وإلتقى الجيشان بواد القصب فقتل أبي السعيد واستولى أبي عنان على تلمسان سنة 753 ه فاستنجد أخوه أبو ثابت بأنصاره في الجزائر، وبواد الشلف دارت معركة بينهم فهزم أبي ثابت وفر رفقة وزيره يحي بن داود وأبو حمو إلى بجاية فاعتقلهم حاكمها وسلمهم إلى الملك المريني فقتل أبو ثابت ووزيره ونجى أبوحمو موسى الثاني، فتوجه هذا الأخير إلى تونس فأكرمه ملكها الحفصي اسحاق بن أبي يحي بن أبي زكريا وبمساندة قبيلة بني عامر وجماعة من زناتة تمكن أبوحمو موسى الثاني من استرجاع مدينة تلمسان سنة 760 ه عنوة فبايع سكانها أبوحمو وأطلق عليها اسم الدولة الزيانية، فاعتنى بالعلم و العلماء و كان شاعرا فعرفت تلمسان في عهده الرخاء ثم أرجع مدن المغرب الأوسط إلى حضيرة ملكه، ووقعت اضطرابات داخلية أثناء حكمه أدت إلى اشعال نار الثورة بين أبي حمو وأخيه الأمير أبو زيان فاستغل الملك المريني أبوفارس عبد العزيز هذه الفرصة واستولى على تلمسان فخرج أبوحمو منها لاسترجاع قواته و لم يعد إليها إلا بوفاة أبي فارس ثم دخل أبي حمو، في نزاع مع ابنه أبي تاشفين انتهى بمقتل أبوحمو و عاد النزاع من جديد حول العرش بين أبي تاشفين وأخيه أبو زيان حاكم مدينة الجزائر كانت نتيجته مقتل أبي تاشفين، فاستغل المنتصر المريني هذا الوضع واحتل تلمسان والمناطق الشرقية لها، ومن يومها أصبح المرينيون يتدخلون في الشؤون السياسية للدولة الزيانية يولون عليها من يرغبون ويخلعون من لا يتماشى ومصلحتهم حتى ضعفت الدولة المرينية. ولما تولى الحكم الأمير الزياني أبومالك عبد الواحد سنة 814 ه قام باصلاح شؤون دولته ومَحَا المخلفات المرينية، لكن الملك الحفصي أبي فارس عزوز لم يتح له الفرصة فسير له سنة 827 ه جيشا كبيراً لم يستطيع أبومالك مقاومته فاستولى على تلمسان ونصب عليها محمد بن أبي تاشفين المدعو بابن الحمراء الموالي له، ولما استبد محمد بن تاشفين بالحكم وقطع الدعوة في خطب المساجد للملك أبي فارس تدخل الحفصيون من جديد سنة 831 ه لارجاع أبي مالك عبد الواحد، وفي سنة 834 ه تحرك الملك الحفصي أبو فارس نحو تلمسان فقضى على ملكها أبو عبد الله بن الحمراء، ونصَب على عرشها أبو العباس أحمد العاقل، ومن يومها أصبح الملوك الحفصيون يتدخلون في الشؤون الداخلية للدولة الزيانية إلى أن ضعف سلطانها وسلطة الدولة الحفصية والمرينية بالمغرب العربي فعمت الفوضى والاضطرابات في الدولة الزيانية وتطاحن أمراؤها على السلطة ففقدت هيبتها على سكان المغرب الأوسط وانفصل عليها سكان مليانة والمدية والجزائر، فاستغل الإسبان هذه الفرصة

بعد قضائهم سنة 1492 م على آخر معقل للمسلمين بغرناطة، فوجهوا أطماعهم التوسعية الصليبية تنفيذا لوصية الملكة ايزابيلا ومباركة البابا نحو الشمال الافريقي فأرسل ملك اسبانيا فرديناند Ferdinand حملة عسكرية بحرية ضخمة بقيادة دون دييغو Don Diego وهاجم المرسى الكبير بالمدفعية واحتله وتحصن به سنة 1505 م بعد معركة دموية استغرقت شهرين، كانت الغلبة فيها للإسبان لكثرة عددهم وعدتهم، ثم استولى من بعده المتعصب الكاردينال كسيمانس Ximenes على مدينة وهران سنة 1509 م بمساعدة اليهود الذين غدروا بسكانها ففتحوا له باب المدينة حيث قتل من سكانها حوالي 4000 شخص و حول مسجدين بها إلى كنيستين، وبَعْدَ عامٍ من بعدها احتل الاسبان بجاية سنة 1510 م ومستغانم سنة 1511 م، أما الجزائر العاصمة فقد فشلوا سنة 1516 م من احتلالها ولكن تمكنوا من الاستيلاء على الجزر الواقعة في مدخل الميناء مما اضطر سالم التومي حاكم الجزائر إلى مهادنة الإسبان ودفع جزية لهم، أما الموانئ الجزائرية الأخرى مثل تنس وشرشال ودلس فلم يتعرض لها الاسبان لأن أعيانها عرضوا عليهم دفع ضريبة اتقاء شرهم. وفي هذا الجو المشؤوم كان الأمراء الزيانيون يتقاتلون على عرش تلمسان فسجن الأمير أبوحمو الثالث ابن أخيه أبا زيان وتحالف مع اسبانيا فأغضب هذا التصرف أعيان تلمسان واستنجدوا بعروج القائد التركي الذي كان متواجداً في الجزائر فسير إليه سنة 1517 م جيشا عن طريق البر واستولى على تلمسان، ففر أبوحمو الثالث متوجهاِ إلى فاس ومنها إلى الحامية الإسبانية بوهران وأخرج سكان تلمسان أبا زيان من السجن ونصَبوه أميرا عليهم فأساء الأتراك معاملة أهل تلمسان ولمَا حاول الأمير أبو زيان الدفاع عنهم قتله عروج ونصب نفسه سلطاناً عليهم وأبرم اتفاقا مع ملك فاس ضد الاسبان، ثم هاجم الجيش الاسباني رفقة أبي حمو سنة 1518 م على مدينة تلمسان وبعد حصار دام ستة أشهر استولوا عليها وفر منها ليلا عروج رفقة جنوده الأتراك والتحقت به فرقة من الاسبان بالقرب من تلمسان، فتحصن بحصن وقتل هو وجنوده حتى استشهدوا جميعا، ثم أرسل الاسبان رأس عروج إلى اسبانيا ونصبوا أبا حمو أميرا عليها وعادوا إلى وهران. ومما زاد الطين بلة تدخل الدولة المغربية في الشؤون الداخلية للدولة الزيانية فاستولت جيوش الملك المغربي الشريف محمد المهدي السعدي على تلمسان سنة 1550 ه وواصلت زحفها إلى منطقة الغرب الجزائري، فسير له الباي لارباي حسن باشا ابن القائد خير الدين بربروس جيشا بقيادة حسان قورصو والتقى الجيشان في الشلف فألحقت به القوات التركية شر هزيمة وعاد إلى المغرب ثم واصل الأتراك زحفهم على تلمسان وعزلوا أميرها أبا زيان أحمد الموالي

للاسبان و نصب حسن باشا خلفا له الحسن بن عبد الله آخر أمراء الدولة الزيانية، ولكن بسبب ميوله كغيره ممن سبقوه من أمراء الدولة الزيانية للإسبان عزل من منصبه سنة 1554 م وهكذا انقرضت الدولة الزيانية بعد ثلاثة قرون من وجودها. و من بين الحكام الذين تعاقبوا على دولة بني عبد الواد الزيانية نذكر الملوك التالية أسماؤهم :

1 - يغمراسن بن زيان : 633 هـ - 681 هـ

2 - أبو سعيد عثمان الأول : 681 هـ - 703 هـ

3 - أبو زيان محمد الأول : 703 هـ - 707 هـ

4 - أبو حمو موسى الأول : 707 هـ - 718 هـ

5 - أبو تاشفين عبد الرحمن الأول : 718 هـ - 737 هـ

6 - أبو سعيد عثمان الثاني و أخوه أبو ثابت : 749 هـ - 753 هـ

7 - أبو حمو موسى الثاني : 760 هـ - 791 هـ

8 - أبو تاشفين الثاني : 791 هـ - 795 هـ

9 - أبو ثابت يوسف. : 795 هـ - 795 هـ

10 - أبو الحجاج يوسف : 795 هـ - 796 هـ

11 - أبو زيان محمد الثاني : 796 هـ - 801 هـ

12 - أبو محمد عبد الله الأول : 801 هـ - 804 هـ

13 - أبو عبد الله محمد ابن الخولة : 804 هـ - 813 هـ

14 - عبد الرحمن بن محمد : 813 هـ - 814 هـ

15 - سعيد بن أبي حمو : 814 هـ - 814 هـ

16 - أبو مالك عبد الواحد : 814 هـ - 827 هـ

17 - أبو عبد الله محمد بن الحمراء : 827 هـ - 831 هـ

18 - أبو مالك عبد الواحد : 831 هـ - 833 هـ

19 - أبو عبد الله محمد بن الحمراء : 833 هـ - 834 هـ

20 - أبو العباس أحمد العاقل : 834 هـ - 866 هـ

21 - أبو ثابت محمد المتوكل : 866 هـ - 873 هـ

مظاهر الحضارة في دولة
بني عبد الواد الزيانية

الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية

أبقى الملك يغمراسن مؤسس دولة عبد الواد الزيانية على النظام السياسي الذي كان سائدا في عهد الموحدين، فأول ما قام به تنظيم شؤون دولته الفتية سياسيا وعسكريا فلقب نفسه بأمير المسلمين و عين الوزراء والحجاب والكتاب وأصحاب الأشغال و القضاة و قواد الجيش و أئمة المساجد ووضع السكة ونصب الولاة على مختلف مناطق المملكة في المغرب الأوسط، وبقي الحكم من بعده وراثيا إلى أن زالت الدولة الزيانية. و كان لا يشتغل بمنصب الكتابة في ديوان الملك والقضاء إلا الرجال الأكفاء أصحاب العلم الغزير في الأدب والفقه ومن جملة هؤلاء العلماء نذكر الكاتب أبو بكر بن الخطاب المرسي اشتغل في بلاط يغمراسن ويحي بن خلدون شقيق عبد الرحمن بن خلدون الذي اشتغل بالكتابة في ديوان الملك أبو حمو موسى الثاني، ومن القضاة نذكر أبو عبد الله بن هدية القرشي التلمساني وسعيد العقباني، أما حكم الولايات فكانت تمنح لأفراد الأسرة الملكية وفي بعض الأحيان لقواد الجيش يكلفون بالأمن الداخلي وحماية الحدود وتحصيل الجباية يساعدهم في مهمتهم موظفون أكفاء.

أمّا الحياة الاقتصادية فعمها الرخاء في معظم فترات الدولة الزيانية فلقد اعتنى ملوكها بالصناعات المختلفة من نسيج و ورق ومعادن ونحاس والأعمال الحرفية مثل الفخار ونحت الرخام ونقش الخشب والمجوهرات، كما اهتموا بالفلاحة وتربية المواشي وأدى هذا العمل إلى ازدهار الحياة التجارية في مملكتهم، فكانوا يتاجرون عن طريق البر والبحر مع الدول الافريقية السوداء مثل السودان والأندلس وأوروبا والمشرق العربي يصدرون ويستوردون، وكانت البضاعة تدخل إلى تلمسان بحرا عن طريق ميناء هنين الموجود بالقرب من بني صاف.

ومن القبائل المكونة للمجتمع الزياني نذكر قبيلة بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وتوتجين وبنويفرن، إضافة إلى بعض الأقليات اليهودية الموجودة منذ القدم كانوا يشتغلون بالفلاحة والصناعة والتجارة ومعظمهم متدينون بالمذهب السني المالكي والصوفي، يتمتعون بثقافة وأخلاقٍ حسنة، وكانوا يهتمون كثيرا

بالأعياد الدينية و خاصة بالمولد النبوي الذي تقام من أجله حفلات كبيرة يشارك فيها الأمراء و عامة الشعب.

الحياة الفكرية و الدينية و الفنية

أكثر ما اشتهرت به دولة عبد الواد الزيانية هو اعتناء ملوكها بالعلم والعلماء، فلقد كان التعليم منتشرا في المدن و القرى معتمدا على طرق بيداغوجية جد متقدمة، تقام الدروس في المسجد الأعظم بتلمسان والمدارس المتخصصة. ولانعاش الحركة العلمية شيد أبوحمو موسى الأول أول مدرسة بالمغرب الأوسط بتلمسان، ومن بعده أسس أبو تاشفين المدرسة التاشفينية بالقرب من المسجد الأعظم وزودوها بالكتب ولم يكتفي طلابها بالمعارف العلمية المحلية بل جابوا أقطار الدول الإسلامية في المشرق والأندلس وتتلمذوا على أشهر علماء ذلك العصر، ومما زاد تلمسان إشعاعاً علمياً احتكاك الحضارة الأندلسية بالحضارة الزيانية فانتشرت الحركة الثقافية من تأليف في شتى العلوم وازدهرت حلقات العلم والجدل والمنظارات وقول الشعر وازدادت علما بمجيئ أبوحمو موسى الثاني فكان شاعرا وكاتبا وألف كتاباً في السياسية بعنوان "واسطة السلوك في سياسة الملوك". وأنجبت تلمسان العديد من العلماء في العلوم الدينية واللسانية والاجتماعية والطبيعية بفضل رعاية ملوكها للعلماء والعلم والتوفير لهم اياهم المناخ المناسب للبحث والابداع، وادماجهم في مجالسهم العلمية، يدفعون الرواتب للأساتذة ويقدمون المنح للطلبة ومعظم هؤلاء العلماء باشروا التدريس والتأليف وتحملوا مسؤوليات هامة في الادارة والقضاء والافتاء، وممن اشتهر في العلوم الدينية في ذلك العصر نذكر أبو عبد الله التجيبي المولود عام 540 ه، وأبو عبد الله محمد بن عبد الحق المولود عام 536 ه، وأبو عبد الله بن مرزوق المولود عام 629 ه، وأبو اسحاق التلمساني المولود عام 609 ه، وأبو زكريا يحي بن عصفور التلمساني، وأبو زيد بن الامام، وأبو موسى عمران، وأبو عبد الله التميمي، وأبو عبد الله المقري، وأبو عبد الله الشريف الحسني المولود عام 710 ه، وأبو عثمان سعيد محمد العقباني المولود عام 720 ه، وأبو علي منصور الزواوي المولود عام 710 ه، ومحمد أبو الفضل المشدالي، وأحمد الونشريسي، ومحمد بن يوسف السنوسي وكثيرون لا نستطيع ذكرهم جميعا، كما ظهر إلى جانبهم علماء في الصوفية وقد تركوا مؤلفات كثيرة في الميدان الفقهي، أمّا في الأدب واللغة والشعر فنذكر أبو عبد الله بن خميس التلمساني، وأبو عبد الله بن هدية القرشي التلمساني، وأبو بكر بن خطاب المرسي، وأبو عبد الله بن البناء التلمساني، وأبو

عبد الله الثغري، ومحمد بن أبي جمعة التلالسي، ومحمد بن يوسف القيسي وفي مادة التاريخ نذكر محمد بن عبد الله التنسي وفي العلوم الطبيعية من فلسفة وجبر وفلك وطب نذكر أبو عبد الله بن النجار، وأبو عبد الله الابلي، وسعيد العقباني، ومحمد الحبال.

واعتنق المجتمع التلمساني المذهب المالكي، لكن الأفكار الصوفية كانت جد منتشرة بين أوساط الشعب خاصة بعد وفاة الولي الصوفي الصالح أبي مدين شعيب بن الحسين المتوفى عام 594 ه بتلمسان، فكان ضريحه موضع تبجيل كبير لأهل تلمسان، ويدعو هذا المذهب إلى الزهد في الدنيا والتوكل وظهر فقهاء في هذا الميدان.

كما اهتم الأمراء الزيانيون بتطوير عمران المدينة والتوسع فيه، فشيدوا المساجد والمدارس والمنازل والقصور والأبراج والحصون والأصوار العالية وزينوها بالبساتين والمنتزهات وتأثروا في ذلك بالفن المعماري الأندلسي خاصة بعد هجرة الأندلسيين من اسبانيا جراء تفاقم الخطر المسيحي واستقرارهم بتلمسان، كما اعتنى ملوكها ببناء المرافق الاجتماعية كالمستشفيات والحمامات والفنادق والطرق والمياه فكان يوجد بتلمسان حوالي ست مدارس وستون مسجدا والعديد من الزوايا، فشيد يغمراسن مئذنة الجامع الأعظم الذي بناه المرابطون ومئذنة جامع أجادير والمسجد، والمدرسة التابعة لضريح شعيب أبي مدين بن شعيب، ولازالت إلى يومنا هذه المبانيَ تشهد على عظمة هذه الدولة. كما بنى أبو السعيد عثمان بن يغمراسن مسجد أبي الحسن بن يخلف التنسي. وكان أكثرهم دلعًا بالعمران الأمير أبو تاشفين فوسع في تعمير تلمسان وأسس بها المدرسة التاشفينية وشيد القصور وأحاطها بالبساتين واعتنى بزخرفتها وبنى أكبر صهريج بتلمسان وجلب إليها الأندلسيون الموسيقى الأندلسية، كما شيد بها المرينيون مدينة المنصورة التي لازالت آثارها إلى يومنا، ومسجد سيدي الحلوي. ويقول ابن خلدون في ذكر الأمراء الزيانيين ووصف تلمسان مايلي "فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل اليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء، واشتهر بها الإعلام، وظاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية". ومن العجيب والغريب كيف توصلت الدولة الزيانية الى هذا الرخاء الاقتصادي والعلمي في جو سياسي ساده الاضطراب والحروب مع جيرانها منذ تأسيسها.

العهد العثماني
1515 م - 1830 م

مآثرة الأخوين عروج و خير الدين بربروس

لم يكن ليوجد الأتراك في الجزائر لولا غزو الإسبان لها ولم يتوصل الاسبان إلى احتلال بعض أجزائها الا باستغلال الضعف والانحطاط الذي عرفته الجزائر في أواخر عهد الدولة الزيانية، فدخل أمراؤها في صراع على العرش ولم تعد تملك هذه الدولة من النفوذ إلا تلمسان وبعض أجزاء المناطق الغربية، فعجزت عن مقاومة الغزاة وأجبرت على عقد الصلح مع الاسبان سنة 1512 م اعترفت فيه باستيلاء الإسبان على عدة موانئ في غرب الجزائر، واستقلت كل مقاطعة من تراب المغرب الأوسط بالسلطة، فبلاد القبائل الكبرى كانت تحت حكم زاوية بلقاضي ومدينة الجزائر تحت سلطة الثعالبية والقبائل الصغرى تحت نفوذ بني عباس وبجاية تابعة للحاكم الحفصي، أمّا الصحراء ومناطق الأوراس فكانت تكون جمهوريات مستقلة ونفس الحال ينطبق على مناطق تنس والشلف ومليانة وغيرها من المدن الجزائرية، مما شجع وسهل للإسبان احتلال المرسى الكبير في شهر أكتوبر 1505 م، ومدينة وهران في شهر ماي 1509 م وبجاية يوم 6 جانفي 1510 م ومستغانم عام 1511 م، والجزر الواقعة في الجزائر العاصمة، فتحصنوا بموانئها ولم يستطيعوا التوغل داخل مدنها وعاشوا يحاصرون فيها السكان الجزائريين حصارا دائما. وأمام هذا الوضع المزري لم يجد سكان الجزائر وسيلة الا الاستنجاد بالاخوة الأتراك المسلمين عروج وخير الدين واسحاق ومحمد الياس نظرا للروابط الدينية المشتركة، وكان الأخوان عروج وخير الدين بحارين ماهرين يحبان المغامرة اشتغلا بالقرصنة ضد المسيحيين واكتسبا خبرة كبيرة في هذا الميدان وخاصة عروج الذي سبق له أن تجند في صفوف البحرية التركية كعسكري وقام بالكثير من أعمال القرصنة في البحار ولظروف معينة انتقل الاخوة عروج وخير الدين واسحاق عام 1504 م الى تونس واتخذوا من حلق الواد ميناء لسفنهم، ففي عام 1510 م كان بحوزتهم ثمانية بواخر ولم يسمح لهم السلطان الحفصي بانشاء قاعدة بحرية بتونس إلا بشرط أخذ نصيب من غنائم القرصنة، ولما استقر عروج بتونس تعرف على المأساة التي لحقت بالأندلسيين الفارين من اضطهاد المسيحيين مما دفعه لانقاذ من بقي من المسلمين بالأندلس، وفعلا استطاع عروج و خير

الدين حسب المؤرخ الفرنسي دي غرامون De Grammon في كتابه "تاريخ مدينة الجزائر" انقاذ أكثر من عشرة آلاف أندلسي، فاكتسبوا خبرة وشهرة وسمعة كبيرة من هذا العمل النبيل و لهذا استنجد بهم الحاكم الحفصي لبجاية لطرد الجيش الاسباني المحتل وفعلا التحق عروج وأخوه خير الدين ببجاية عام 1512 م وكان بحوزتهم 12 باخرة مزودة بالمدفعية وحوالي ألف جندي تركي ودبروا خطة لطردهم لكن عروج لم ينجح بعد حصار بحري وبري دام أسبوعا شاركت فيه القوات الجزائرية والتركية وفقد عروج ذراعه الأيسر اثر المعركة التي دارت بينهم، لكن عروج لم يفشل ولم يستسلم فكرر هاجمه على الإسبان سنة 1514 و1515 م بريا وبحريا مستعينا بالسكان البجاويين وجنوده الأتراك وحاصرها مدة من الزمن لكن لم يستطع فتحها. وفي عام 1513م توجه الى جيجل واستطاع بمساعدة سكانها تحريرها من جنود جنوة الايطاليين وبويع أميرا عليها فاتخذها قاعدة لعملياته الحربية، ولما احتل الاسباني بيدرو نافرو Pedro Navarro برج المنار الواقع في مدخل ميناء مدينة الجزائر استنجد به سكان العاصمة عام 1516 م وعلى رأسهم حاكمها سالم التومي الثعالبي، وكان عروج في ذلك الوقت متواجد بجيجل فتوجه إلى الجزائر العاصمة رفقة جنوده الأتراك برا وطلب من أخيه خير الدين الذي كان متواجد في أسطوله البحري رفقة جنوده الالتحاق به في الجزائر العاصمة لكن عروج لم يتمكن من طرد الإسبان، ولسبب سوء معاملة الجنود الأتراك للجزائريين دبر سالم التومي رفقة بعض الأعيان مؤامرة ضد الأتراك فتفطن لها عروج وقضى عليها في المهد فقتل التومي بيده داخل حمام منزله وأعلن نفسه سلطانا على مدينة الجزائر ثم استولى الأخوان عروج وخير الدين على مدن المدية ومليانة وتنس ودلس. وفي 30 سبتمبر 1516 م أرسل الكاردينال الاسباني كسيمانس Ximenes المشهور بتعصبه الديني قوة بحرية تحمل ثلاثة آلاف عسكري بقيادة الأميرال دييغو Diégo de Vera ونزلوا بناحية باب الواد وبعد يومين حدثت زوبعة بحرية فطلب قائدها العودة وفي ذلك الحين خرج عروج رفقة جنوده مهاجما وألحقوا بالجيش الاسباني شر هزيمة، من بعدها توجه عروج سنة 1517م برا الى تلمسان ملبيا نداء سكانها ولما سمع أبو حمو بمجيئه فر منها طالبا النجدة من الحامية الاسبانية بوهران فاحتل عروج في طريقة قلعة بني راشد وترك بها فرقة عسكرية بقيادة أخيه اسحاق ثم واصل سيره نحو تلمسان فدخلها بدون مقاومة ونصب ابن أخ حمو أميرا على تلمسان، وبعد فترة قصيرة قتل أميرها أبا زيان ونصب نفسه سلطانا على تلمسان لكن القوات الاسبانية رفقة أبي حمو الثالث لم تعط له الفرصة فسيرت له في شهر جانفي 1518 م جيشا قوامه

عشـرة آلاف جنـدي بقيـادة دون مـارتن دي أرقـوت Don Martin dé Argote، فاستولت على قلعة بني راشد وقتلوا الحامية التركية بما فيها اسحاق الأخ الأصغر لعروج، وفـي شـهر مـاي توجهت إلى تلمسـان وبعد حصار دام ستة أشهر سـقطت تلمسان في يد الاسبان فلم يتمكن منهم عروج لقلة العدد والعدة وفـر رفقة جنـوده الأتـراك حـاملا معه كنـوز تلمسـان فلحق بـه الاسبان خارج تلمسـان بـالواد المـالح بنواحي عين تموشنت فدارت معركة بينـهم استشـهد خلالـها عـروج وجنـوده عـام 1518 م على سن يناهز 45 سنة.

وفي ذلك الوقت كان أخوه خير الدين متواجداً بمدينة الجزائر فأدرك أنه لا يستطيع لوحده الاحتفاظ بالجزائر ولذا ربط مصيره بمصير الامبراطوريـة العثمانية بعد أن أقنع أعيان مدينة الجزائر بخطورة الوضع الجزائري، فقدم الولاء للسلطان العثماني سليم الأول فأرسل له هذا الأخير 2000 جنـدي مـن الانكشـاريين مـزود بالعتاد العسكري و4000 متطوع وأعطاه اسم باشـا وعينـه بـاي لاربـاي أي أمـير الأمراء، وبهذه الوسيلة دخلت الجزائر رسـميا فـي حظـيرة الدولـة العثمانيـة، وقـد وصل هذا المدد في الوقت المناسب فتمكن بفضله من القضاء على الثـورات التـي كانت تدبر ضده من الداخل والهجوم البحرَي الذي شنه الإسبان بقيادة هيقـو دي منقادة Moncada Hugo de على مدينة الجزائرعام 1519م، ثم شرع خير الدين عام 1520م في القضاء على منافسه ببـلاد القبـائل بـن القـاضي فبعـث لـه خليفتـه قـارة حسن الذي تمكن من طرده من الجبال وبمسـاعدة السـلطان الحفصي لتونس الـذي جهزه بالجنود والسلاح عاد بـن القـاضي إلـى القبـائل وتمكـن هـذه المرة من التغلب على الجيـش التركي بمنطقـة فليسـات أم الليـل بـالقرب من يسـر وواصـل زحفـه إلـى مدينة الجزائر واستولى عليها سنة 1520م وبقي حاكما عليها الى غاية عام 1526 م، فتمركز خير الدين بمدينة جيجل وشرع في تنظيم جيشـه والاستيلاء على المـدن المتبقيـة مـن الجزائـر: القـل وقسـنطينة عـام 1521 م وعنابـة سـنة 1522م والحضنـة والقبائل ومتيجة عام 1525م واسـترجع مدينـة الجزائر بمسـاعدة سـلطان بنـي عباس عبد العزيز من يد سلطان قبائل كوكو بن القاضي الذي استسلم له عام 1526م. من بعدها شن خير الدين عام 1529 م هجوما عنيفا على برج الفنـار اسـتغرق خمسـة عشر يوماً وبعد معركة شرسة استعملت فيها الأسـلحة الخفيفة والمدفعية اسـترجع الجزر الموالية لميناء الجزائر يوم 21 ماي واستسلم له ما تبقى من الحامية الإسبانية بقيادة مارتان فرغاز فطرد الإسبان إلى غير رجعة لكن الاسبان لـم يفشـلوا وكـرروا هجوماتهم على الجزائر، ففي شهر جويلية 1531 م هاجمت القوات الاسبانية المقدرة

بعشرين باخرة تحمل 1500 جندي بقيادة الايطالي الاميرال أندري دوريا André Doria على مدينة شرشال وتمكنت من اطلاق سراح الأسرى المسيحيين الذين كانوا يعملون بالميناء ولكن المدفعية الجزائرية تصدت لهم وأرغمتهم على الرجوع. ولما بسط خير الدين نفوذه على الجزائر توجه سنة 1534 م إلى تونس بطلب ومساندة الباب العالي للقضاء على سلطانها الحفصي المستبد الحسن واستولى على حلق الواد ومدينة تونس وبنزرت ونصب بها ثكنات عسكرية وعزل الحسن لكن هذا الأخير استنجد بالامبراطور الاسباني شرلكان Charles Quint الذي سير له سنة 1535 م أسطولاً بحرياً كبيراً يحمل 27000 عسكري يقوده بنفسه فاستولى على قرطاج و حلق الواد ومدينة تونس، وأعاد الحسن إلى منصبه وبالمقابل فرض عليه معاهدة تقضي بترك حامية اسبانية محصنة بحلق الواد واستفادة الاسبان من امتيازات صيد المرجان بالسواحل التونسية وفتح الموانئ أمام السفن الاسبانية، فسببت هذه المعاهدة للحاكم التونسي الحسن سقوط هيبته أمام الشعب. وعندما لم يتمكن خير الدين من شرلكان عاد إلى عنابة ومنها قام بغارات بحرية على السواحل الاسبانية أسر خلالها 6000 اسباني و تحصل على مغانم كبيرة، من بعدها استدعاه السلطان العثماني سليم الأول عام 1535 م إلى القسطنطينية وعينه قائدا عاما للأسطول البحري التركي وبقي في هذا المنصب حتى وافته المنية عام 1546 م على سن يناهز الثمانين.

حكم الباي لارباي
1541 - 1586 م

عندما غادر خير الدين الجزائر خلفه في منصبه ابنه بالتبني حسن آغا. وهو من مواليد سردينيا تربى منذ صغاره في أحضان أسرة خير الدين عرف بالعدل والاحسان وكان شخصا محترما، وفي عهده شن الامبراطور الاسباني شرلكان Charles Quint سنة 1541م رفقة أكبر القادة الاسبانيين الذين شاركوا في احتلال المكسيك أمثال أندري دوريا Doria André وهرناندو دي كورتيز Cortez Hernando de بقوة عسكرية مسيحية ضخمة متكونة من الألمان و الإيطاليين والمالطيين و الفرنسيين و الاسبان مقدرة ب 12330 بحارا و451 سفينة ونزلوا يوم الأحد 23 أكتوبر على ضفة من واد الحراش مساءً ثم توغلوا داخل مدينة الجزائر، وكان حسن آغا على علم بالحملة المدبرة ولذا استعد لهم فحصن المدينة بالمدفعية وشجع سكانها على الجهاد، وعندما وصل الإسبان إلى منطقة الحامة استغل الجزائريون ظلام الليل فقاموا بمهاجمتهم و ألحقوا بهم بعض الخسائر لكن الإسبان واصلوا زحفهم و لما اقتربوا من باب عزون قنبلتهم البنادق والمدفعية الجزائرية، وفي اليوم الثالث نزل المطر ونشبت عاصفة قوية في البحر لم يعرفها الجزائريون من قبل فخربت سفنهم وأحبطت معنوياتهم وأمام هذه الخسائر في العتاد والأرواح أمر شرلكان في اليوم الرابع قواته بالانسحاب ومغادرة الجزائر، وكانت نتيجة هذه المعركة مقتل حوالي 10000 اسباني و تدمير 150 باخرة. من بعدها سار حسن آغا سنة 1542 م إلى بلاد القبائل لتأديب سلطان كوكو أحمد بن القاضي ثم توجه إلى تلمسان ودخلها بدون مقاومة، وبعد وفاة حسن آغا خلفه حسن باشا بن خير الدين باي لارباي الجزائر سنة 1544 م فقام بتنظيم الجيش وقضى على الثورات الداخلية و أمام الهجمات المتكررة من طرف القائد الاسباني بوهران على مدينة تلمسان اتفق حسان باشا مع السلطان المغربي الشريف محمد المهدي على حماية تلمسان وإخراج الاسبان من وهران لكن محمد الحران ابن سلطان المغرب خان الاتفاق المبرم و استولى على تلمسان لفائدة والده، وعندما سمع حسان باشا بهذا النبأ أرسل القائد قورصو فهاجم تلمسان وأخرج قوات محمد الحران ثم حصنها وترك بها حامية تركية وعاد إلى مدينة الجزائر فاعتنى بتحسينها وتجميلها وشيد بها حمامات ومستشفى لجنوده، وبطلب من السلطان العثماني غادر الجزائر متوجها إلى القسطنطينية. فخلفه صالح رايس عام 1552 م و

في عهده عرف الجنوب الجزائري تمرداً على حكم الأتراك فسير اليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف جندي فقمع ثورة الجنوب و استولى على مدن تقرت و ورقلة وشيد بهما ثكنات عسكرية ثم عاد إلى الجزائر محملا بالغنائم، من بعدها سمع صالح رايس بالمؤامرة التي دبرها أبو حسون علي بن محمد الملك المعزول لاسترجاع الملك الضائع للدولة المرينية بالمغرب فلقد توجه هذا الأخير في المرة الأولى إلى الاسبان طالبا المعونة الحربية لكنها رفضت ثم توجه إلى البرتغال فقبل ملكها وأمده ببعض البواخر والأسلحة والجنود للاستيلاء على المغرب والتقى به صالح رايس عام 1553 م بجبل طارق فاستولى على سفنه و اعتقله ثم عرض عليه أبو حسون مساعدته في الاستيلاء على المغرب فقبل صالح رايس وسير جيشه نحوها ولما دخلها اصطدم بجيش سلطان المغرب الشريف فهزمه، واستولى على مدينة فاس ونصب أبو حسون الوطاس سلطاناً عليها، لكن بمجرد خروج صالح رايس منها دخلت قوات الشريف المعركة ضد أبو حسون وقتلته، من بعدها طرد صالح رايس الاسبان من بجاية نهائيا ودخلها يوم 28 سبتمبر 1555 م بعد حرب عنيفة دامت يوماً ونصف استعملت فيها القوات البرية والبحرية وألحقت بالجيش الاسباني المتحصن بها خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، وفي نفس السنة أرسل له السلطان العثماني سليمان 40 سفينة حربية و 6000 جندي وأمره باسترجاع مدينة وهران ومرسى الكبير فأضاف صالح رايس إلى هذا المدد 30 سفينة جزائرية و 4000 يولداش بالإضافة إلى الجزائريين المتطوعين، وعندما كان يشرع للحملة توفي صالح رايس بالطاعون عام 1556 م وكان عمره سبعين سنة. فوصل خليفته حسان قورصو الحصار وقنبلة الإسبان بمدينة وهران بريا و بحريا لمدة أربعة أيام، وعندما كان على وشك طرد الإسبان منها جاءه أمر من الباب العالي برفع الحصار وبعث السفن الجزائرية إلى تركيا لتدعيم الأسطول العثماني ضد الأسطول الاسباني الذي كان يهدد البوسفور، وعند عودته من وهران تفاجأ بتنصيب جلبي كرداو مكانه فثار حسان قورصو عليه ولم يسمح له بالدخول إلى مدينة الجزائر لكن طائفة الرياس البحرية أدخلته ليلا وألقت القبض على قورصو و أعدمته، من بعده دخل الأتراك في صراع على الحكم، فاستغل ملك المغرب الشريف السعدي هذه الفوضى واستولى على تلمسان وضمها إلى مملكته، وأمام هذا الوضع المزري عين الباب العالي سنة 1557 م من جديد حسان بن خير الدين باي لارباي على الجزائر وأول شيئ قام به استرداد تلمسان من الملك المغربي ثم تصدى بعدها للهجوم الذي قام به الإسباني كوديت حاكم وهران ضد مستغانم سنة 1558 م فحطم الجيش البحري الجزائري البواخر الإسبانية بخليج أرزيو، ولما اقترب الإسبان من

مدينة مستغانم تصدى لها سكانها ثم لحقت بهم قوات حسان باشا وشتت شملهم وقتل أثناء هذه المعركة حاكم وهران الكونت كوديت أحسن قواد الجيش الاسباني وأسر ابنه الدون مارتان ثم بادرت من جديد القوات المسيحية بقيادة اسبانيا للهجوم على مدينة الجزائر سنة 1560 م و لكن كغيرها انتهت بالفشل والهزيمة الشنعاء ثم فكر حسان باشا في شن هجوم على الحامية الاسبانية بوهران لكن الجنود الأتراك تمردوا عليه، ودبروا ضده مؤامرة عام 1561 م فألقوا القبض عليه وألقوا به في الباخرة اتجاه القسطنطينية، وأوحوا للسطان العثماني أنه يدبر خطة للاستقلال بالجزائر من الباب العالي. فنصب السلطان العثماني أحمد باشا باي لارباي على الجزائر لكن حكمه لم يدم طويلا، إذ توفي ثلاثة أشهر بعد مقدمه، فعين من جديد حسن باشا بن خير الدين حاكما على الجزائر لسمعته الطيبة بين الناس وكفائته وكانت رغبته الكبرى طرد الاسبان من وهران لكن الظروف لم تسمح له بذلك استدعاه السلطان العثماني سليم الثاني إلى تركيا للمشاركة في الحملة العثمانية ضد مالطة، لكن الحصار الذي فرضه الأتراك سنة 1565 م على هذه الجزيرة لم ينجح، لسبب وصول الإمدادات المسيحية. من بعدها دخل حسن باشا إلى مدينة الجزائر وحاول في هذه الفترة وللمرة الثانية إدخال العنصر الجزائري والكرغلي في الجيش النظامي الجزائري، لكن فرقة اليولداش رفضت خوفا على امتيازاتها وهذا رغم أن الجزائريين شاركوا في معظم الحملات الجهادية للدفاع عن بلادهم وخارجها ثم غادر حسن بن خير الدين الجزائر إلى القسطنطينية حيث عينه الباب العالي قائدا عاما للأسطول البحري العثماني و هي أعلى المراتب العسكرية في الامبراطورية العثمانية، فتولى السلطة من بعده محمد بن صالح رايس، وعندما قدم إلى الجزائر وجد مرض الطاعون منتشرا في الجزائر، وفي عهده عرفت الجزائر سنة 1567 م هجوما أخر للاسبان على الجزائر فقام أحد القراصنة جوان قاسكون Juan Gaskoun بتأييد ومساعدة ملك اسبانيا بمحاولة الاستيلاء على الجزائر فدخل إلى مينائها ليلا، وحاول إشعال النار في سفنها، لكن البحرية تفطنت له وتعقبته، وألقت القبض عليه ثم قتلته، من بعدها توجه محمد بن صالح إلى قسنطينة لإخماد التمرد الذي قام به سكانها ضد الأتراك بايعاز من باي تونس، فقتلوا الجنود الأتراك مما أغضب محمد بن الصالح فأخمد الثورة، وارتكب جنوده أعمال وحشية ضد القسنطينيين، مما زاد في غضب سكانها ولهذا عزله الباب العالي، ونصب خلفا له قلج علي باي لارباي عام 1568 م، وهو من القادة العسكريين الكبار في الجيش التركي شارك في معظم الحروب ضد المسيحيين وفي عهده ثار بقايا المسلمين بالأندلس ضد الحكم الاسباني فأنزل لهم جنوداً وامدادات بشاطئ المرية لغرض

مساعدتهم، ثم جاءه أمر من السلطان العثماني سليم الثاني لمساعدته في رد العدوان المسيحي الكبير الذي كانت الدول الأوروبية تستعد لتنظيمه، وقد لعب دورا كبيرا في هذه المعركة. من بعدها عاد إلى الجزائر وفي سنة 1569 م استنجد به التونسيون ضد سلطانهم الجائر حميدة الذي خلع الحسن واعتلى العرش مكانه، وكانت في ذلك الوقت الحامية الاسبانية لازالت متمركزة في حلق الواد فسير إليه قلج علي جيشه، ولما التقى الجيشان في باجة انضم جيش السلطان حميدة إلى الأتراك ففر سلطانهم إلى الحامية الاسبانية بحلق الواد، ودخل قلج علي إلى تونس وترك بها حامية تركية متكونة من ثلاثة آلاف جندي تحت قيادة القائد رمضان ثم عاد إلى الجزائر وعينه من بعدها السلطان العثماني سليم الثاني قائدا عاما للأسطول العثماني مع احتفاظه بلقب باي لارباي إفريقيا. وفي عام 1571 م اندلعت معركة بحرية بين الامبراطورية العثمانية والدول المسيحية في ليبانت Lépante بسواحل اليونان شارك فيها الأسطول الجزائري، وألحقت الهزيمة بالأسطول العثماني، ولم ينج منه سوى السفن التي كانت تحت قيادة قلج علي وعند رحيل هذا الأخير خلفه في منصبه في الجزائر عرب أحمد، وفي هذه المرحلة من تاريخ الجزائر بدأت مطامح فرنسا تتجلى في الاستيلاء على الجزائر فرغبة من فرنسا التي كانت تطمح في توسيع تجاراتها طلب ملكها شارل التاسع عام 1572 م عن طريق سفيره في تركيا فرانسوا دي نواي من الباب العالي الذي كانت تربطه به صداقه و معاهدة أن تُوضَعَ الجزائر تحت حماية فرنسا وبرر ذلك برد الاعتداءات الاسبانية المتكررة على السواحل الجزائرية، لكن الأتراك رفضوا هذا الاقتراح من الأصل. ولسبب احتلال القائد الدوق جوان النمساوي والملك الاسباني فيليب الثاني عام 1573م لتونس شنت الامبراطورية العثمانية المتكونة من الجيش التركي والجزائري و الليبي حملة عسكرية واسعة النطاق ضد الاحتلال الاسباني لتونس فخلصوا تونس عام 1574 م من الاسبان و قضوا إلى غير رجعة على الحامية الاسبانية المتمركزة بحلق الواد، وبعد عزل الباي لار باي عرب أحمد عينت القسطنطينية القائد رمضان حاكما على الجزائر، وفي عهده عرفت المملكة المغربية صراعاً على السلطة فبعث مولاي عبد الملك إلى قلج علي القائد العام للأسطول البحري العثماني طالبا منه مساعدته في تنحية شقيقه السلطان مولاي أبي عبد الله محمد المتوكل مقابل مساعدة الأتراك في طرد الاسبان من وهران، وبالفعل وصل الجيش الجزائري إلى فاس عام 1575 م، ودخلها بدون مقاومة لأن جيش الملك انضم إلى الأتراك لكن رغبة الملك الجديد مولاي عبد الملك في مساعدة الأتراك لم تتحقق لأنه قتل من بعد فترة قليلة من توليه الحكم، وفي عام 1578 م عين حسن فنزيانو حاكما على الجزائر وكان شخصا

صارما، فقام كغيره من الحكام الذين سبقوه في تحصين مدينة الجزائر و فرض ضرائب ثقيلة على سكانها فرفضوا الدفع لأنَ الجزائر عرفت في تلك الفترة مجاعة، من بعدها طلب منه قلج علي القائد العام للأسطول البحري العثماني الالتحاق به ونصب مكانه جعفر باشا وبعد فترة من، حكمه للجزائر استدعاه قلج علي وعين للمرة الثانية القائد رمضان واليا على الجزائر و في ذلك الوقت كانت البحرية الجزائرية تقوم بغارات على السواحل الفرنسية تستولي من خلالها على الغنائم والأسرى مما أغضب ملك فرنسا و كانت المغانم البحرية من أهم موارد الدولة الجزائرية، في تلك الفترة لم يعرف حكم القائد رمضان انجازات كبيرة فتمرد عليه الجنود الأتراك ولم ينج الا بهروبه إلى طرابلس، فحل محله و للمرة الثانية حسن فنز يانو حاكما على الجزائر وبقي الى غاية عام 1588 م، ثم عين من بعدها قائدا عاما للأسطول البحري العثماني خلفا لقلج علي الذي توفي عام 1587 م. بعدها تخلى الباب العالي عن أسلوب الباي لار باي الحافل بالانتصارات و عرفت الجزائر عهد الباشوات.

حكم الباشوات الثلاثين

1586 م - 1659 م

من الأسباب التي أدت الباب العالي لاتباع هذا الأسلوب في الحكم هو خوفه من استقلال الجزائر عن السلطة العثمانية، خاصة إذا علمنا أن نفوذ الإمبراطورية العثمانية كان يمتد إلى دول المشرق العربي بما فيها المملكة العربية السعودية والعراق، إضافة إلى مصر والدول الواقعة في أوروبا الشرقية مثل اليونان وقبرص والصرب والبوسنة والهرسك وألبانيا وبلغاريا والمجر، هذا بالإضافة إلى أنَ حكم الباي لارباي كان يشمل الجزائر وتونس وليبيا، ماعدا المغرب الذي كان مستقلا، ولهذا قرر الباب العالي بتركيا أن ينصِّب على كل مقاطعة من هذه المقاطعات باشا يعين لمدة ثلاث سنوات. و أول باشا عين على الجزائر هو دالي أحمد سنة 1586م، وفي عهده كثرت الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية اسبانيا صقلية كورسيكا ونابولي وقتل أثناء المعركة الذي خاضها جيشه ضد المتمردين الليبيين. فخلفه خضر باشا الذي قمع ثورة المقراني لسبب هجومه على الثكنات العسكرية التركية بزمورة وبرج بوعريرج، وعلى إثر وشاية فرقة اليولداش، بنهبه لأموال الخزينة استدعي من طرف الباب العالي ووضع في السجن، وحل مكانه عام 1592 م شعبان باشا، لكن بعد أربعة أشهر من الحكم أستدعي إلى القسطنطينية، فخلفه مصطفى باشا ثم أستدعي خضر باشا من جديد بعد أن ثبتت براءته لم ينسى ما فعلته فرقة اليولداش ضده، ولازالة شرهم سلح الجزائريين الذين ثاروا على اليولداش وهم جنود أتراك برية كان سكان الجزائر يكرهونهم لتصرفهم الغليض، ولهذا السبب عزلت القسطنطينية خضر باشا، ونصبت مكانه من جديد مصطفى باشا، لكن هذا الأخير لم يتمكن من القضاء على ثورة بني عباس بالقبائل فعزلته، وعينت دالي حسن أبوريشة باشا على الجزائر فلم يدم حكمه طويلا، لأن فرنسا طلبت الباب العالي بعزله بحجة أنه خرق الاتفاقية التي تربط فرنسا بالباب العالي، فحل مكانه سليمان باشا وفي عهده شنت أوروبا عام 1601 م حملة صليبية كبيرة ضد الجزائر بقيادة الإسباني جان دوريا Doria ، ومباركة البابا متكونة من سبعين سفينة حربية وعشرة آلاف جندي من فرنسيين وايطاليين واسبانيين متبعة في ذلك خطة الكابتان الفرنسي روكس، وعندما اقتربت القوات المسيحية من الساحل الجزائري هبت ريح بحرية عنيفة أفسدت خطتهم و عادوا من حيث أنطلقوا. و في عام 1603 م عاد الخضر باشا للمرة الثالثة حاكما على الجزائر و في عهده قامت

طائفة الرياس البحرية الجزائرية بغزو السواحل الفرنسية وأسر بعض مواطنها وتهديم المركز التجاري الفرنسي بالجزائر، فاحتج ملك فرنسا لدى الباب العالي فأرسلت قوصة باشا مكانه والذي قتل الخضر باشا، وعندما حاول قوصة تطبيق تعليمات السلطان العثماني بإطلاق الأسرى الفرنسيين وإعادة بناء المركز التجاري الفرنسي عارض الديوان الجزائري هذا الحل وقتل بسببها قوصة باشا، فخلفه مصطفي القابجي الذي مات بالطاعون عام 1607 م، فحل مكانه رضوان باشا، من بعده جاء حسين الشيخ باشا ثم عين سليمان باشا حاكما على الجزائر، وفي هذه الفترة قام أحد الفرنسيين كان متواجداً بالجزائر بسرقة مدفعين وأعطاهم لفرنسا، فاحتج باشا الجزائر على هذا العمل ودخلت البحرية الجزائرية في مشادات مع القوات الفرنسية ولم تنته هذه القضية إلا بارجاع المدفعيتين وتسليم الأسرى الجزائريين، وفي هذا الصدد أبرمت عام 1628 م معاهدة بين الجزائر وفرنسا نصت على عدم اعتداء البحرية الجزائرية على السفن الفرنسية وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين وتنصيب فرنسا لقنصل يقيم بصفة دائمة بالجزائر يتمتع بالحصانة الدبلوماسية. لكن بعد مدة من الزمن نقضت الجزائر هذه الاتفاقية لسبب اعتداء الفرنسيين على البواخر الجزائرية والاستيلاء على أفرادها فقدمت السلطات الجزائرية احتجاجاً لدى الملك الفرنسي لكن بدون جدوى مما أجبر القوات البحرية الجزائرية على شن هجومات على السواحل الفرنسية عادت عليها بالخير الكثير.

حكم الآغوات

1659 م- 1671 م

لسبب تعفن نظام الباشوات وسخط السكان عليه لجأت القسطنطينية إلى تبديله بحكم الآغوات، فاستغل اليولداش، وهي القوة البرية التركية هذه المناسبة لتقلد مناصب الحكم ولم تستطع فرقة الرياس البحرية التصدي لمخططهم لأنها كانت في موقف الضعف بسبب هلاك أغلب أسطولهم في معركة البندقية، فقرر اليولداش إعطاء السلطة التنفيذية لأحد أعضائهم ولقبوه بالآغا على شرط أن لا تتجاوز مدة حكمه ثلاثة أشهر. أمّا السلطة التشريعية فيتولاها الديوان، وثبت هذا النظام فشله منذ الوهلة الأولى وكان أسوأ من سابقه لأنّ كلّ الآغوات انتهى حكمهم بالقتل حتى أصبحوا يخافون القعود على كرسي الحكم، وأول آغا عين لهذا المنصب هو خليل آغا لكن بمجرد انتهاء عهدته رفض التخلي عن منصبه فثاروا عليه اليولداش وقتلوه. ثم حل مكانه رمضان آغا، ومن بعده شعبان آغا، وفي تلك الفترة برز الصراع بين فرنسا وانكلترا حول السيطرة على افريقيا الشمالية فكثرت الغارات البحرية الفرنسية ضد الجزائر ففي عام 1663م شنت فرنسا حملة عسكرية بقيادة الدوق دوبوفور للاستيلاء على مدينة الجزائر ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل فنظمت حملة أخرى انطلقت من ميناء تولون Toulon يوم 23 جويلية 1664م تحتوي على 83 سفينة و8000 عسكري بقيادة كولبير Colbert و الدوق بوفور Duc Beaufourt ونزلت بجيجل لكن سكانها والأتراك أجبروهم على الرحيل بعد معركة دموية خسرت فيها فرنسا العديد من بواخرها وجنودها، فكرر ملك فرنسا لويس الرابع عشر عام 1665 م هجوما آخر فاشلاً على كلّ من مدن شرشال والقل وجيجل، ولم يَعُدْ السلم بين الدولتين الا بابرام اتفاقية جديدة مع فرنسا، فغضبت منافستها انكلترا من هذا الصلح و شرعت عام 1669 م في الهجوم على الجزائر لكن المدفعية الجزائرية أجبرتها على العودة. و في عام 1671 م وضع حد لنظام الاغوية بعد أن تداول عليه أربع أغوات لمدة اثني عشرة سنة، فعوض بنظام الدايات.

حكـــــم الـــــدايـــات

1671 م - 1830 م

وعلى خلاف نظام الآغوات فحكم الدايات ينتخب فيه الداي مدى الحياة وهم من طائفة رياس البحر يتمتعون بسلطة مطلقة، وعلى خلاف الأنظمة السابقة سلك الدايات سياسة مستقلة فيما يخص الجزائر، فهم الذين يعينون الوزراء الذين تتشكل منهم الحكومة، ويبرمون الاتفاقيات الدولية ويعلنون الحرب ويعقدون معاهدات السلام. وأول داي حكم الجزائر هو الحاج محمد باشا، وتميزت هذه المرحلة كما ذكرنا باستقلال الجزائر عن الامبراطورية العثمانية بحيث أصبحت لها حدود واضحة وجيش منظم وعاصمة معترف بها دوليا، وفي هذه الفترة تغير الصراع من اسبانيا إلى فرنسا، ففي عهد الداي بابا حسن وبالضبط يوم 12 جويلية 1682 م نظم الأميرال الفرنسي دوكين حملة عسكرية قوامها ثلاثون سفينة حربية لمهاجمة شرشال ومدينة الجزائر لكن هذه المحاولة باءت كغيرها بالفشل، بعدها بعامين أي عام 1684 م أبرمت الجزائر معاهدة سلم مع فرنسا لمدة مائة سنة لكنها نقضت عام 1776 م بسبب نشوب معركة بين السفن الفرنسية والجزائرية، وقامت فرنسا بقنبلة الجزائر، في النهاية تم الصلح بين الطرفين لكن عندما سمع الجيش التركي بمحتوى الاتفاق، وأنه تم بدون مشوراتهم ثاروا ضد الداي حسن ميزو مورتوداي ولم ينج من قتلهم إلا بفراره إلى القسطنطينية. فخلفه في منصبه الداي الحاج شعبان، ثم جاء من بعده الداي الحاج مصطفى، وفي عهده نشبت حرب بين الجزائر والمغرب انتصر فيها الداي الحاج مصطفى على ملك المغرب مولاي اسماعيل، ثم عين الداي من بعدها مصطفى بوشلاغم بايا على الغرب الجزائري، فاتخذ من مزونة مقرا له ثم غيره من بعد إلى مدينة معسكر. ولعب هذا القائد دوراً كبيراً في طرد الإسبان يوم 6 أفريل 1708 م من وهران والمرسى الكبير، وتمت هذه العملية في عهد الداي محمد بقطاش. من بعدها أصبحت النوايا الاستقلالية التي كانت تتخوف منها الامبراطورية العثمانية تتحقق فعليا، وأول من أعلن هذا الانفصال هو الداي علي شاوش وفي عهده وقع في شهر فيفري من عام 1716 م زلزال عنيف بالجزائر العاصمة أدى إلى مقتل المواطنين وتهديم العديد من المنازل، بعدها بعامين توفي الداي علي شاوش اثر مرض عانى منه، فخلفه الداي محمد بن الحسن الذي قتل إثر مؤامرة دبرت له من طرف طائفة الرياس عام 1724 م. ولم يتأثر الإسبان بالهزيمة التي لحقتهم أثناء طردهم من وهران فاستولوا من جديد

في عهد الملك فيليب الخامس عام 1732 م على وهران والمرسى الكبير ورغم شجاعة باي الغرب بوشلاغم و جنوده لم يستطيعوا صد هذا الهجوم لكثرة القوات الاسبانية المتكونة من ست عشرة باخرة حربية و ثمانية و عشرون ألف عسكري، على أثر هذا الانهزام الذي لم يتحمله الداي كرد عبدي وافته المنية عام 1733 م وكان يبلغ 88 سنة. فخلفه محمد بكير، وعرفت الجزائر في عهده الهدوء والاستقرار وعلاقة سلم مع الدول الأوروبية لحسن تصرفه في شؤون الحكم. من بعده تولى الحكم علي ملمولي ومحمد عثمان باشا، ودام حكم هذا الأخير خمسا وعشرين سنة خاضت الجزائر في فترته عام 1770 م حَرباً ضد الدنمارك التي قنبلت الميناء الجزائري لكن الجيش البحري الجزائري كان أقوى منها بكثير فتغلب عليها وأجبرها على التفاوض. ولم تنته الهجمات الإسبانية ضد الجزائر ففي عام 1770 م شنت القوات الاسبانية حملة عسكرية بأمر من الملك شارل الثالث و بقيادة دون بيدرو Don Pédro، ولم تكد تنزل القوات الإسبانية على أرض الجزائر حتى تصدت لها قوات صالح باي قسنطينة وألحقت بهم شر الهزيمة. من بعدها حاول الملك شارل الثالث مصالحة الجزائريين لكن الداي محمد عثمان باشا رفض لعدم ثقته في الإسبان، فكرر الإسبان هجماتهم عام 1784 م على الجزائر بقيادة دون أنتونيوDon Antonio لكن كالعادة القوات البحرية الجزائرية أجبرتهم على الانسحاب، وبعد ذلك قبلت الجزائر الصلح مع الاسبان على شرط جلاء الحامية الاسبانية من وهران ومرسى الكبير، فقبل الإسبان هذا الشرط ولم يطبق فعليا إلا في عهد الداي حسن أي في سنة 1792 م، وهكذا رحل الإسبان من الجزائر الى غير رجعة. وفي هذه السنة قتل أحد أكبر وأشهر رجال الحكم من الأتراك في الجزائر وهو صالح باي قسنطينة بأمر من الداي حسين لا لسبب الا لخوفه من نفوذه والسمعة الحسنة لصالح باي في أوساط الجماهير الشعبية القسنطينية، فقد استطاع هذا الشخص أن يتغلغل في أوساط الشعب ببساطته وجده وعدله فأحبه الشعب وحزن عليه القسنطينيون يوم موته، ومن ذلك اليوم حسب ما تقوله الأسطورة ارتدت نساء قسنطينة الحجاب الأسود ولازال الى يومنا يتغنون به وكان عهده (1771 م- 1792 م) حافلا بالانجازات العسكرية و الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية، فلقد استطاع بشجاعته وقوة شخصيته أن يقضي على الثورات الداخلية ويحمي الحدود الشرقية ويتصدى للهجمات الأجنبية على الجزائر ويحرك النشاط الاقتصادي والتجاري ويرفع المستوى التعليمي. ومن أكبر انجازاته بقسنطينة تشييد حي سيدي الكتاني والجامع والمدرسة الموجودة به وترميم جسر قسنطينة وبناء مسجد بعنابة يحمل اسمه، لكن أواخر حكمه عرف بالشدة

والصرامة مما جلب له أعداء كثيرين من الأتراك ومن سكان الريف ورجال الدين واليهود فكانوا سببا في مقتله. وفي عام 1801 م دخلت الامبراطورية العثمانية في حرب ضد فرنسا لسبب احتلالها لمصر وشاركت القوات الجزائرية فيها رغم روابط الصداقة المتينة التي كانت تربط الجزائر بفرنسا، لكن سرعان ماعادت إلى طبيعتها وذلك بسبب ميول الداي إلى فرنسا على حساب الدول الأوروبية الأخرى وخاصة منافستها بريطانيا. وفي هذه الفترة تجلت في الجزائر نفوذ شخصين يهوديين وهما بوشناق وبوخريص كان يقومان وحديهما بدور البنوك في الجزائر، ويحتكران الأسواق التجارية الجزائرية وخاصة في ميدان تصدير الحبوب فامتد نفوذهما حتى في بلاط الحكم، فأصبحت لهما قوة تأثير في القرارات السياسية والاقتصادية وكان سببا مباشرا في احتلال فرنسا للجزائر عام 1830 م، ولسبب نفوذهم الكبير وسوء تصرفهما قام أحد الجنود الأتراك عام 1805 م بقتل اليهودي بوشناق وهو خارج من قصر الداي بالجنينة، أما صديقه بوخريص فقتل بأمر من الديوان عام 1811 م، وهكذا استراح الجزائريون من مؤامراتهم. من بعدها دخلت الجزائر في مرحلة عنف واضطرابات لسبب ميول الداي لفرنسا فقد تحصلت هذه الأخيرة على امتيازات كبيرة في الجزائر خاصة في ميدان استغلال المرجان بالقالة، مما دفع بعض السكان في التشكيك بسيادته الجزائرية، فأدى هذا التصرف السياسي إلى اندلاع ثورة عامة بالشرق الجزائري قادها ابن الأحرش بتحريض من انكلترا ضد الحكم التركي، فاستولى على مدن جيجل والقل وألقى القبض على الفرنسيين في القالة وهزم قوات عثمان باي بقسنطينة لكن لسوء تنظيمها لم تتمكن من بلوغ هدفها، فقضت عليها القوات التركية، وقريبا من هذه الفترة اندلعت ثورة أخرى كبيرة سنة 1805 م بالغرب الجزائري قادها محمد بن عبد القادر بن الشريف الدرقاوي لسبب ارهاق الفلاحين بالضرائب تمكن أنصاره من حصار مدينة وهران لمدة ثمانية أشهر زعزعت خلالها النظام التركي ولكن كسابقتها لم تنجح في بلوغ هدفها. و في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر أصبحت النوايا الاستعمارية الأوروبية تتجلى في الأفق فلقد اختلّ ميزان القوى لصالح أوروبا فبينما كانت هذه الأخيرة تخطط لعالم جديد يسوده العلم و التقدم كانت الامبراطورية العثمانية نائمة في سباتها. ففي مؤتمر فيينا الذي انعقد عام 1815 م بطلب من الانجليز تحالف الأوروبيون ضد الجزائر بوضع حد نهائي لأعمال قرصنة البحرية الجزائرية في البحر الأبيض المتوسط واسترقاق المسيحيين و كلفت بريطانيا بتطبيق مقررات المؤتمر، فتوجه الانجليزي اللورد ايكسموث عام 1816 م على متن أسطول بحري إلى الجزائر ولمّا اقترب من سواحلها وضع الداي القنصل

البريطاني في السجن، لكن البحرية الجزائرية انخدعت بالراية البيضاء التي كانت تحملها السفن الحربية البريطانية فتركتها تدخل للميناء الجزائري فقنبلت بالمدفعية الأسطول البحري الجزائري وألحقت به أضراراً جسيمة مما أجبر الداي عمر باشا على قبول شروط مؤتمر فيينا. وفي عهد الداي علي خوجة تحول مقر الحكومة من الجنينة إلى القصبة، واعتمد هذا الداي في حكمه على الكراغلة وهم من أب تركي وأم جزائرية بالإضافة إلى الجزائريين للقضاء على فرقة اليولداش الطاغية والفاسدة، فتمكن منهم وقتل العديد من أعضائها والباقين رحلوا إلى تركيا. ولما توفي الداي علي خوجة بالطاعون عام 1818 م أنتخب الداي حسين حاكما على الجزائر فوجد أمامه وضعية مزرية بسبب الثورات الداخلية، وفي عهده عقد الأوروبيون للمرة الثانية يوم 30 سبتمبر 1818 م مؤتمر ايكس لا شابيل قرروا فيه مطالبة كل من الجزائر وتونس وليبيا بوضع حد للقرصنة واعتبروا أي مساس بالبواخر التجارية لأحد من هذه الدولة المتحالفة سيؤدي إلى رد فعل سريع، بعدها دخلت الجزائر في مرحلة ضعف وانحطاط وخاصة بعد تحطيم أسطولها في معركة نافارين المشهورة بسواحل اليونان، يوم 20 أكتوبر 1827 م ففقدت هي والامبراطورية العثمانية قوتها وهيبتها، فتكالبت عليها الدول الأوروبية وكانت نهاية الوجود التركي في الجزائر على يد فرنسا عام 1830 م في عهد الداي حسين بعد ثلاثة قرون من وجودها.

الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية

مر حكم الأتراك في الجزائر على أربعة أنواع من الأنظمة بدأت بحكم الباي لارباي ثم الباشوات من بعد الآغوات وانتهت بنظام الدايات، وكلّ نظام من هذه الأنظمة عرف ميزة خاصة به. ففي عهد الدايات وضع الأتراك ديوانين: ديوان خاص وديوان عام، فالديوان الخاص هو المجلس التنفيذي للدولة يترأسه الداي الذي ينتخب من قبل الأتراك لمدى الحياة، ويتمتع بحكم مطلق و يساعده في مهامه خمس موظفين سامين من الأتراك بمثابة وزراء، وهم على التوالي الخزناجي وهو نائب الداي مكلف بالخزينة العمومية، وآغا الصبايحية وهو القائد العام للجيش، ووكيل الخرج و هو المسؤول عن الوراشات التي تبنى فيها السفن و تموين الأسطول بالأسلحة و صيانة الموانئ البحرية والحربية وتحصينها فهو بمثابة وزير البحرية، وخوجة الخيل مكلف بالجباية والمرافق العامة التابعة للدولة، وبيت المالجي الذي يسهر على تسيير بيت المال والعقود والمواريث. من بعدهم تأتي مرتبة الكتاب وهم أربعة يرأسهم الباشكاتب، يتولون مهام إدارية متنوعة من بينها تحرير الرسائل، وكذلك شيخ الإسلام مكلف بالعدل والشؤون الدينية ووكيل الحرج المكلف بالمؤونة الغذائية للسكان، وأخيرا رجال الأمن وقائد الفحص المكلف بتحصيل الضرائب. إلى جانب هذا يوجد ديوان عام وهو المجلس التشريعي يتكون من الموظفين السامين وكلهم من الأتراك. وكان مقر الداي موجوداً في البداية في الجنينة ثم حول إلى القصبة، وكانت الجزائر مقسمة إداريا إلى أربع مقاطعات: مدينة الجزائر وضواحيها المسماة بدار السلطان لأنها تابعة مباشرة للداي، وبايلك الشرق وعاصمتها قسنطينة وهي أكبرهم وأهمهم، وبايلك الغرب وكانت عاصمتها في البداية مزونة، ثم معسكر وعند جلاء القوات الاسبانية عام 1792 م أصبحت وهران، وأخيرا بايلك التيتري وعاصمتها المدية وهي أصغرهم، وعلى رأس كل واحدة منهم حاكم برتبة باي. وينقسم البايلك إلى أوطان يشرف عليها قواد، ويتكوّن الوطن من قبائل يحكم كل واحدة منها شيخ من الأهالي، ويخضعون كلهم لسلطة الداي. ويساعد الباي في مهامه مجموعة من الموظفين السامين، وهم الخليفة نائبه مكلف بالضرائب، وقائد الدار يشرف على أملاك البايلك، والآغا قائد العسكر، والخزندار المكلف بتسليم أموال الجباية، اضافة الى كتاب يشرفون على دفاتر وسجلات المحاسبات، والباي ملزم كل ستة أشهر بتقديم للخزينة العامة

أموال الضرائب المختلفة وأتاوات عن عائدات أراضي البايلك، وكل ثلاث سنوات يتوجه الباي على رأس وفد إلى مدينة الجزائر العاصمة ليجدد الولاء للداي. وكانت توجد بالجزائر مناطق تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي مثل بلاد القبائل والمناطق الصحراوية تخضع لرؤساء القبائل من جزائريين و تراقبها ثكنات عسكرية، ولا تخضع مباشرة لسلطة الداي ولكنها تدفع له أتاوة، وكان الحكم التركي في سيطرته على الأرياف الشاسعة يعتمد على قبائل المخزن، وهي عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية مزودة بالسلاح تربط المحكوم بالحاكم وتحظى بامتيازات متنوعة منها الإعفاء الضريبي، وبالمقابل تساعد الدولة في تحصيل الضرائب والحفاظ على الأمن، وتملك أراضٍ فلاحية، هذا بالإضافة إلى استغلال النفوذ الديني لبعض شيوخ الزوايا بالتقرب إليهم بالمصاهرة والامتيازات. ولم يول النظام التركي المناصب العليا للجزائريين وحتى الكراغلة المنحدرين من أب تركي، كان يشك فيهم وهذا نظرا لعدم ثقتهم وتخوفهم من العنصر الجزائري، ولكن هذا لا يعني أنّ الأتراك كانوا يعاملون الجزائريين معاملة استعمارية مثلما فعلت فرنسا عند احتلالها للجزائر. وكان النظام التركي الجزائري مثله مثل الامبراطورية الإسلامية العثمانية بالقسطنطينية مبني على القوة العسكرية وخاصة البحرية وهذا ما جعل عصرهم يتسم بالجمود لافتقاره للجانب العلمي على خلاف الدول الإسلامية التي سبقته مثل الخلافة العباسية والدولة الأندلسية والحمادية والزيانية، وكان الجيش التركي بالجزائر أغلبيته من الأتراك يعتمد في تجنيده على المواطنين الأتراك بالخارج و يضم صنفين من العسكر فرقة اليولداش وهي القوة البرية عرفت بأسلوبها الطاغي، وطائفة الرياس البحرية وهي العمود الفقري للجيش التركي نظرا للدور الفعّال الذي لعبته في طرد الغزات الأوروبيين وصد هجماتهم عن الجزائر، وكانت مورد رزق وسيدة البحر الأبيض المتوسط لمدة ثلاثة قرون تخشاها كلّ الدول الأوروبية، وكان يوجد بمدينة الجزائر في أواخر العهد التركي سبع ثكنات، وعلى أية حال يمكن القول أنّ فضل رسم الحدود الجزائرية الحالية واختيار مدينة الجزائر عاصمة لها يرجع للعهد التركي، وهذا على خلاف ما يدعيه المستعمرون الفرنسيون عند احتلالهم بأنّ الجزائر لم تكن أمة في يوم من الأيام، بل هي بلاد تسكنها مجموعة من القبائل المتناحرة المتنافرة فيما بينها، ولولا الروابط الدينية (حسب ظني) التي كانت تجمع الجزائريين بالأتراك لما بقوا ثلاثة قرون، وكان بمقدور الجزائريين مقاومة الأتراك مثلما فعلوا بالرومان والبيزنطيين وغيرهم ولكن هذا ما لم يقع، وحتى الاضطرابات والثورات التي وقعت في عهدهم كانت أغلبها لسبب الضرائب المفروضة عليهم في أواخر عهدهم بالجزائر. وخلاصة القول أنّ

الأتراك جنبوا الجزائريين و الإسلام مصيبة كبيرة بتدخلهم لإنقاذها في الوقت المناسب من أيادي الإسبان وبهذا فقد أرجأوا الاحتلال الأوروبي قرونا أخرى.

وعرفت الحياة الاقتصادية الجزائرية مكانة لابأس بها، وكانت تسد في أغلبيتها حاجيات السكان فلم تكن الصناعة متطورة بالمفهوم الحالي، فارتكزت على الصناعات اليدوية مثل صناعة النسيج والأحذية والدباغة والسروج والخشب والزجاج ومواد البناء والسفن والخزف والسلاح والبارود والمواد الغذائية الخ، هذا بالاضافة إلى صيد السمك، وكانت جلّ النشاطات الاقتصادية متمركزة بالمدن الكبرى مثل الجزائر والمدية وهران وتلمسان وقسنطينة وعنابة الخ، فمثلا في مدينة قسنطينة كان يوجد بها 33 مصنعا لدباغة الجلود و 176 معملا للأحذية، وفي تلمسان كان يوجد 500 مصنعا لصناعة النسيج والخشب والجلد والحديد. وكانت الصناعة المحلية منظمة تنظيما دقيقا بحيث كان الحرفيون منخرطين في نقابات حسب التخصص، فنجد شارع الدباغين والنجارين والحدادين الخ. ولعبت الهجرة الأندلسية بالجزائر دوراً ايجابيا في تحريك النمو الاقتصادي، فقد جلبوا معهم العديد من الحرف المتطورة في ذلك الوقت سواء في الميدان العمراني الفلاحي أو الصناعي، فأنشأوا مصانع للنجارة والحدادة والجلود والمجوهرات والنسيج والخياطة والصوف والحرير والزرابي والشاشية والقندورة والبرانيس ذات جودة عالية تكفي لسد حاجيات السكان، والباقي يصدر لدول تونس والمغرب. أما سكان الريف وهم الأغلبية يمثلون 94 % من مجموع السكان يشتغلون بالفلاحة وتربية المواشي من بقر وغنم ودواجن وإبل وبعض الأعمال اليدوية، وكانت الأراضي الفلاحية شديدة الخصوبة تدر منتوجات كثيرة ومتنوعة من خضر وفواكه، هذا بالإضافة إلى المنتوجات الزراعية الصناعية من قطن وتين وزيت، لكن السياسة الجبائية التركية المرتفعة قلصت نوعا ما النشاط الفلاحي خاصة عندما نقصت المغانم البحرية في السنوات الأخيرة من العهد التركي بالجزائر بسبب فقدانها السيطرة على البحر المتوسط، وأهم مورد فلاحي كان مخصصاً للتصدير هي الحبوب من قمح وشعير، وكانت كلّ هذه المنتوجات تلبي حاجيات السكان والباقي يصدر إلى الخارج. أمّا الأراضي التي كانت تنتج هذه الخيرات فكانت مقسمة إلى أراضي العرش وهي ملك للقبيلة، وأراضي الملك الكبيرة التابعة للإقطاعية البورجوازية وأراضي فردية للأسر، وكانت المبادلات التجارية المحلية بين سكان الأرياف والمدن تنظم داخل أسواق أسبوعية يتم فيها تبادل السلع بالنقود أو المقايضة. ولتسهيل المواصلات الداخلية والخارجية ربطت المدن بالطرق المعبدة،

واعتنوا بالموانئ لتصدير منتوجاتهم الصناعية والفلاحية، ومن الصادرات الجزائرية نحو الدول الأجنبية الأوروبية نذكر القمح والشعير والمواشي والزيت والعسل والعنب والتين والتمور والصوف والشموع والجلود، وتستورد القهوة والسكر والشاي والورق، وتتم هذه العمليات التجارية تحت رقابة الدولة و مقابل دفع حقوق الجمارك. وكانت للدول الأوروبية بالجزائر قناصل ترعى المصالح التجارية لدولتها، وتمول مصادر دخل الخزينة العامة للدولة من طرف ضرائب الزكاة والعشر والغرامة والعوائد ورسوم الحكور المفروضة على أراضي البايلك وجزية اليهود ورسوم الجمارك والأسواق والتركات التي تؤول إلى بيت المال في حالة انعدام ورثة شرعيين وغنائم القرصنة والأموال التي تدفعها أوروبا لاتقاء هجومات القرصنة وهدايا الدول الأجنبية، وتنفق هذه الأموال في تسيير شؤون الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وكان المجتمع الجزائري متكوناً من الأتراك وهم من الطبقة الحاكمة، وتضم في صفوفها الموظفين السامين من السياسيين والإداريين والجنود، بالإضافة إلى الكراغلة والسكان الأصليين الجزائريين والسود والحضر الوافدين من الأندلس رفقة أقلية يهودية، ويمثل المسلمون 99 % من السكان أغلبيتهم على المذهب المالكي، وجلهم يزاول الفلاحة وتربية المواشي والأقلية تمارس النشاطات الحرفية والتجارية منهم طبقة بورجوازية تسكن المدن الساحلية و تملك أحسن المنازل والأراضي متكونة من الأتراك والحضر يخدمهمَ في بيوتهم الأسرى العبيد المسحيون من الأوروبيين. وكان لبعض العائلات اليهودية نفوذ كبير على الحياة الاقتصادية وخاصة التجارية الخارجية، ولا يمثل سكان المدن إلا 6 % من مجموع السكان يعيشون في مدن مزودة بالمرافق العامة الضرورية مثل العيون و الفوارات والمقاهي و الحمامات و المطاعم و الفنادق والدكاكين، وكان يوجد في مدينة الجزائر لوحدها 60 مقهى، و يمنع على المسلمين بيع الخمور، وكانت مدينة الجزائر تغلق أبوابها بمجيئ ظلام الليل و ينام سكانها على الساعة التاسعة ليلا ويستيقضون في الصبح، وأيام العطل الدينية والأسبوعية هي الأعياد الإسلامية ويوم الجمعة، ولغة المعاملة هي العربية والتركية. وأصيب الجزائريون في عهد الأتراك بمرض خطير و هو الطاعون أدى إلى مقتل العديد من السكان، كما ضرب مدينة الجزائر سنة 1716 م زلزال عنيف هدم منازل كثيرة و توفي خلق كبير، أما المرأة فلم تكن تخالط الرجال ولا تخرج من المنزل الا عند الضرورة لزيارة العائلات أو المقبرة أو التبرك بأضرحة الأولياء الصالحين، ومن أشهرهم في مدينة الجزائر

في ذلك الوقت سي والي دادا وسيدي بتقة وسيدي بوقدور، وعموما كان المستوى المعيشي والتربوي للجزائريين أفضل من نظيره في الدول الأوروبية وهذا بشهادة الفرنسيين. وقد اختلفت الاحصائيات حول عدد سكان الجزائر عند مدخل الفرنسيين، فالمصادر الفرنسية تذكر ثلاث ملايين نسمة، بينما أحمد خوجة أحد المثقفين الجزائريين يذكر عشرة ملايين نسمة، وحسب مصادر الجاسوس الفرنسي بوتان Boutin لعام 1808 م فكان يقدر عدد الأتراك بالجزائر بنحو عشرة آلاف نسمة و خمسة آلاف من الكرغليين.

الحياة الدينية و الثقافية
و الفنية

كان أغلب الشعب الجزائري على المذهب المالكي، أما الأتراك والكراغلة وبعض الحضر فيعتنقون المذهب الحنفي، إلى جانبهم توجد أقلية يهودية لا تتعدى 1 % من مجموع السكان لها معابدها الخاصة و تمارس شعائرها الدينية بكل حرية وتمتلك مدارس تعلم فيها اللغة العبرية والتوارة وتحتكم إلى قضاة خاصين وهم الأحبار، ورغم العدد القليل من المسيحين الا أنه كانت توجد كنائس بالجزائر وكانوا يتحاكمون إلى القنصليات المسيحية الموجودة في الجزائر. ففي مدينة الجزائر لوحدها كان يوجد بها عند مدخل الفرنسيين 106 مسجداً منها 92 مالكية و14 حنفية، هذا إلى جانب المدارس الدينية يعلم فيها القرآن والعلوم الاسلامية، وكانت كلها تعيش من موارد الأوقاف فلقد لعب هذا الأخير دوراً كبيراً ليس فقط في الميدان الديني و التعليمي بل تعدّاه الى الميدان الاقتصادي و الاجتماعي، فكان يملك أراضي فلاحية واسعة ودكاكين وفنادق وبساتين ومساكن ليس فقط في مدينة الجزائر ولكن في كل أنحاء الوطن، وينفق عوائدها في الأعمال الخيرية ومرتبات الأئمة والمعلمين ومساعدة الطلبة وتشييد المدارس والمساجد وصيانتها، وتديرها مؤسسة دينية يشرف عليها أئمة كبار مستقلة عن الحكم التركي ذات كفاءة عالية في ميدان التسيير، وكانت أملاك الأوقاف تتمتع بحصانة قوية بحيث لا يستطيع الحكام مهما كانت رتبتهم المساس بها، و بفضل أموال الأوقاف والزوايا في الأرياف انتشر التعليم في مختلف أنحاء الجزائر بحيث كان معظم الجزائريين يحسنون القراءة والكتابة، وهذا ما شهد عليه الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر. والمواد التي كانت تدرس في المرحلة الأولى للصغار القراءة والكتابة والقرآن، ولمّا ينتقلون إلى المعاهد يدرسون العلوم الدينية واللغة العربية والمنطق والميتافيزيقيا والحساب وعلم الفلك و علم الجداول لتحديد مواقيت الصلاة ثم الطب والرسم لزخرفة المخطوطات، وعندما يصل الطلبة إلى مستوى معين يمكنهم الرحيل بمفردهم إلى القاهرة أو المشرق العربي لمواصلة دراساتهم، ففي مدينة الجزائر كان يوجد عند نهاية العهد التركي حوالي مائة مدرسة، ولكن هذا لا يعني أن الحركة الثقافية كانت على المستوى الرفيع الذي عرفته الجزائر سابقا في عهد الحماديين أو الزيانيين، بحيث كانت أقرب إلى الثقافة التقليدية لا تساير العصر الحديث وهذا لقلة انجاب الجزائر لعلماء بارزين سواء في الميدان الفقهي أو الأدبي

أو العلمي لأن جهد الأتراك كان منصبا على الميدان العسكري، وخلق هذا الجوهوة علمية واسعة بين المسلمين و الأوروبيين حال دون اطلاع الجزائريين على ما كان يجري في أوروبا من اختراعات و تطورات تقنية.

و لقد ترك الأتراك آثاراً عمرانية كبيرة لازالت شاهدة اليوم على وجودهم. من بينها مدينة القصبة و جامع كتشاوة المشهور و مسجد علي بتشين الذي شيد من طرف هذا الأخير عام 1622 م، وكان يضم في السابق كلَ الدكاكين الموجودة أسفله، وهو أحد قادة طائفة الرياس البحرية من أصل مسيحي ايطالي اعتنق الاسلام وتجند في البحرية التركية، هذا بالاضافة إلى قصور الدايات الواقعة في القصبة وحسين داي و كلها موجودة بمدينة الجزائر. ولم يشيد الأتراك العمران في العاصمة فقط بل في جميع المدن الكبرى قسنطينة عنابة المدية وهران الخ. ونظرا للمدة الزمنية القصيرة التي تفصلنا عن عصرهم و المقدرة بقرن وسبعين سنة لازالت هذه البنايات متينة، ومنها ما هدمه الاستعمار الفرنسي ومنها ما خربه الاهمال والنسيان وأصبحت اليوم مدينة القصبة متحفاً من المتاحف المفتوحة العالمية المحمية من طرف منظمة اليونيسكو التابعة للأمم المتحدة.

الاحتلال الفرنسي
1830 م- 1962 م

أسباب الاحتلال

قبل التعرض لحادثة المروحة، لابد من إعطاء صورة موجزة عن حالة العالم الاسلامي في بداية القرن التاسع عشر، فلقد اختل ميزان القوى بينه وبين العالم الأوروبي، وأصبحت الدولة العثمانية حامية المسلمين في حالة ضعف و تقهقر سميت بالرجل المريض فقدت على إثرها معظم مناطق نفوذها في أوروبا، وزاد الطين بلة عندما حطم الأسطول البحري العثماني والجزائري في معركة نافارين عام 1827 م اثر المعركة البحرية التي دارت بينهما وبين الحلف الثلاثي الفرنسي، الروسي والانجليزي من أجل قضية استقلال اليونان، والتي كانت أراضيها تحت سيطرة العثمانيين. وبهذه الهزيمة فقد العالم الاسلامي مفاتيح البحار وسيطرته على التجارة الدولية، وهذا ما كانت تهدف إليه الدول الأوروبية لفتح أسواق جديدة لتسويق منتجاتها، والبحث عن المواد الخامة لتطوير اقتصادها بعد ظهور الثورة الصناعية في أوروبا الغربية وخاصة في انكلترا وفرنسا. أضف إلى ذلك النوايا الاستعمارية التي كان يكنها الأوروبيون للجزائر والتي تجسدت في مؤتمر فيينا 1815 م، ومؤتمر ايكس لاشابيل 1818 م حيث اتفقت 20 دولة أوروبية على توحيد صفوفها، وشكلوا لهذا الغرض تحالفاً دفاعياً بحرياً للقضاء على عملية القرصنة الجزائرية في البحر المتوسط، وتحرير الأسرى الأوروبيين و تحريم استرقاق المسيحيين والحفاظ على حرية التجارة، وبالتالي منحت لفرنسا بصورة غير مباشرة الضوء الأخضر لغزو الجزائر.

وكانت علاقة الجزائر بفرنسا قبل الحملة جيدة، فلقد منحتها امتيازات تجارية هامة، سمحت لها بإنشاء مؤسسات في عنابة والقالة والقل لصيد المرجان وتصدير الحبوب إلى أوروبا مقابل دفع ضريبة للحكومة الجزائرية. ووقفت الجزائر إلى جانب فرنسا في أصعب الظروف، فلقد اعترفت بالجمهورية الفرنسية عندما قامت الثورة الفرنسية سنة 1789 م وأطاحت بالنظام الملكي في الوقت الذي كانت فيه الأنظمة الملكية الأوروبية تحاصر فرنسا سياسيا واقتصاديا قصد القضاء على النظام الجمهوري الجديد. كما أقرضت الجزائر سنة 1796 م حكومة فرنسا أموالا بدون فائدة بقيمة مليون فرنك فرنسي على شرط أن تستعمل هذا القرض لشراء

الحبوب من الجزائر، وماعدا التوتر في العلاقات بين الدولتين لسبب غزو فرنسا لمصر، فان المياه رجعت إلى مجاريها بمجرد حل هذا النزاع. ولم تبدأ المشاكل بين الدولتين إلا عند مجيئ نابليون بونابرت إلى الحكم فاستغل التفوق التكنولوجي والعلمي الذي وصلت إليه فرنسا بعدما كانت في السابق متكافئة وأصبح يهدد الجزائر بالحرب على إثر احتجاز الجزائر لسفينتين فرنسيتين، ثم لأجل إطلاق صراح أسرى ايطاليين وكورسكيين كانوا مسجونين في الجزائر، وكانت نواياه منذ بداية حكمه خبيثة اتجاه الجزائر، فكان يخطط لاستعمارها، ولهذا الغرض بعث بجواسيس ومن بينهم الضابط بوتان Boutin سنة 1808 م والذي أعتمدت خطته أثناء احتلال الجزائر، ولكن انشغال نابليون في قمع الثورة الاسبانية ثم الحملة على روسيا أعاقت تنفيذ حملته ضد الجزائر، ولكن الملوك الذين جاءوا من بعده لويس وشارل العاشر احتفظوا بمخططه. وفي 29 أبريل 1827 م بمناسبة عيد الفطر، حضر القنصل دوفال Duval الحفل الذي أقامه الداي بهذ المناسبة، فسأله الداي حسين عن سبب عدم رد ملك فرنسا على رسالته والمتعلقة بتسديد ثمن القمح الذي اشترته فرنسا من الجزائر والذي يعود إلى عهد نابليون عام 1798 م، فردّ عليه دوفال باللغة التركية "ليس من العادة أن يخاطب الملك من هو أدنى منه" وبأسلوب لا يليق بمكانة الداي، فغضب هذا الأخير ولم يتحكم في أعصابه وضربه بمروحة من ريش كانت في يده لمست وجه القنصل وأمره بالخروج من مجلسه. وتتلخص قضية الديون في العلاقة المشبوهة التي كانت تربط اليهوديين بكري وبوشناق بالقنصل دوفال، فكان اليهوديان وهم من جنسية جزائرية وذات نفوذ قوي في الوسط المالي يقومان بتسديد ما اشترته فرنسا من الحكومة الجزائرية نيابة عنها، بعدما كانت فرنسا من قبل تشتري ما تحتاجه مباشرة من موانئ الجزائر، وعندما طالب الداي حسين بثمن القمح اتفق دوفال مع التاجرين اليهوديين على توقيف الدين. اعتبرت فرنسا هذا التصرف من الداي بضرب قنصلها اهانة لشرفها، وطلبت من دوفال مغادرة الجزائر، وأصبح قنصل سردينيا هو الذي يرعى مصالح فرنسا بالجزائر، وأرسلت قائد البحرية كولي إلى الجزائر على رأس أربع سفن حربية، وطلب من الداي الاعتذار لدوفال، وأعطى للداي حسين مهلة 24 ساعة كانذار، ولكن الداي رفض، فأمر ملك فرنسا شارل العاشر من الضابط كولي Colet الحصار البحري على مدينة الجزائر ابتداءً من 16 جوان 1827 م، ومن ذلك اليوم شرعت فرنسا في اعداد مشروع الحملة، وأعدت عدة مشاريع من طرف جنرالات ونواب، ولكن في نهاية الأمر اتبعوا خطة بوتان، وأثناء هذه المدة قامت قوات الداي بتخريب المراكز التجارية الفرنسية الموجودة

بعنابة والقل، وبقى الحصار مستمراً و بعثت فرنسا عدة وفود لغرض استئناف المفاوضات، لكن إصرار فرنسا على مطالبها بارغام الداي على الاعتذار و دفع تعويضات أدى الى فشلها. وفي عام 1829 م أعد رئيس الوزراء الفرنسي بولنياك Polignac مشروعا جديداً لحل النزاع يتضمن تدعيم فرنسا للرئيس المصري محمد علي لغزو طرابلس وتونس والجزائر، فقبل محمد علي المهمة على شرط أن يتحمل مسؤوليات العملية وحده و أن ينحصر دور فرنسا في التمويل فقط، ولكن في نهاية الأمر فشل لسبب وقوف وسائل الاعلام الفرنسية و جنرلات فرنسا ضد هذا المشروع الذي اعتبروه إهانة لفرنسا، هكذا يتبين لنا أن حادثة المروحة ما هي إلا سبب من عدة الأسباب تذرعت بها فرنسا لتبني عليها حجتها في احتلال الجزائر وإضفاء الشرعية لتنفيذ مخططها الاستعماري القديم و البحث عن منفذ لأزمتها السياسية الداخلية باستغلال الوضع الأمني الداخلي الجزائري الغير مستقر واستسباق انكلترا التي كانت تطمح لنفس الهدف. و الخلاصة ما هي إلا حلقة من حلقات الحروب الصليبية، وكما قال الأمير متنرنش : "ليس من أجل قضية مروحة نصرف 100 مليون فرنك فرنسي ونعرض 000 40 عسكري للموت". إلا أنَ في الحقيقة كلفت عملية الحملة فرنسا بأقل من ذلك بكثير، بحيث بلغت 16 مليون فرنك فرنسي، واستولت بالمقابل على أموال خزينة الداي المقدرة ب 45 مليون فرنك من الذهب، وحصلت بذلك فرنسا على أكثر من ضعف نفقات حملتها على الجزائر.

الحملة ضد الجزائر

بعد مصادقة الحكومة الفرنسية برئاسة بولينياك والملك شارل العاشر يوم 30 جانفي 1830 م على مشروع الحملة ضد الجزائر، قامت السلطات الفرنسية بتهيئة الرأي العام الفرنسي و الأوروبي لتقبل أسباب الحملة لكونها انتقاما لشرف فرنسا وأوروبا المسيحية، وأيدتها معظم الدول الأوروبية، عدا انكلترا والتي منحتها ضمانات بأن الحملة محدودة الزمن وأنّ الفرنسيين لا يبقون في الجزائر أكثر من شهر أو شهرين. جهزت القوات الفرنسية نفسها وانطلقت من ميناء تولون يوم 16 ماي 1830 على متن 500 سفينة حربية، لكن العملية أجهضت بسبب العواصف. وفي يوم 14 جوان 1830 م على الساعة الواحدة صباحا نزلت القوات الفرنسية المكونة من 37000 عسكري من بينهم ستة عشر قسيسا بقيادة الجنرال دي بورمون de Bourmont بسيدي فرج فلم تجد أي مقاومة تذكر، وكانت محملة بالمدفعية وعتاد عسكري ضخم و مؤونة تكفيهم لمدة أربعة أشهر، ومكثت هناك مدة أربعة أيام في انتظار امدادات أخرى، بينما كان الجيش الجزائري يضم 7000 عسكري و40000 متطوع قدموا من الجزائر، وقسنطينة، وهران غير منظم وبحوزتهم أسلحة محدودة يقودها صهر الداي الآغا ابراهيم.

وكان الداي حسين على علم بالحملة قبل مجيئها، لكنه لا يعرف مكان نزولها، وكان يعتقد أنها لا تتجاوز الضرب من البحر شأنها شأن الحملات الأوروبية السابقة. وبينما كان الداي يستنجد بنوابه على أقاليم قسنطينة والتيتري ووهران ويحث السكان على الجهاد، كانت الجيوش الفرنسية بسيدي فرج تحفر الخنادق لحماية معسكرها، وبدلا من أن يبادر الداي في الهجوم فورا على الفرنسيين، أقام لهم معسكراً بسطوالي على بعد خمس كيلومترات من سيدي فرج. وفي مساء يوم 18 جوان 1830 م هاجم الجزائريون والأتراك الجيش الفرنسي وكبدوه خسائر كبيرة ووصلوا إلى تحصيناتهم، إلا أنّ رد الفعل الفرنسي لم يدم طويلا بعد أن تحصلت على تدعيمات قوية اجتاحت بها معسكر الجزائريين بسطوالي و فقدت خلالها 57 مقاتلاً فرنسيا و473 جريحاً، لكنها هزمت قوات الداي رغم الشجاعة الكبيرة التي أظهرتها في المعركة. و واصلت قوات دي بورمون في الزحف على الجزائر العاصمة تبعا للخطة التي رسمها الجاسوس بوتن Boutin سنة 1808 م في عهد الامبراطور نابوليون مما يبرهن أنّ عملية الاحتلال كانت مبرمجة في عهده. و في يوم 24 جوان استولت على سيدي خالف. وأثناء هذه المعارك عزل الداي الآغا ابراهيم

وولى قيادة الجيش الجزائري الباي مصطفى بومزراق، ولكن رغم شجاعة الجيش لم يَجْدِ نفعاً. وفي 4 جويلية سقط حصن الامبراطور والمعروف ببرج الطاوس في يد الفرنسيين بعد أربعة أيام من المعارك، وهو أكبر مركز دفاعي للأتراك، وعندما يئس الأتراك من ايقاف الهجوم الفرنسي على الحصن أضرموا النار في خزينة الذخيرة وفجر الحصن. وعشية هذا اليوم ذهب مندوب الداي بومزراق رفقة قنصل انكلترا إلى المعسكر الفرنسي لغرض التفاوض، وقدم له الجنرال دي بورمون شروط الصلح، ووقع الداي حسين على معاهدة الاستسلام بجنان الرايس يوم 5 جويلية 1830 م. ونصت بنوذ المعاهدة على ما يلي :

- يسلم حصن القصبة، وسائر الحصون الأخرى التابعة للجزائر وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي صبيحة يوم 5 جويلية 1830 م على الساعة العاشرة.

- يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي تجاه صاحب السمو، داي الجزائر، بأن يترك له حريته و حيازة كل ثرواته الشخصية.

- للداي حسين كامل الحرية في اختيار المكان الذي يرغب السفر إليه رفقة عائلته وأمواله، و يكون تحت حماية القائد العام الفرنسي طوال اقامته في الجزائر، وسيتولى حرس ضمان أمنه الشخصي و أمن أسرته.

- يتمتع الجنود الأتراك التابعين للجيش الجزائري بالحقوق المقررة في الفقرات السابقة.

- ستبقى ممارسة الشعائر الدينية الاسلامية حرة، ولا يقع أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم، ولا بأملاكهم، ولا بتجارتهم وصناعتهم وستكون نساؤهم محل احترام، ويتعهد القائد العام الفرنسي بذلك عهد الشرف.

وسيتم تبادل هذه المعاهدة قبل الساعة العاشرة، وستدخل الجيوش الفرنسية عقب ذلك حالا إلى القصبة، ثم تدخل بالتتابع كل حصون المدينة البحرية.

وخصت هذه المعاهدة الموقعة بين الداي حسين والكونت دي بورمون مدينة الجزائر، مع أن الداي كان حاكما على الجزائر كلها.

وفي يوم 7 جويلية أمر الداي بإجلاء مدينة القصبة، ورحل عن الجزائر رفقة حاشيته إلى مدينة نابولي بإيطاليا. فأصاب سكان الجزائر العاصمة الرعب وفر منها حوالي 10000 من سكانها.

ودخلت القوات الفرنسية مدينة الجزائر، ووزع أول بيان فرنسي مكتوب باللغة العربية على الجزائريين يحثهم فيه على أن مجيئ الفرنسيين إلى الجزائر تسبب فيه الداي باقدامه على إهانة قنصل فرنسا، ونعدكم بأن لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم ولا نسعى للاستيلاء على أموالكم وخراب بلادكم وأننا جئنا لنطرد الأتراك الذين طغوا عليكم الخ. وأعلن الجنرال دي بورمون لسكانها: "أنكم أنتم الذين ستتولون ادارة أموركم. ورغم التعهد الفرنسي لسكان الجزائر باحترام شعائرهم الدينية وممتلكاتهم، إلا أنها نكثت هذه العهود واستولت على خزينة الدولة ونهبت الأموال العامة والخاصة، وحولت المساجد إلى كنائس، اضافة إلى الاعتداءات على المواطنين والأعراض . وظن سكان الجزائر في بداية الأمر أن عملية الاحتلال مؤقتة، وهذا ما صرح به رئيس الوزراء الفرنسي بولينياك، ولكن الاجراءات التي اتخذتها السلطات الفرنسية من نفي للعائلات التركية وتشكيل لجنة حكومية فرنسية تتكفل بإدارة الجزائر، ومجلس بلدي مختلط برئاسة الجزائري أحمد بوضربة، واصدار قوانين وأوامر باسم مالك فرنسا أيقنتهم بأن هذا الاحتلال دائم. واعتقد الفرنسيون بأنهم سيستقبلون كمحررين وأن احتلال بقية الوطن سيتم بدون مقاومة و هذا ما صرح به الجنرال دي بورمون بعد دخوله مدينة الجزائر قائلا : "إنّ كل أنحاء المملكة الجزائرية ستخضع لنا خلال خمسة عشر يوما دون أية طلقة نارية". ولهذا قام هذا الأخير رفقة جنوده يوم 24 جويلية 1830 بجولة إلى منطقة البليدة ليكتسب محبة المواطنين ويختبر رد فعلهم، وتظاهر سكانها باستقباله استقبالا حسنا، وفجأة عندما كانوا يستعدون للعودة خرج الجزائريون من الجبال المشرفة على المدينة وانقضوا عليهم واشتبكوا معهم، ولو لم يصطحب معه دي بورمون قواته العسكرية لحمايته لكان سيندم. وكان هذا الحدث منطلقا للمقاومة العنيفة التي عرفتها أرض الجزائر طيلة الاحتلال وقادتها قوافل من الشهداء أمثال الحاج أحمد باي، والأمير عبد القادر، وبومعزة، وبوبغلة، ولا لا فا طمة نسومر، والمقراني والشيخ الحداد، وبوعمامة، وثورة الزعاطشة، والأغواط، وأولاد سيدي الشيخ، والصحراء، ونهاية بثورة أول نوفمبر المخلدة عام 1954 م.

هذا، ولم يتمكن المستعمر الفرنسي من احتلال كامل التراب الجزائري إلا بعد حوالي أربعين سنة من الكفاح 1830 م– 1870م، وبدأ أول الأمر باحتلال المدن الساحلية، مثل بجاية ووهران ومستغانم وعنابة. ومنها زحف على المدن الداخلية، وارتكب خلالها أبشع الجرائم ضد الشعب الجزائري، ولا يمكننا هنا سرد كل هذه

الجرائم والمجازر، وأفضل شهادة على ذلك هي الوقائع التي سجلها الضباط والجنود والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم. وهذه احدى شهادات الجنود :

"بلدة بني مناصر جميلة، وهي إحدى أغنى المناطق التي رأيتها في إفريقيا، قراها ومساكنها تقترب فيما بينها، ولكن حرقنا ودمرنا كلّ شيئ وجد فيها، كم من امرأة وطفل التجأوا إلى ثلوج جبال الأطلس وماتوا من البرد والبؤس، ولم يقتل ولو خمسة من الجنود الفرنسيين". (منطقة شرشال أبريل 1842).

وهذا اعتراف الجنرال روفيغو Rovigo سنة 1832 م بعد عودته من هجوم على قبيلة العوفية وهي نائمة حيث أبيدت بكاملها فبلغ عدد قتلاها 12000 شخصاً، فقال "كان جنودنا ممتطين ظهور الخيل يحملون الرؤوس البشرية على نصال سيوفهم، أما حيواناتهم فقد بيعت إلى القنصلية الدنمركية، وأمّا أجزاء الأجسام الأخرى والملطخة بالدماء فقد أقيم منها معرض في باب عزون، وكان الناس يتفرجون على حلي النساء ثابتة في سواعدهن المقطوعة وآذانهن المبتورة ".

"في سنة 1845 م في ظرف عام وفي ثلاث جهات من الجزائر قام ثلاثة ضباط فرنسيين، وهم الكونونيل كافينياك Cavaignac، بيليسي Pélissier وسانت آرنو Saint-Arnaud بمهاجمة ثلاثة مغارات التجأت اليها ثلاث قبائل برجالهم ونسائهم وأطفالهم ومواشيهم، وأمروا بتفجيرها واشعال النار في مدخلها، ومات المحاصرون فيها اختناقا، لسبب رفضهم الاستسلام، وأدت عملية بيليسي لوحدها إلى مقتل أكثر من 800 شهيد بريئ من قبيلة أولاد الرياح بالظهرة".

ولنعلم أن عدد سكان الجزائر كان يبلغ سنة 1830 م حسب المصادر الفرنسية 3 ملايين نسمة، بينما نص حمدان خوجة الذي تولى هو وأبوه وعمه مناصب عليا في إدارة الداي في كتابه "المرآة" بأن احصاء سكان الجزائر بلغ 10 ملايين، وتقلص هذا العدد بسبب مجاعة سنتي 1867 م- 1868 م نتيجة اتباع سياسة الأرض المحروقة والمقاومات الشعبية إلى أقل من ذلك بكثير، مما يدل على أن عملية الابادة الجماعية كانت أكثر وحشية.

السياسة الاستعمارية

مصادرة الأراضي الفلاحية وتشجيع الاستيطان

ولم يتوقف الاستعمار الفرنسي إلى هذا الحد، بل واصل سياسته الجائرة تجاه الجزائريين بتفقيرهم ومصادرة أخصب أراضيهم الفلاحية عنوة أو بواسطة قوانين ومنحها للمعمرين الأوروبيين من مغامرين متشردين فرنسيين واسبان وإيطاليين ومالطيين، وأصبح الجزائريون خماسين عندهم غرباء في بلادهم لا يتمتعون بأبسط الحقوق، ففي سنة 1842 م منحت للأوروبيين 105000 هكتار من أخصب الأراضي الفلاحية، وقامت بمصادرة 60000 هكتار من أراضي متيجة لسبب عدم تقديم أصحابها الوثائق التي تثبت ملكيتهم لها في الوقت المناسب. وأسس الجنرال كلوزيل أحد أكبر مشجعي الاستيطان في الجزائر شركة فلاحية سماها "المزرعة التجريبية لافريقيا "وسمح للعسكر الاكتتاب فيها، كما استولى على الأملاك القريبة من بابا علي وعلى مزرعة حوش حسن باشا القريبة من واد الحراش، والتي بلغت مساحتها 1000 هكتار، وقال للأوروبيين سنة 1835 م "لكم أن تنشئوا من المزارع ما تشاؤون، ولكم أن تستولوا عليها في المناطق التي نحتلها، وكونوا على يقين بأننا سنحميكم بكل ما نملك من قوة، وبالصبر والمثابرة سوف يعيش هنا شعب جديد وسوف يكبر ويزيد بأسرع مما كبر وزاد الشعب الذي عبر المحيط الأطلسي واستقر في أمريكا منذ بضعة قرون". وفي هذا الصدد دائما أعلن الجنرال بيجو من منبر البرلمان الفرنسي يوم 14 ماي 1840 م قائلا "حيثما وجدت مياه صالحة وأراضي خصبة، يحق للأوروبيين الاقامة فيها دون البحث عن مالكها. وبما أن الجزائريين سوف يدافعون عن أراضيهم بكل قوة ولن يتخلوا عنها بسهولة للمستوطنين الأوروبيين، يجب أن ندفعهم بالقوة إلى الصحراء، وهناك اما الا يستطيعوا العيش، وعندئذ سوف يرجعون خاضعين ليكونوا خدما يعملون بثمن بخس عند الأوروبيين وإما أن يبقوا هناك وعندئذ نستطيع أن نمكن المعمرين من الأرض بكل حرية". وطبقا لهذه السياسة سلكت فرنسا نفس الأسلوب الذي طبق على أراضي الهنود الحمر في قارة أمريكا فاستولى الاستعمار على أملاك الأوقاف والبيلك وضمتها الى أملاك فرنسا سنة 1843 م، وسمح قانون ورني Warnier لعام 1873 م بتفتيت أراضي العرش (ملك للقبيلة) المقدرة ب 450832 هكتار وتوزيعها على الأفراد، ثم اجبارهم بعد ذلك على بيعها للمعمرين الأوروبيين. واستفادت Société Genevoise على 2000 هكتار في مدينة سطيف و 1200 هكتار في سهل

الشلف. إلى جانب هذا استولى الاستعمار على أراضي القبائل التي حاربت الاحتلال، وأراضي البور، والغابات والمراعي، ولم يصل عام 1900 م حتى وصلت جملة الأراضي التي صودرت من الجزائريين الى 2250000 هكتارا من أجود الأراضي الزراعية و صار معدل ما يملكه كلّ فلاح أوروبي من الأراضي الزراعية 108 هكتارات في مقابل 14 هكتارا لكل فلاح جزائري. أمّا أغلبية المزارعين الأخرين من الجزائريين فأبعدوا إلى الأراضي القاحلة والمناطق الجبلية في الشمال ومناطق الجنوب الصحراوي، وباختصار أصبحت الجزائر ملكية لهم يفعلون فيها ما يشاؤون، وأدت هذه الاجراءات التعسفية إلى تفقير وتدهور الحياة الاقتصادية للجزائريين، فأصبح الشعب الجزائري كما وصفه فرحات عباس في كتابه "ليل الاستعمار الفرنسي" يتخبط وسط مجاعة يعجز القلم عن وصفها، مما دفع البعض منهم إلى الهجرة نحو فرنسا لكسب قوته.

كما شجعت فرنسا لغرض إحكام سيطرتها على البلاد والاستقرار نهائيا في الجزائر، الأوروبيين من مختلف الجنسيات على الاستيطان في المناطق المحتلة وفسحت لهم المجال لكي يستحوذوا على ثروات البلاد، ولجلبهم عرضت عليهم عدة امتيازات كدفع تكاليف السفر وتعويضات الإقامة وتوزيع الأراضي الفلاحية مجانا وانشاء مساكن لهم و مدهم بالحبوب والمواشي في السنوات الأولى حتى يصبحوا قادرين على استغلال أراضيهم بأنفسهم وحق التجنس بالجنسية الفرنسية للأجانب مع الاحتفاظ بجنسيتهم الأصلية، وأدت هذه السياسة إلى إغراق الجزائر بالمهاجرين الأوروبيين. وأنشأت أول مستوطنة أوروبية بمنطقة بوفاريك سنة 1836 م وارتفع عددها من سنة لأخرى بحسب عدد الوافدين، ففي سنة 1866 م توافد على الجزائر 217990 أوروبي (122119 من الفرنسيين، و 58510 من الاسبان، و16655 من الايطاليين، و10627 من المالطيين والانجليز، والباقي من الألمان والسويسريين) .
وفي سنة 1886 وصل إلى الجزائر 160000 اسباني أقام معظمهم في مدينة وهران و35000 ايطالي توزعوا على مدن عنابة وقسنطينة و 15553 مالطي منهم من استفاد من أراضي فلاحية والباقي استقر بالمدن. وبلغ عددهم سنتي 1830 م- 1850 م: 63.497 أوروبيا ليصبح من عام 1921 - 1929 : 657.641 مستوطنا.

وأدت هذه السياسة إلى مجاعة سنتي 1867 م- 1868 م نتيجة سياسة الأرض المحروقة والجفاف واجتياح الجراد الذي هلك الزرع والخضر والفواكه وتسبب في انتشار الأمراض كالكوليرا والتوفيس، وتاليها موت المواشي من بقر وغنم وبهائم

حتى انحدر سعر الأغنام في بعض المناطق إلى فرنك واحد، وبالمقابل ارتفعت سعر المأكولات والمشروبات. وهكذا بقي الجزائريون من غير موارد واضطروا إلى أكل الحشيش ولحم القطط والكلاب واضطر الكثير منهم إلى النبش عن الموتى في القبور لأكل لحومهم، أما المعمرون الأوروبيون فكانوا في مأمن من هذا البلاء، وعوض أن يقدموا لهم يد المساعدة الانسانية طلبوا السلطات الفرنسية بابعادهم من مزابل مساكنهم حيث كانوا يبحثون على بقايا الأطعمة. ومست هذه المجاعة أغلب مناطق البلاد وعلى الأخص مدينة قسنطينة والهضاب العليا وكانت نتيجتها وفاة حوالي 500000 جزائري.

جدول تطور الاستيطان (والمساحات بالهكتارات الموزعة على المستوطنين)

من سنة 1830 م إلى غاية 1929 م

الفترة	المستوطنات	المساحة بالهكتارات	المستوطنون
1830 1850	150	427.604	63.497
1851 1860	91	184.255	103.322
1861 1870	23	73.211	129.898
1871 1880	207	233.369	195.418
1881 1890	89	161.661	267.672
1891 1900	80	99.353	364.257
1901 1920	217	248.289	633.149
1921 1929	71	70.418	657.641
المجموع	928	1.498.323	

السكان الفرنسيون : 657.641

السكان الأجانب : 175.718 = 833.359 أوروبيا

Ministère de la guerre

Division des affaires d'Algérie

2ème Bureau , administration et comptabilité

NOTE

Sur les Concession rurales à titre gratuit et la formation des villages en Algérie

Les personnes qui désirent s'y établir en Algérie, comme colons concessionnaires, dans les centres de populations et villages agricoles que le gouvernement y fonde, doivent s'adresser au Ministre de la Guerre, soit directement, soit par l'entremise des préfets, ce qui vaut mieux.

A la demande doivent être annexés des certificats authentiques constatant la moralité des pétitionnaires, leur profession, leur âge, le nombre et l'âge de leurs enfants, la quotité des ressources pécuniaires dont ils pourraient disposer à leur arrivée en Algérie.

Cette quotité des ressources n'est pas limitée ; elles doivent être proportionnée à la composition de la famille , et suffire aux dépenses de premier établissement et d'entretien , en attendant la première récolte. Pour une famille peu nombreuse, il faut au moins 1, 200 à 1, 500 franc au moment de la prise de possession

Si les demandes sont jugées admissibles, le Directeur de l'intérieur à Alger, à qui elles sont transmises, comprend les pétitionnaires parmi les concessionnaires d'un village , et il leur réserve des lots.

Il est alors délivré aux concessionnaires, par le département de la guerre, un permis de passage gratuit

de Marseille ou de Toulon à Alger, pour lui, sa famille et les personnes qu'il veut associer à son entreprise. On ne saurait trop recommander aux colons de se munir de cette autorisation avant de se rendre au port d'embarquement, afin d'éviter des retards ou des frais de traversée. A son arrivée dans la Colonie, le concessionnaire est mis immédiatement en possession, par les soins du Directeur de l'intérieur, d'un lot à bâtir dans le village qui lui est assigné, et d'un lot à cultiver. Le premier est assez étendu pour recevoir une maison , des écuries, une cour. Le lot à cultiver est de 4 à 12 hectares, selon les ressources du colon et le nombre des membres de sa famille. Ce n'est que par exception, et en faveur de colons justifiant de moyens d'action considérable, que des concessions plus étendues peuvent être accordées par arrêté spécial , et sauf approbation du Ministre. Le concessionnaire trouve un abri provisoire sous des baraques que l'administration fait élever, en attendant que les nouveaux habitants puissent se construire des maisons. Il est de plus aidé dans l'établissement définitif de son habitation, quand il est reconnu qu'il ne dispose pas de ressources pécuniaires suffisantes, par des secours en matériaux à bâtir pouvant s'élever de 3 à 600 franc. Pour la culture de ses terres, il peut lui être prêté temporairement des bêtes de labour. Des semences et des instruments aratoires peuvent aussi être mis à sa disposition, tantôt à titre de don gratuit , tantôt à charge de remboursement. Il participe , enfin , à des distribution de plantes et de graines provenant des pépinières de la colonie. Aussitôt qu'il est établi sur son lot , il lui est délivré, par la Direction de l'intérieur, un titre provisoire de concession , sur lequel sont mentionnées les conditions de bâtir et de cultiver qui doivent être accomplies. Quand le colon a satisfait aux clauses et obligations portées au titre provisoire, ce qui est constaté par procès verbal de reconnaissance, le titre provisoire est changé en titre définitif , lequel le constitue propriétaire incommutable, dans les limites et les termes de l'article 544 du code civil. Les concessions rurales , comprises dans le périmètre des villages en cours d'établissement, sont faites à titre gratuit. Elles donneront lieu à une redevance légère après cinq

années écoulées. Jusqu'à présent, les terres de toute nature appartenant aux Européens, ou exploitées par eux en Algérie, ont été exemptes de tout impôt foncier. Les villages sont placés dans des positions d'une salubrité reconnues et pourvues d'eau. Ils sont entourés d'enceintes défensives, protégés par des brigades de gendarmerie et les camps. Les habitants sont armés et organisés en milices. Des églises, des oratoires et des écoles sont répartis sur le territoire colonisé, selon les besoins des populations. Les centres de colonisation sont reliés entre eux et aux villes par des chemins qui assurent l'arrivée des matériaux, l'écoulement des produits , les échanges et les communications de toutes natures. Des tournées médicales intérieurs à des intervalles rapprochés, dans les divers villages.

محاربة العقيدة
و الثقافة الجزائرية

هذا، بالاضافة إلى الاجراءات المتخذة من السلطات الفرنسية لمحو الشخصية الجزائرية وتجهيل شعبها ومحاولة تنصيره. ولبلوغ هذا الهدف عملت فرنسا منذ أن وضعت أقدامها على التراب الجزائري بمحاربة والاستيلاء على الأوقاف الاسلامية باعتبارها الراعي والممون الرئيسي للنشاطات الدينية والتعليمية وفي نفس الوقت تشكل عائقاً كبيراً في وجه المخطط الاستعماري، وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين إلى القول "بأن الأوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية، وتتنافى مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر". ولهذا الغرض أصدرت الحكومة الفرنسية عدة قرارات ومراسيم تهدف تدريجيا لتصفية أملاك الأحباس من مساجد ومساكن ومعاهد وبساتين ومطاحن وفنادق وأراضي شاسعة في مختلف مناطق الجزائر وادخالها في نطاق التعامل التجاري كي يسهل للأوروبيين امتلاكها، ففي 8 سبتمبر 1830 م أصدرت السلطات الفرنسية مرسوم يحدد ملكية الدولة سمح لها بالاستيلاء على أملاك الأتراك، وفي 7 ديسمبر من نفس السنة أصدر الجنرال كلوزال قراراً آخر يبيح بانتقال الأحباس إلى المعمرين الأوروبيين، ثم ظهر قرار 30 أكتوبر 1858 م أدخلت بموجبه أملاك الأوقاف في مجال التبادل التجاري، وأخيرا جاء قانون 1873 م صودرت بموجبه نهائيا كل أملاك الأوقاف. ونتيجة لهذا التصرف الاستعماري أغلقت السلطات الفرنسية سنة 1830 في مدينة الجزائر 13 مسجدا كبيرا و108 صغيرا و 32 جامعا و 12 زاوية وتم تحويل العديد من المساجد إلى اسطبل ومستودعات ومستشفيات عسكرية وكنائس ومن بينهم مسجد كتشاوة المشهور الذي حوله الجنرال دي روفيغو سنة 1832 إلى كنيسة، فنصب الصليب وعلم فرنسا على الصومعة بمباركة البابا غريغوار رغم معارضة المفتين والسكان الذين سقط العديد منهم قتلى دفاعا عن المسجد. وهكذا أصبحت أملاك الأوقاف الاسلامية تخدم العمليات التبشيرية المسيحية التي ارتبطت بالاحتلال منذ الوهلة الأولى، ففي سنة 1835 م استقر بالجزائر العاصمة أخوات القديس يوسف ومن بعدهم الراهبات الثالوثيات والجزويت وشرعن في عملهم التبشيري إلى غاية 25 أوت 1938 حيث أسست أسقفية الجزائر وتزايد عدد رجال الدين بتزايد عدد المستوطنين الأوروبيين، فاستقروا في مدن الشرق والغرب الجزائري وأنشأوا سنة 1842 داراً

لليتامي ببن عكنون وفتحوا بوهران وقسنطينة وعنابة داراً للرحمة وورشات للصناعات التقليدية وفتح مدارس للأيتام وعلاج المرضى وتشييد الكنائس بتدعيم من السلطات الفرنسية وعلى رأسهم الجنرال بيجو، وهذا العمل كله يدخل في اطار السياسة الاستعمارية الهادفة إلى محو الشخصية الجزائرية، فبعد أن احتلوا الجزائر ماديا أرادوا أن يقضوا عليها روحيا، وكما قال المؤرخ الفرنسي غوتي "حاولت فرنسا في الجزائر أن تجعل من أرض شرقية أرضا غربية". واستعمل في هذه الفترة أي ابتداءً من 1838 رجال الدين وعلى رأسهم الأسقف دوبوش Dupuch كل الوسائل الممكنة لتنصير المسلمين بالقوة أو بالرشوة، ولم تتوقف السلطات الفرنسية عند هذا الحد بل تعاونت مع رجال التبشير في محاولة لتنصير الجزائريين وإخراجهم من دينهم الاسلامي، ولتحقيق هذا الغرض أسر الجنرال بيجو مائتين وخمسين طفلا من اليتامى وسلمهم إلى أحدالقساوس طالبا منه تنصيرهم وقال له "حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين، واذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار". وتدعيما لهذا المنهج بعث البابا يوم 12 جانفي 1867 م الكاردينال لافيجري Lavigerie إلى الجزائر لمهمة تنفيذ سياسة تنصير واسعة النطاق حددها بقوله "علينا أن نجعل من الجزائر مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور منبع وحيها الانجيل تلك هي رسالتنا". وفي مناسبة أخرى ذكر"إنّ ادخال الأهالي للديانة المسيحية واجب مقدس فأول ما يجب عمله معهم هو الحيلولة بينهم والقرآن، وينبغي علينا أن نهتم بالصبيان فندخل في عقولهم تعاليم جديدة ألا وهي تعاليم الانجيل، بعد ذلك يمكن أن ندخله في حياتنا، أو نطرده إلى الصحراء بعيدا عن العالم المتحضر". وتطبيقا لهذا المنهج أقام عدة مراكز ودور للأيتام الجزائريين وأسس جماعة الأباء البيض فاستغل لافيجري المجاعة التي حلت بالجزائريين سنتي 1867 م- 1868 م وجمع حوالي 1752 طفلا تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ووضعهم في مراكز لتنصيرهم ومنعهم من رؤية ذويهم واستردادهم لأهلهم. ولتسهيل هذه الدعوة قامت فرنسا بمحاربة مقومات الشخصية الجزائرية وعلى رأسها الدين الاسلامي واللغة العربية وتشويه تاريخها في الإدارات والمحاكم والمعاهد التعليمية، لكن الشعب الجزائري لم يرتد لا على ثقافته ولا على دينه وذلك ما أثبتته الأحداث، ففي محاولة من القساوسة لتنصير بعض القرى في منطقة القبائل الجزائرية رد سكانها إلى الضابط الفرنسي قائلين "اننا لن نتخلى أبدا عن ديننا، وإذا كانت الحكومة تريد ارغامنا على ذلك، فنحن نطلب منها الوسيلة لمغادرة البلاد. وإذا لم نجد هذه الوسيلة فنحن نفضل الموت على التخلي عن ديننا". وذهبت جهود فرنسا والقساوسة في أدراج الرياح، وهذا ما

يشهد عليه أحد الكتاب الأوروبيين الدكتور غوستاف لوبون في كتابه "روح السياسة" حيث ذكر واقعة تدل على فشل أعمال المبشرين وهي "أن الكاردينال لافيجري جمع أربعة آلاف طفل يتيم جزائري، وقام بتربيتهم تربية مسيحية ولكن معظمهم رجع إلى الاسلام بعد أن بلغوا سن الرشد". أما في ميدان التعليم فحدث ولا حرج، فسلكت فرنسا سياسة اقصاء اتجاه أبناء الجزائر تعتمد على التجهيل والأمية حتى يمكنها أن تحكم سيطرتها التامة عليهم ولم تسمح لهم بالتعليم الا في حدود ضيقة للغاية، فقد قضى الاستعمار على معظم المعاهد الاسلامية والمكتبات التي كانت موجودة في العهد التركي وحولوها بالمدارس الفرنسية، وجراء ذلك بلغت نسبة الأمية بين الجزائريين 99 % بين النساء و95 % بين الرجال، فقد بلغ سنة 1850 م عدد التلاميذ الجزائريين المتمدرسين في المدارس الابتدائية الفرنسية 642 تلميذا، ووصل عددهم سنة 1870 م الى 13000 تلميذا، ثم تقلص بعد ذلك لسبب غلق المدارس الاسلامية ليصل سنة 1880 م إلى 3172 تلميذا، في حين وصل سنة 1870م عدد التلاميذ الأوروبيين المتمدرسين إلى 44326 تلميذا ذكورا واناثا. وفي عام 1914 بلغ عدد التلاميذ الجزائريين المتمدرسين 42263 بنسبة 5 % من جملة عدد الأطفال الذين هم في سن الدراسة الذين يقدرون ب 850000 طفلا، أما التعليم الثانوي فلم يتجاوز عدد الجزائريين المسجلين فيه قبل عام 1914 سوى 150 طالبا، بينما لم يتحصل خلال هذه السنة إلا 12 جزائريا على شهادة الليسانس في الجامعة. وبقيت مصلحة التعليم من اختصاص وزارة الحرب تحت اشراف الوالي العام إلى غاية سنة 1948 م حيث صدر قرار بربط مصلحة التعليم بوزارة التربية أنشأت بموجبه أكادمية الجزائر، بينما بقيت المعاهد الإسلامية تحت سلطة الوزارة الحربية، وسلكت فرنسا في تعليمها للجزائريين منهج الفرنسة وتشويه تاريخ الجزائر حتى تتمكن تدريجيا أولا من إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وثانيا القضاء على تراثها العربي الاسلامي. ورغم هذا فإنَّ معظم الجزائريين الذين سجلوا في المدارس الفرنسية لم يتجاوزوا مرحلة التعليم الابتدائي، وليس معنى هذا نقص في ذكائهم ولكن رغبة من فرنسا في تجهيلهم ليسهل عليها استعبادهم، وهذا ما كان يطالب به المعمرون الأوروبيون، وهو أن تكون لهم السلطات الفرنسية جيلاً من البنائين والاسكافيين والخماسين لخدمتهم وتسهيل السيطرة عليهم، لأنهم كانوا يعتبرون الأهالي من جنس بشاري منحط لا يصلح إلا للأعمال الشاقة، ولا يستحقون لا الاذلال والقهر. ولم تتح الفرص لمواصلة التعليم الثانوي والعالي إلا لبعض المحظوظين من أبناء الأغوات والباشاغات الذين خدموا فرنسا باخلاص في الجيش والادارة ضد مصلحة شعبهم ووطنهم، ومع هذا كانت تهدف من تعليمهم

تكوين نخبة جزائرية صغيرة تكوينا فرنسيا نظرا لحاجة الاستعمار إليها وقد حرمت فرنسا أجيالاً عديدة منذ دخولها وإلى غاية يوم الاستقلال من التعليم في المدارس.

وفي اطار فرنسة الجزائر لم تنج حتى مدنها وقراها، فأصدروا عام 1882 م قرارا يقضي بتسمية الشوارع والساحات الجزائرية بأسماء حكام ومثقفي وجنرالات فرنسا، مثل فيكتور هيقو وفولتير وروفيقو وباستور وديكارت ومنتسكيو ودي بورمون الخ. وأنشأوا الحالة المدنية التي أدت إلى فرض بطاقة تعريف فقاموا بتشويه الشخصية الجزائرية بمنح الأسر الجزائرية أسماء رغما عنهم، كانت في بعض الأحيان مهينة ومضحكة أدت إلى اختلاف الأسماء ضمن عائلة واحدة، ولاقباض سيطرتها على البلاد أشعلت نار الفتن والفرقى بدعوى أن الجزائر يسكنها عنصران من الأجناس عرب وبربر وذلك ما فعلته أثناء انتخابات المجالس في اطار سياسة فرق تسُدْ.

النظام الاستعماري

بمجرد دخول الفرنسيين إلى أرض الجزائر أصدروا مجموعة من القوانين الجائرة تهدف كلها إلى التمييز العنصري والسيطرة على الشعب الجزائري، ففي يوم 22 جويلية 1834 م أصدرت المملكة الفرنسية مرسوما ضمت بموجبه الجزائر إلى فرنسا، وأصبحت تسير بواسطة الأوامر الملكية وعينت عليها حاكما عاما عسكريا يديرها. ولتسهيل السيطرة على العباد والبلاد أنشأوا سنة 1844 م المكاتب العربية، وهي عبارة عن همزة وصل بين الجنس الأوروبي والأهالي تهدف إلى استتباب الأمن وحماية المصالح الفرنسية، يسيرها ضباط فرنسيون ذو سلطة مطلقة مكلفين بالشؤون الحربية والأمن والعدالة والضرائب ومصادرة الأراضي ومراقبة تحركات سكان البوادي، ويعينهم في مهامهم بعض الجزائريون من القياد والآغوات والباشاغات كجواسيس يتمتعون بامتيازات متعددة منها الاعفاء من الضرائب وأجرة شهرية ثابتة، وقد عنى الشعب الجزائري الكثير من تعسف هذه المكاتب وأعوانهم العرب للظلم الذي لحق بهم وللضريبة الجائرة المفروضة عليهم. وطبقا للدستور الفرنسي المصادق عليه عام 1848 م أصبحت الجزائر رسميا بموجب المادة 109 منه مقاطعة من المقطعات الفرنسية، وقسم شماله إلى ثلاث عمالات وهي: الجزائر، وهران، قسنطينة، أمّا الصحراء فخضعت للقوانين العسكرية، وقسمت كل ولاية إلى نوعين من البلديات: البلديات المختلطة، وهي التي تضم أغلبية جزائرية وأقلية أوروبية يحكمها اداري فرنسي بمساعدة لجنة بلدية متكونة من الأوروبيين وبعض الأعوان الأنديجان يخضع فيها الأوروبيون للقوانين الفرنسية والجزائريون للقانون العسكري، وكان رئيس البلدية يتمتع بسلطات مطلقة يحق له ادانة أي جزائري بدون تهمة، ولم يهتم اطلاقا بتحسين المستوى المعيشي للجزائريين بل بالعكس كان بالنسبة لهم أداة قمع واضطهاد، وهمه الوحيد خدمة مصالح المستوطنين الأوروبيين، وبالمقابل أسست بلديات أوروبية يسكنها المعمرون الأوروبيون وتخضع للنظم والقوانين المطبقة في فرنسا. وعند زيارة الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث عام 1860 م للجزائر لاحظ بنفسة المأساة التي لحقت بالشعب الجزائري وأعلن "أن المسألة الجزائرية خرجت عن السياسة المسطرة لها من يوم أن سميت مستعمرة". وأعلن "أن الجزائر ليست مستعمرة بمعنى الكلمة وإنما مملكة عربية" ورغم محاولته لاصلاح أحوال الآهالي، إلا أن سياسته لم تطبق في أرض الواقع، وبمناسبة زيارته للمرة الثانية للجزائر في شهر ماي 1865 م قال للآهالي"

بأن فرنسا لم تأت للقضاء على جنسية شعب ولكن أرغب في تحسين مستواكم المعيشي و مشاركتكم في الحياة السياسية لبلدكم". وبأمر منه صدر يوم 14 جويلية 1865 م قانون سيناتوس كنسيلت Senatus Consulte، والذي سمح بموجبه للجزائريين الحصول على الجنسية الفرنسية مع الاحتفاظ بأحوالهم الشخصية، كما مكن للأنديجان التمتع بالمواطنة الفرنسية بطلب التجنس، وفي هذه الحالة يطبق عليه القوانين المدنية والسياسية الفرنسية. وكان الغرض من هذا القانون ادماج الشعب الجزائري في المجتمع الفرنسي. فمن الجزائريين وهم أقلية طلبوا الجنسية الفرنسية فأصبحوا مواطنين فرنسيين والأغلبية الساحقة رفضوا التجنس واعتبروا هذا القانون تَخَلٍ عن دين الاسلام واعتداء على الشخصية الجزائرية. ولكن بمجرد سقوط حكم الامبراطور بفرنسا عادت أوضاع الجزائريين إلى أسوءٍ ما كانت عليه من قبل، فأصبح الحكم في الجزائر بيد المعمرين الأوروبيين يملون سياستهم على الحكام المدنيين وهؤلاء يسيرونها حسب مزاجهم.
ولهذا أصدرت الجمهورية الفرنسية سنة 1871 م قانون الأهالي أو ما يسمى بقانون الأنديجينا، وتم تدعيمه في عهد الرئيس جول فيري Jules Ferry يوم 28 جوان 1881 م، وهو بمثابة قانون أرقاء عنصري جعل من الجزائريين عبيداً لا يتمتعون من خلاله بأبسط الحقوق السياسية والمدنية، يخول بموجبه للسلطات الحاكمة في الولايات والبلديات توقيع العقوبات على الجزائريين ومصادرة ممتلكاتهم دون محاكمة. من أجل المحافظة على النظام الاستعماري، الغاء القضاء الاسلامي وإجبار الجزائريين على التقاضي أمام المحاكم الفرنسية، حصر الأهالي في مناطق محددة ومنعهم من أداء فريضة الحج أو جمع الخشب من الغابات أو التجول خارج الدوار بدون رخصة، فرض عقوبات جماعية على المخالفات الفردية، فرض ضرائب تعسفية واضافية زيادة على ما كانوا يدفعونه، فرض غرامات فردية وجماعية، وضع أي شخص مشكوك فيه تحت الاقامة الجبرية الخ. وكان الغرض من قانون الأنديجينا هو القضاء الفوري على بذور أية مقاومة يمكن أن تخطر على بال الجزائريين ضد الوجود الاستعماري في بلادهم، ولم يلغ هذا القانون وجميع القوانين الاستثنائية المطبقة على الجزائريين إلا بالمرسوم الممضي يوم 7 مارس 1944 م من طرف الجنرال ديغول.

المقاومة الشعبية

ولم تتوقف المقاومة الشعبية بمجرد دخول الفرنسيين مدينة الجزائر، بل واصل الجزائريون تنظيم أنفسهم في الشهر الأول من الاحتلال، وبينما اعتنى حضر مدينة الجزائر و هم أحفاد عرب الأندلس بالمسائل السياسية أمثال حمدان خوجة، تكفل بومزراق باي التيتري بعد نقذه للاتفاق الذي أبرمه مع فرنسا بالثورة المسلحة لكن مقاومته لم تدم طويلا فقبض عليه ونفي إلى الاسكندرية وعين مكانه عميل جزائري مصطفى بن عمار، لكن ابنه أحمد بومزراق واصل الجهاد ضد الجيش الفرنسي والباي الجديد بن عمار، ولمّا أعلن الأمير عبد القادر الثورة انضم اليه رفقة قواته. أمّا المرابطون من سكان مدينة حجوط والقليعة ومتيجة فكانوا في الطليعة الأولى للجهاد في سبيل الله، ومن أمثلة ذلك قبيلة فليسة بسهل متيجة والتي تصدت لأول محاولة قام بها الجنرال دي بورمون أثناء زحفه إلى مدينة البليدة، ومن ذلك اليوم اشتهر من بينهم شخص يسمى ابن زعمون قاد الثورة ضد الاحتلال وانضم إلى قواته ثائر أخر يدعى الحاج سيدي السعدي. ومن أهم الأعمال التي قام بها ابن زعمون مهاجمته يوم 26 نوفمبر 1830 م للمعسكر الفرنسي بالبليدة وقتل على اثرها 50 جنديا فرنسيا، مما أدى بالجنرال كلوزيل إلى اصدار أمر بسحب قواته إلى مدينة الجزائر، وطرده للمعمرين الأوروبيين الذين بدأوا في احتلال سهول متيجة، وانتقل الخوف إلى السكان الأوروبيين لمدينة الجزائر، مما أدى بالبعض في التفكير للعودة إلى أوروبا. ولم تتوقف مقاومة ابن زعمون في حدود متيجة بل أصبح يناوش العدو حتى في مدينة الجزائر. وهذا ما فعله في صائفة 1831 م بمهاجمته للمراكز العسكرية الفرنسية الموجودة بالحراش. وإثر المعركة التي دارت بينه وبين الجيش الفرنسي في بوفاريك في خريف 1831 والتي أدت إلى تحطيم قواته وتشتيتها، قرر ابن زعمون الانسحاب. أما رفيقه في الجهاد سيدي سعدي التحق بصفوف جيش الأمير عبد القادر. وهكذا بالرغم من قلة الامكانيات المادية لهؤلاء الثوار استطاعوا ان يصمدوا أمام جيش فرنسي منظم وقوي، ومهدوا الطريق لثورة شعبية عارمة قادتها دولة الأمير عبد القادر.

الأمير عبد القادر

1832 م – 1847 م

بعد سقوط مدينة الجزائر في يد الجيش الفرنسي بعث الجنرال كلوزيل برسائل إلى كل من باي قسنطينة ووهران. فرفض الأول الاستسلام وقاوم العدو بينما رضخ الثاني لأوامر فرنسا واستسلم لهم بدون مقاومة. فرحل عن الجزائر إلى المشرق، فاستولت فرنسا على المرسى الكبير يوم 12 ديسمبر 1830 م وعلى وهران يوم 4 جانفي 1831 م. وأثناء سقوط مدينة الجزائر ورحيل باي وهران حسن حدث فراغ سياسي بالغرب الجزائري، فبعث حضر سكان تلمسان بوفد إلى سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام يطلبون منه الحماية وبعد تردد قبلها، فأرسل في شهر نوفمبر 1830 م خليفته مولاي سليمان رفقة قوة من الجيش المغربي ليتولى حكم تلمسان. فاحتج الجنرال كلوزيل على هذا التدخل في الجزائر وهدد المملكة المغربية، إلا أن سلطان المغرب لم يأخذ تهديداته بجدية وواصل عمله وعين هذه المرة محمد بن الحمري خليفة له على تلمسان، فقام هذا الأخير بالاستيلاء على الغرب الجزائري ماعدا وهران و امتد نفوذه حتى ولاية التيتري. وهذه المرة شعر الفرنسيون بالخطر يهدد وجودهم فبعثت له الحكومة الفرنسية مذكرة احتجاج وأرسلت إلى سواحل مدينة طنجة المغربية يوم 18 نوفمبر 1831 م سفينتين حربيتين، وأمام هذا الضغط الدبلوماسي والعسكري استسلم في الأخير السلطان المغربي لأوامر الملك الفرنسي لوي فيليب وسحب قواته من التراب الجزائري. ولملء الفراغ السياسي في الغرب الجزائري بادر الجنرال كلوزيل إلى تعيين باي تونس حاكما على وهران وهذا بعد الاتصالات التي أجراها قنصل فرنسا في تونس و تجسدت في الاتفاقية التي تمت بينهم يوم 4 فيفري 1831 م. وهذا مقابل دفع ضريبة سنوية لحكومة فرنسا. إلا أن المحاولة فشلت لأن قوات الباي كانت قليلة و وجد أمامه خزينة فارغة من الأموال فعادت قواته إلى تونس.

فالتجأ عندئذ سكان الغرب الجزائري إلى شيوخ الزاويا. ولم يجدوا أفضل من شيخ زاوية القادرية محي الدين الذي كان مشهوراً بتقواه. فطلبوا منه الامارة فرفضها وقبل الجهاد في سبيل الله والوطن وبادر رفقة ابنه عبد القادر والقبائل المدعمة له بهجومات على العدو الفرنسي المتواجد بمدينة وهران، والتقى الطرفان يوم 29 ماي 1832 م في معركة خنق النطاح ألحقوا خلالها بالعدو الفرنسي هزيمة

نكراء أجبرتهم على الانسحاب، ثم هاجمهم للمرة الثانية المجاهدون الجزائريون وهذه المرة بقيادة عبد القادر، وأحدثوا في صفوفهم الرعب والموت واستولوا على العديد من أسلحتهم وذخيرتهم، مما دفع بالجنرال الفرنسي بوايي Boyer إلى الاستنجاد بالحاكم العام في مدينة الجزائر إلا أن قواته الاضافية لم تنقص من عزم المجاهدين و تصدوا لهم بكل شجاعة.

البيعة

ورغم الانتصارات التي أحرز عليها الجزائريون لكنهم كانوا على علم بأن المعركة لازالت طويلة، ولهذا عرضت قبائل الغرب وللمرة الثانية من الشيخ محي الدين الامارة، لكنه اعتذر لكبر سنه واقترح عليهم ابنه عبد القادر وهذا لما برهن عليه من قدرة وشجاعة في إدارة المعارك السابقة مع العدو الفرنسي، فقبل الجميع هذا الاقتراح واجتمع رؤساء قبائل الغرب الجزائري في سهل غريس يوم 27 نوفمبر 1832 م وبايعوا الشاب الأمير عبد القادر الذي كان يبلغ أنذاك 24 سنة على الطاعة والاخلاص والموت في سبيل الله والوطن، وجاء نص البيعة كالآتي : "بعد انعقاد البيعة للإمام المعظم والأمير الجليل المفخم، ابن أخينا، السيد عبد القادر محي الدين، أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بأمور أهله ... بايعناه على السمع والطاعة وامتثال الأمر ولو في الولد الواحد منا، أو نفسه، وقدمنا نفسه على أنفسنا و حقه على حقوقنا". وبمجرد مبايعته خيّر زوجته بين البقاء معه و قبول مسؤوليته الكبيرة و بين اختيار الحرية فالانفصال عنه.

وولد الأمير عبد القادر بن محي الدين يوم 06 سبتمبر 1808 م في قرية القيطنة بمعسكر، حفظ القرآن وأصول الشريعة والحديث والأدب وتعلم الحساب والتاريخ والجغرافيا وعلم الفلك، ثم أرسله أبوه سنة 1821 م إلى وهران ليكمل دراسته، أدى فريضة الحج مع والده سنة 1827 م، ثم زار بغداد ودمشق والقاهرة وتونس، وقد استفاد من هذه الرحلة فوائد جمة ساعدته بعد ذلك في بناء الدولة الجزائرية، وبالإضافة إلى حنكته السياسية والعسكرية فقد كان رجل علم وأدب وشعر وحكمة وكلمة وانساني، ومن مؤلفاته ديوان شعر، كتاب المواقف، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والالحاد، نزهة الخاطر في قرض الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، و توفي الأمير بمنفاه في دمشق إثر مرض يوم 26 ماي 1883 م في سن 74سنة وسار حول نعشه موكب مهيب من الجماهير وقناصل دول العالم ودفن بجوار معلمه ابن العربي، وفي يوم 5 جويلية 1966 م نقلت رفاته من دمشق ليدفن بمقبرة العالية في مربع الشهداء

بالجزائر العاصمة. وهذه أوصافه وأخلاقه كما ذكرت في كتاب أبو العيد دودو بعنوان "الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830 م- 1855 م: "الأمير عبد القادر قصير القامة، نحيف الجسم، ولكنه جميل المظهر، شديد بياض البشرة، عيناه زرقاوان يخالط زرقتهما لون رمادي، وهما تشعان في جمال خاصة حين يتكلم بحيوية. وله لحية وشارب شديد السواد، غير أنهما ليس كثيفين، وقد كسر نصف أحد أسنانه الأمامية، أما أسنانه الباقية فليست جميلة كما هو الحال عند أغلب العرب. صوته عميق حلو النغمة، والحماس الديني أبرز ملامح الأمير، وعلى جبينه ووجنته ويده اليمنى وشم صغير. أما ثيابه فانها في منتهى البساطة، فهي أقل جمالا من ثياب بقية الشيوخ. و يرتدي الأمير عادة حائكا أبيض ويلبس فوقه برنوسا مصنوعا من شعر البعير، ومن الصعب أن يصل الإنسان إلى معرفته بين جمع غفير من العرب، إلا أنّ سلاحه وسرجه يمتازان بنوع من الفخامة. وحياة الأمير بسيطة كثيابه، فهو يسكن، منذ أن هدم قصره في معسكر، خيمة عادية لا يتركها إلى قصره الجديد في "تقدامت" إلا لمدة قصيرة. وطعمه زهيد، ولا يخشى الأمير الجوع ولا التعب، ويعتبر أحسن الفرسان في بلاد الجزائر. وفي المعركة يحمل فوق رأسه سمشية مذهبة، وعلى جانبي فرسه يسير عبيده من الزنوج. والعرب يجلون أم الأمير، واسمها زهرة، غاية الإجلال، وذلك أمر غير عادي بالنسبة لامرأة مسلمة. فهذه المرأة العجوز، التي كان سيدي محي الدين يفضلها على غيرها من نسائه لهدوئها ورزانتها، كثيراً ما تحدث عنها من رأها من الأوروبيين بإعجاب كبير. وكانت تعرف أوضاع البلاد وظروف ابنها مع الكفار معرفة جيدة، دون أن تخفي كرهها الشديد لهم، وقد أكسبها عطفها على المرضى والفقراء حب جميع التعساء والأشقياء ...الخ ".

بناء الدولة

وبمجرد مبايعته شرع الأمير عبد القادر في بناء الدولة الجزائرية الفتية على أسس اسلامية مستمدة قوانينها من القرآن والسنة، وفي نفس الوقت عصرية شورية تستمد قوتها وشرعيتها من الشعب قولا وفعلا. فاستغل فترة الهدنة التي أبرمها مع فرنسا في معاهدة دي ميشال والتافنة، لتوحيد شمل الأمة حول الجهاد، فشكل حكومة بسيطة من حيث التكوين وفعالة في أرض الواقع، ومجلس شوري يضم 11 عضوا من العلماء والفقهاء يمثلون مختلف مناطق الإمارة، وقسمت هذه الأخيرة إلى ثمان ولايات وهي: معسكر وخليفتها السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي، تلمسان وخليفتها السيد محمد البوحميدي الولهاصي، مليانة وخليفتها

السيد محي الدين بن علال القليعي ثم خلفه محمد بن علال. المدية وخليفتها السيد محمد البركاني، الزيبان وتداول على رئاستها كل من السادة فرحات بن سعيد وحسان بن عزوز ومحمد الصغير بن عبد الرحمن، سطيف وتداول عليها كل من السادة محمد بن عبد السلام المقراني ومحمد الخروبي ومحمد بن عمر العيسوي، برج حمزة (البويرة) وخليفتها السيد أحمد بن سالم الدبيسي، الصحراء الغربية وخليفتها السيد قدور بن عبد الباقي. وتنقسم الولاية بدورها إلى دوائر يحكمها أغا وتشمل هذه الأخيرة على قبائل (بطون و عشائر) وجعل على رأس كل قبيلة قائداً. وعلى رأس كل بطن وعشيرة شيخا، ويخضعون كلهم إلى السلطة المركزية فتصدر إليهم الأوامر حسب التسلسل. والعكس، ويتقاضون أجورهم من خزينة الدولة الممولة من الضرائب المتمثلة في الزكاة والعشور والمعونة والمخالفات. ويتكفل الخليفة إلى جانب تحصيل الجباية والمحافظة على الأمن بالمسائل الإدارية المدنية والعسكرية. ولا يتم اختيار المسؤولين في الدولة إلا طبقا لشروط معينة وهي الكفاءة والنزاهة. أما القضاة فإلى جانب هذه الخصال الحميدة يجب أن يتوفر فيهم العلم الواسع بأمور الشريعة الاسلامية. ويتم تعيينهم لمدة سنة يمكن تجديدها، ويحق لأي شخص أن يطعن في أحكامهم أمام قاضي القضاة. وتتمتع السلطة القضائية باستقلال عن السلطة التنفيذية. واختار الأمير مدينة معسكر عاصمة لإماراته. ولم يكتف الأمير ببيعة قبائل الغرب بل زار معظم مناطق مملكته في الشمال والجنوب الجزائري لأخذ البيعة من سكانها، كما حارب في نفس الوقت القبائل التي رفضت الجهاد وتمردت عليه مثل شيخ التيجانية لمنطقة عين ماضي بالقرب من الأغواط، وألغى جميع العادات البالية التي كانت موجودة في العهد التركي والمتمثلة خصوصا في امتيازات قبائل المخزن، فكانت دولة عدل وحق. وإلى جانب هذه الأعمال، اعتنى الأمير عبد القادر بالعلم والعلماء فشجع الزاويا التعليمية وشيد المدارس يدرس فيها بالمجان، ويتقاضى المعلمون أجورهم من أموال الأوقاف، وتشجيعا لطلب العلم أعطى أوامر بإحترام المثقفين وأعفائهم من الضرائب. كما اهتم بالكتب فكان يملك مكتبة خاصة بالزمالة. لكن همه الكبير وشغله الشاغل كان يتمثل في طرد الاستعمار الفرنسي من كامل التراب الجزائري وكان يدرك أن المعركة لازالت طويلة وأنه يواجه أقوى دولة في العالم آنذاك. ولهذا اعتنى كثيرا بتنظيم الجيش والذي كان الشعب كله مجنداً في صفوفه. إلا أنه بعد خوض المعارك الأولى أدرك أنه يفتقر للحرافين لأنه كان متكونًا من المتطوعين أغلبهم فلاحين وتجار. ولهذا أعاد تنظيمه فشكل جيشا نظاميا دائمًا على النمط العصري تتولى الدولة الانفاق عليه ومستعدا للمواجهة في

أي وقت. ولهذا الغرض استخدم بعض الجنود الفارين من الجيش الفرنسي لتدريبهم، وفتح لهذه الغاية ثكانات عسكرية مخصصة لهم. ولم يتجاوز عدد الجيش النظامي 10000 جندي. كما أسس الأمير عبد القادر عدة مصانع لانتاج الأسلحة. وفي هذا المضمار يقول "كنت أصنع البارود في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاقدمت ... أقمت في تلمسان مصنعا للمدافع. وكان يسيره هارب اسباني قدم إلي من المغرب. ولم يبدأ المصنع في الانتاج إلا بعد مجهودات وصعوبات ولكنه في النهاية بدأ ينتج. وكان بإمكاني أن أحسنه لو سمحت الظروف. ومن ناحية أخرى كان هناك معمل للأسلحة في مليانة وكان يستخرج الحديد من منجم نستعمله غير بعيد عن المعمل. وهذا المعمل قام بتنظيمه عامل فرنسي أتى به الميلود بن عراش من فرنسا لدى توجهه إليها بعد معاهدة تافنة - ليسلم إلى الملك هداياي. كنا نصنع السلاح بجميع قطعه ...". إلى جانب هذا كان يشتري الأسلحة المهربة من الصحراء والمغرب وتونس. وأسلحة جيش الأمير تحتوي على السيوف والبنادق والمسدسات والمدفعية، وينقسم الجيش إلى المشاة والخيالة والمدفعية منظم في اطار رواتب ويخضع للقوانين العسكرية، وتتميز كل قوة من هذه القوات الثلاثة بلباس عسكري خاص بها، كما اعتنى بالجانب الصحي ففتح مستشفيات وصيدليات في كل ولايات الامارة وزودها بأطباء، وحارب الفساد مثل لعب الميسر والخمر والرشوة الخ. إلى جانب هذا شيد مدينة تاقدمت وجعلها مركزا اقتصاديا وتجاريا مهما، وبنى الكثير من الحصون والقلاع في مختلف الولايات التابعة لمملكته وصك العملة وشجع الفلاحة والتجارة. وبهذا يعتبر الامير عبد القادر مؤسس أول دولة جزائرية عصرية بعد دولة عبد الواد الزيانية.

حروب الأمير عبد القادر

كان أول هجوم قاده الأمير بعد البيعة هو مهاجمة قوات الجنرال بوايي Boyer التي لم تستطع مواجهته، فغيرت الحكومة الفرنسية بوايي وبعثوا مكانه الجنرال دي ميشال كقائد للقوات العسكرية الفرنسية على مدينة وهران المحتلة من قبلهم. فحاول فك الحصار الاقتصادي المضروب على وهران من طرف الأمير عبد القادر. ولهذا قام بشن بعض الهجومات على القبائل القريبة من وهران لغرض تموين جيشه، ارتكب خلالها جرائم ضد سكانها. وتم أول هجوم يوم 7 ماي 1833، من بعدها استولى يوم 4 جويلية 1833 م على مدينة أرزيو بدون مقاومة تذكر فوضعوا حامية فيها و قاموا بتحصين الميناء، فشدد عليهم الأمير الحصار الاقتصادي ومنع السكان من تموينهم بالأغذية، فبادر دي ميشال بمهاجمته في عاصمته الزماله لكن

قوات الأمير أجبرتهم على الانسحاب بعد أن كبدتهم بخسائر، وأمام هذا الوضع اضطر الجنرال دي ميشال الدخول في مفاوضات سلم مع الأمير، فأرسل إليه وفدأ حول هذا الموضوع وبعد تردد ومشاورة المجلس الشوري قبل الاتفاق الذي تم التحدث حوله خارج وهران، وحررت الوثيقة بالعربية والفرنسية أبرمت بينهم المعاهدة يوم 24 فبراير 1834 والتي كانت في فائدة الأمير، فبعث دي ميشال الوثيقة إلى ملك فرنسا للتصديق عليها، وبهذا اكتسب الأمير عبد القادر اعترافا رسميا من فرنسا به كأمير للبلاد على معظم الاقليم الجزائري ماعدا وهران أرزيو مستغانم الجزائر العاصمة وبايلك الشرق. ولكن الأوضاع تغيرت بمجيئ الحاكم العام الكونت دوري دورلون والجنرال تريزل خلفا لدي ميشال حيث لم يعترف هذا الأخير بسلطة الأمير، وفي هذه الفترة قام رجل اسمه موسى بن الحسن ويعرف ب "أبي حمار" جاء من قبيلة أولاد نايل ادعى بأنه المهدي المنتظر واستولى على المدية، فسير له الأمير عبد القادر جيشة الذي اصطدم معه يوم 22 أفريل 1835 م فشتت جمعه، وتمكن أبي حمار من الفرار، فعيَن الأمير محمد بن عيسى البركاني خليفة على ولاية التيتري. وقد أزعج هذا العمل الحاكم العام الفرنسي فبادر يوم 19 جوان 1835 الجنرال تريزل رفقة قوته الضخمة المقدرة بخمسة آلاف جندي إلى نقض معاهدة دي ميشال وذلك بالتوغل داخل أراضي الامارة، فعسكر في تليلات في محاولة للهجوم عليه، لكن قوات الأمير المكوَنة من ألف فارس كانت تراقب تحركاته فبادرت بالهجوم عليه يوم 28 جوان 1835 م في معركة المقطع كبدت خلالها العدو الفرنسي هزيمة نكراء في الأرواح والعتاد حيث قتل و جرح أثنائها 500 جندي من بينهم العقيد أودينو الذي قتل في المعركة، فكان لهذا الانتصار دوياً كبيراً لدى الشعب الجزائري استبشر به خيرا، أمّا بالنسبة للحكومة الفرنسية فاعتبرته عاراً في جبين فرنسا، ولهذا قامت بعزل الحاكم العام دروي دورلون Drouet d'Erlon واستبدلته بالجنرال كلوزيل Clauzel الذي أمدته بقوات عسكرية وأسلحة اضافية للتصدي للأمير، فخرج يوم 27 نوفمبر 1835 م بقواته المدججة بالسلاح لقتال الأمير، لكن قوات هذا الأخير تمكنت من احداث بعض الخسائر في صفوفهم، إلا أنَ الماريشال كلوزيل توصل إلى الاستيلاء على مدينة معسكر يوم 7 ديسمبر 1835 بدون مقاومة والتي وجدها خاوية عند دخوله لها، فقام بتخريب المساكن وحرق ممتلكات السكان، وبإذنٍ من وزير الحربية قام بحملة على مدينة تلمسان واستولى عليها يوم 13 جوان 1836 م ووضع بها حامية عسكرية، ولمّا غادر كلوزيل الجزائر سنة 1836 م ترك الغرب الجزائري تحت قيادة الجنرال دارلانج وأمره بتحصين مدينة معسكر وإنشاء قاعدة مواصلات بينها وبين تلمسان، وعندما

كان يحاول دارلانج فتح الطريق إلى تلمسان. وبالقرب من واد التافنة حاصرت قوات الأمير عبد القادر جيشه وألحقت به خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد جرح أثناءها الجنرال دارلانج، وبقي الجيش الفرنسي محاصر من كل اتجاه، فأرسلت الحكومة الفرنسية الجنرال بيجو لنجدته ووصل رفقة جنوده إلى واد تافنة يوم 23 ماي 1837 م واستطاع أن يفك الحصار الذي فرضه جيش الأمير على الحامية الفرنسية، من بعدها عرض الجنرال بيجو على الأمير عبد القادر الصلح فرفضه في المرة الأولى لأنّ شروطه كانت تعتبر استسلاماً. فكرّر بيجو الطلب ولكن هذه المرة بشروط معقولة، فأدخل عليها الأمير تعديلات وبعد استشارة مجلس الشوري قبلها، فوقع الطرفان يوم 30 ماي 1837 م على معاهدة تافنة. تعترف فيها فرنسا بسلطة الأمير على كامل التراب الجزائري، ماعدا بايلك الشرق ووهران ومدينة الجزائر والبليدة والقليعة ومتيجة، وأعادت له بالمقابل رشقون وتلمسان. فاستغل الأمير عبد القادر هذه الفترة في تدعيم نظام دولته وتوسيع رقعة الامارة. بينما استفاد منها الجيش الفرنسي في احتلال الشرق الجزائري وعلى رأسها قسنطينة. وحاول الأمير ضمها إلى إماراته لكن لم يستطع. وبادر الماريشال فالي Valé إلى خرق المعاهدة عندما قام رفقة جنوده وابن ملك فرنسا الدوق دورليان Duc d'Orléans بالمرور على المناطق التابعة لاماراته متوجهين إلى قسنطينة بدون إذن منه، فاحتج الأمير على هذا التصرف وبعث له رسالة يوم 18 نوفمبر 1839 م يعلن فيها استئناف الحرب، فشنت قوات الأمير حربا شاملة على المراكز العسكرية الفرنسية والمعمرين خصوصا في متيجة والغرب كبدت خلالها الجيش الفرنسي خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد وغنموا فيها أسلحة وذخائر، وفي 2 فيفري 1840م خرج الماريشال فالي رفقة قوة ضخمة متوجها إلى المدية للاستيلاء عليها، فتصدى له خليفة الأمير لولاية مليانة و دامت المعركة بينهم يوما كاملا تضرر فيها الطرفان، ولكن أجبرت الماريشال فالي على العودة إلى مدينة الجزائر، من بعدها سير جيشه نحو شرشال فقاومه سكانها بشجاعة، وأمام هذه الأوضاع المزرية على الجيش الفرنسي تدفقت الامدادات من القطر الفرنسي، وفي يوم 11 أفريل 1840 م التقى جيش الأمير بالقوات الفرنسية بقيادة أبناء الملك الدوك دورليان والدوك دومال بموزايا كانوا متوجهين لاحتلال المدية، فنشبت معركة دامية بينهم ولم يتمكن العدو الفرنسي من دخول مدينة المدية يوم 9 جوان 1840 إلا وهي خراب فتركوا بها حامية، وعند عودتهم متجهين إلى مدينة الجزائر تصدت لهم قوات الأمير من جديد، ثم دخل الجيش الفرنسي في معركة كبيرة مع الأمير عبد القادر بمليانة، ولم يتوصلوا إلى احتلالها إلا بعد أن ألحق بهم خسائر كبيرة. وفي أول جانفي

1841 م حل الجنرال بيجو كحاكم عام مكان فالي فطبق سياسة الأرض المحروقة والإبادة ضد القبائل المتمردة والمساندة للأمير، فزحف رفقة قواته التي قدرت من 83000 عام 1842 إلى 108000 سنة 1846 م على معسكر وتادميت وسعيدة والمدية، واستولى على تلمسان سنة 1842 م وفي يوم 16 ماي 1843 م سقطت الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير في يد قائد الجيش الفرنسي الدوق أومال duc Aumale والمتكونة من حوالي مائتي ألف نسمة من الرجال والنساء، فأسروا سكانها علاوة على ثلاثة آلاف من الجنود النظاميين، إلا أنّ عبد القادر لم يكن موجوداً يومها فحزن كثيرا لهذا الحدث و قال لأصحابه "الحمد لله. أنّ كل تلك الأشياء التي كنت أقدرها حق قدرها والتي كانت عزيزة على قلبي والتي شغلت عقلي كثيرا، لم تؤد إلى إعاقة حركاتي وحولتني عن الطريق الصحيح. أما في المستقبل، فسأكون حرا في محاربة الكفار". وأمام هذا الوضع غير المتكافئ عدة وعددا غير الأمير استراتيجيته الحربية معتمدا على التكتيك النوميدي، بمعنى أنه لا يحارب العدو إلا اذا رأى الظروف ملائمة لصالحه فيستدرجه في الاتجاه الذي يريده ويباغته قبل أن يهجم عليه مستفيدا من سرعة التنقل، حيث يخرج على العدو في المكان الذي لا ينتظره فيه، فمرة في جرجرة ومرة في المدية ومرة في الصحراء ومرة في الغرب الجزائري، ورغم الامدادات الكبيرة للقوات الفرنسية إلا أنّ الأمير لم ييأس فواصل معركته وشن عدة هجومات على الجيش الفرنسي حيث انتصر عليه في معركة واد الحمام يوم 24 جويلية، وسيدي يوسف يوم 22 سبتمبر 1843 م، ولسبب الضغط الشديد عليه انسحب سنة 1843 رفقة قواته إلى الأراضي المغربية التي اتخذها كمنطلق لإعادة تنظيم جيشه، وسبب وجوده فيها قنبلة ميناء طنجة يوم 6 أوت 1844 م ونشوب حرب بين الجيش الفرنسي والمغربي انهزمت على إثرها القوات المغربية في معركة اسلي يوم 14 أوت 1844 م، وحلت الأزمة بينهما عن طريق معاهدة طنجة المبرمة يوم 10 سبتمبر 1844 م، تعهد فيها الملك المغربي عبد الرحمن بطرد الأمير عبد القادر من أراضيه. وسمحت للجانبين فيما بعد بعقد اتفاقية لالا مغنية يوم 8 مارس 1845 م، تم بموجبها ترسيم الحدود الجزائرية المغربية. فخرج منها الأمير عبد القادر لمواصلة الجهاد ولم يستسلم رغم عروض الماريشال بيجو، فهزم رفقة قواته المقدرة ب 2000 فارس الجيش الفرنسي في شهر سبتمبر 1844 م في كل من جبل كركور وسيدي موسى. وفي سنة 1845 م استأنف بومعزة الجهاد بسهل الشلف، واستطاع أن يجند معظم قبائل المنطقة (الظهرة، سهل الشلف، الونشريس) تحت لوائه لمواصلة الكفاح ضد المحتل الفرنسي، وفي هذه الفترة ظهر الأمير عبد القادر من جديد بالغرب الجزائري، فانضم المجاهد

بومعزة إلى صفوفه وعينه عبد القادر خليفة له. وتمكن يوم 23 سبتمبر 1845 م من القضاء على قوات العقيد مونتانياك Montagnac بالقرب من سيدي براهيم بالغرب الجزائري وألحق بهم خسائر كبيرة أعادت الثقة لأنصاره. وأسر من بعدها يوم 27 سبتمبر 1845 م على 96 جنديا فرنسيا بالقرب من عين تيموشنت، وبدون مقاومة تمكن الأمير يوم 28 سبتمبر 1846 م من أسر كتيبة فرنسية بكاملها متكونة من 200 جندي كانت متوجهة من تلمسان إلى عين تيموشنت. واستولى على ذخيرتهم. وفي عام 1847 م استسلم أحسن قواده بومعزة في تيارت و احمد بن سالم في نواحي سور الغزلان. فضعفت المقاومة في الداخل واشتد على الأمير الضغط من الداخل. فانسحب إلى المغرب وهناك أرغم على الدخول في معركة مع الجيش المغربي اجبره على الانسحاب منها، وعندما كان مطاردا من الجيش المغربي وهو متوجه رفقة جنوده إلى سيدي براهيم بالغرب الجزائري وقع في كمين في الحدود المغربية الجزائرية حيث كانت قوات لاموريسيير la Morcière في انتظاره وتراقب تحركاته، فوجد الأمير عبد القادر نفسه محاصرا من كل الجهات، وتفاديا لاقحام جيشه القليل ونسائهم و ولادهم في عملية انتحارية ضد الجيش الفرنسي وبعد استشارة أصحابه استسلم يوم 23 ديسمبر 1847 م بجامع غزوات بشروط منها: أن ينقل الأمير وأسرته إلى عكا في الشام أو الاسكندرية في مصر، أن لا يمنع أحد من مرافقته ممن أراد من جنود وضباط، أن يكون كل من يبقى في البلاد امنا على حياته وماله. إلا أن السلطات الفرنسية خلفت وعدها وسجنته بسجن تولون المتواجد بفرنسا حيث بقي اسيرا مدة خمس سنوات وعندما أطلق سراحه توجه إلى دمشق وقضى هناك بقية حياته في الكتابة والتصوف وتمكن سنة 1860 م من إخماد فتنة طائفية كبيرة ضد المسيحيين العرب أكسبته شهرة عالمية. وعندما كان هناك عرض عليه امبراطور فرنسا نابليون الثالث ليتولى منصب نائب مالك "المملكة العربية" بالجزائر، إلا أنه رفض. وهذا الخطاب الذي ألقاه الأمير عبد القادر على المجلس الشوري، شارحا فيه أسباب توقيفه الحرب "... يا قوم ... إن الأحوال كما ترون ... ولقد أجهدت نفسي في الذوذ على الدين و البلاد. وبذلت وسعي في راحة بني وطني، واقتحمت المهالك، وغصن شبابي رطيب. وأقمت على ذلك ما يزيد على سبعة عشرة سنة إلى أن فقدت المعاضد والمساعد وفنى الطارف من أموالي والتالد... ".

وهذه بعض الشهادات لشخصيات عالمية في الأمير عبد القادر، فيقول الكولونيل الانجليزي اسكوت : "إنّ أعظم الشخصيات في العالم الاسلامي في العصر الحاضر هما : شخصية محمد علي وشخصية الأمير عبد القادر".

أما جاك بيرك فيقول "إنّه أكثر من قائد سياسي- ديني، إنّه يحرك مبدأ الوطنيات الرومنطيقي، ويجمع في شخصيته الفروسية البدوية وإلهام الإسلام وديناميكية القرن التاسع عشر".

ويقول الجنرال الفرنسي دوفيفي الذي حاربه "إنّ القوة الحقيقية لعبد القادر، القوة التي تقاومنا، لها جذور في فكره ... إنّ عبد القادر كان أميرا، لأنّ الحرية قد وضعت ثقتها فيه حتى أعطته سيفها ... إنّه كان رجل التاريخ. إنّ الحرية سوف لن تنساه، إنّها ستردد اسمه".

الحاج أحمد باي

1837 م - 1848 م

كان من الأوائل الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي، وهو كرغلي أي من أب تركي وأم جزائرية، تولى إقليم قسنطينة سنة 1824 م، ولبى نداء الداي حسين أثناء الغزو الفرنسي في شهر جوان 1830 م. وشارك بجيشه في معركة سطوالي تحت قيادة الآغا ابراهيم صهر الداي، وإثر الهزيمة انسحب رفقة من بقي معه من جيشه متوجها إلى ولايته قسنطينة. وأثناء غيابه بمدينة الجزائر قام الأتراك بانقلاب ضده وعينوا مكانه حمود بن شاكر بايا عليهم، ولم يتمكن من دخولها إلا بمساندة محمد بلحاج بن غانة الذي بقي وفيًا له. فأعادوه أنصاره إلى حكمه وبايعوه من جديد على الجهاد، فجمع شمل القبائل وكون مجلسا شورياً وشرع في تكوين الجيش للتصدي للاستعمار الفرنسي، وأغلبه من العنصر الجزائري لعدم ثقته في الأتراك، فقام بتحصين مدينة قسنطينة ودعا القبائل للجهاد. ورغم الرسائل التي تلاقها من قبل الجنرال دوبورمون وكلوزيل للاستسلام والاعتراف بالسيادة الفرنسية مقابل الاحتفاظ بمنصبه بايا على قسنطينة ودفع جزية إلا أنه رفض هذه الشروط وقال بأن الخضوع مخالف للايمان والعقيدة الاسلامية.

فبادر الجنرال كلوزيل إلى عقد معاهدة مع باي تونس سنة 1830 م تم بموجبها تعيين أخيه بايا على قسنطينة، إلا أن الحكومة الفرنسية لم تعترف بهذه المعاهدة. ولكن باي تونس أخذها بجدية وأصبح يطالب بضم قسنطينة اليه ويحرض سكانها ضده ولم يحل هذا الصراع السياسي الا من طرف السلطان العثماني. إضافة إلى هذا استقل علي ابراهيم بمدينة عنابة وتواطأ مع الفرنسيين وعين نفسه بايا عليها، ولكن ابن عيسى مساعد أحمد باي تصدى له وأخرجه من المدينة، ثم دخل في معركة مع الفرنسيين ولكن تغلبوا عليه واحتلوا عنابة سنة 1832 م فأمر أحمد باي من بن عيسى محاصرة الجنود الفرنسيين الموجودين بها اقتصاديا لكنه فشل في استرجاعها، سنة من بعدها يوم 29 سبتمبر 1833 م استولى الجنرال تريزل Trezel على مدينة بجاية بعد مقاومة عنيفة من سكانها. ورغم الوفود التي أرسلها أحمد باي إلى السلطان العثماني لمساعدته ماديا، لم يتلق من هذا الأخير إلا التأييد المعنوي ولقب الباشا. واتصل به في ذلك الوقت القائد العام للجزائر الدوق روفيغو قصد التفاوض معه وفرض عليه شروطا متمثلة

في اعتراف أحمد باي بالسيادة الفرنسية ودفع جزية حربية وسنوية مقابل الاحتفاظ بمنصبه، وقبل هذه البنوذ على شرط استرجاع فرنسا للمناطق التي احتلتها من اقليم قسنطينة بما فيها مدينة عنابة، ثم وصلته رسالة أخرى تحمل شروطا أكثر قساوة فرفضها وأحال الفرنسيين على السلطان العثماني. ولما علم باستعداد الجيش الفرنسي لمهاجمة مدينة قسنطينة، خرج إليهم في شهر نوفمبر 1836 م بقوة عسكرية تضم حوالي 2000 مقاتل وانتصر عليهم في جسر القنطرة حيث كبدهم خسائر كبيرة في الأرواح تقدر بألف قتيل وأجبرهم على الانسحاب رغم تفوق عدوه الفرنسي عسكريا. وإثر هذه الهزيمة عزل الجنرال كلوزيل من منصبه وأستدعي إلى فرنسا. وزاد هذا الانتصار في معنويات القسنطنيين. وبعث أحمد باي رسالة إلى السلطان العثماني يشرح فيها وقائع الحادثة وطلب منه المساعدة، فلبى السلطان هذه المرة نداءه، وأرسل له سنة 1837 م عن طريق تونس أربع سفن حربية محملة بالجنود الأتراك والمدفعية. لكن باي تونس خوفا من فرنسا لم يسمح إلا بنزول المدافع ولم يسلمها لأحمد باي.

وفي سنة 1837 م أبرم الجنرال بيجو مع الأمير عبد القادر معاهدة تافنة. استغلتها فرنسا لتكريس جهودها لغزوّ قسنطينة، فاتصل الجنرال دمريمون Damrémont للمرة الأخيرة بأحمد باي مكررا طلب فرنسا، ولكن الباي أحمد رفض وبعث برسالة إلى القائد الفرنسي وهو محاصر لمدينة قسنطينة يتكلم فيها نيابة عن سكانها ومن جملة ما ذكر "من سكان مدينة قسنطينة المحافظين على دينها وشرفها إلى الجيش الفرنسي المعتدي على حقوقه. لقد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها. نعم إن مركزنا أمسى في خطر ولكن استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العرب الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل آخر واحد منهم، وأعلموا أن الموت تحت جدران مدينتنا أشرف لنا من الحياة تحت علم فرنسا... الخ ". فتلقى القائد الفرنسي أمرا بالزحف على مدينة قسنطينة، فخرج أحمد باي اليهم بجيش قوامه 2500 مقاتلاً و اشتبك مع الجيش الفرنسي مدة ثلاثة أيام قتل خلالها القائد العام للجيش الفرنسي دامريمون Damrémont والجنرال بيريقو Pérrégaux والعديد من الضباط والجنود. فخلف الجنرال فالي Valée مكان دامريمون في قيادة الجيش وتمكن الفرنسيون هذه المرة من دخول مدينة قسنطينة يوم 13 أكتوبر 1837 م بعد أن دمروا أسوارها بالمدفعية. لكن سكانها لم يستسلموا وبقوا يحاربون بشجاعة شارع بشارع وبيت ببيت. وانتقاما منهم قام الجنود الفرنسيون بتخريب ممتلكات السكان والمكتبات وأماكن العبادة وقتل

المقاومين المتبقين برميهم من جسور قسنطينة، ولم يستسلم أحمد باي رغم طلب فرنسا بنقله إلى أي دولة يرغب فيها. بل واصل مقاومته في تعبئة الجزائريين للجهاد ضد الاحتلال الفرنسي فانسحب رفقة جنوده نحو الجنوب متنقلا من قبيلة لأخرى و مهاجما المراكز العسكرية الفرنسية. وعندما تخلى عنه أعوانه استسلم للسلطات الفرنسية يوم 5 جوان 1848 م على شرط ان يسمح له بالهجرة إلى أحد الدول الاسلامية، ولكن فرنسا خلفت وعدها مثلما فعلت مع الأمير عبد القادر وبقي الحاج أحمد باي تحت الإقامة الجبرية بمدينة الجزائر العاصمة إلى يوم وفاته سنة 1850 م ودفن بزاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

مذكرة بن عيسى حول الدفاع على مدينة قسنطينة (1836 م - 1837 م)

في سنة 1836 م. "كلفت أنا بالدفاع عن المدينة في حين خرج الباي على رأس فرسانه لحمايتها من الخارج و منع الفرنسيين من الدخول إليها. وكان عدد الذين شاركوا في مهمة الدفاع 1400 من الجنود المسلحين بالاضافة إلى 1000 شخص من السكان. وقد دافعنا بشجاعة طيلة ثلاثة أيام قمت خلالها بغارة من جهة باب الجابية. ولما كان اليوم الثالث لاحظنا الجيش الفرنسي يرحل عن المدينة. لقد كان هناك من نصحنا، أثناء الحصار، بالتسليم لكنهم دفعوا حياتهم ثمنا لتخاذلهم. تراجع الفرنسيون بشكل فوضوي، وبينما قام الباي باتباعهم حتى رأس العقبة فلم أتبعهم بدوري سوى لوقت قصير، لكني نصحت الباي بمراسلة القبائل في شأن انزالها على الفرنسيين عند... فكان أن أجابني: " ان الفرنسيين لا ينامون على هزيمة، فرجوعهم يوما لأخذ الثأر لا محالة أت وسيكون مروعا وخصوصا إذا ما ألحقنا ضررا بأبناء الملك الموجودين هنا بصفوف الجيش. ولهذا السبب امتنع الباي عن التشدد في الضغط عليهم، أما أهل قسنطينة فقد أسرعوا إلى المنصورة أثناء انسحاب الفرنسيين وقضوا على الجرحى هناك، فقتل الجرحى ليس عملا شجاعا لكن لا يمكن اسناده إلى الرجال الذين خرجوا بحثا عن مخاطر القتال.

في سنة 1837 "رجعنا إلى قسنطينة بدأنا نتدبر كيفية مواجهة الغزو الآتي المهدد، من ذلك أنّ أمر الباي بهدم جميع الأبنية الموجودة خارج أسوار المدينة أي كل ما كان قائما من باب الجابية إلى باب الوادي وما كان بأطراف كوديت عاتي. ولقد أقبل الأهالي من غير ملل على الاستعدادات فأولوا المراقبة كل عنايتهم وحرصوا على أن تبقى فتيلة المدافع مشتعلة من غير انقطاع. لقد كنا جميعا مهيئين

للمقاومة، خاصة وأن الأهالي كانوا يدركون عزم الفرنسيين على الانتقام منه بسبب ما فعلوه بجرحاهم بالمنصورة والثأر لكرامتهم المهانة. فالمقاومة الشجاعة في نظرهم هي منجاهم الوحيد. عمل أحمد باي على تهريب ثرواته خفية في حين لم يسمح للسكان بالعمل مثله. وفعلا فإن إبقاء الثروات داخل المدينة أثناء الحصار وعلى مرأى من أصحابها يجعلهم أكثر تصميما على الدفاع عنها وأكثر عزما لحماية أنفسهم وأموالهم ويجعلهم يتصورون النتيجة في حالة الهزيمة. عملت على ترميم الحواجز وأمرت بحفر خندق وإقامة تحصينات جديدة يسهل به إغلاق شوارع المدينة في الحال، وتجعل العدو في حالة دخوله المدينة أمام عقبة أخرى لابد له من فرض حصار جديد حولها. وبذلك لا أشك في أني أهملت إجراءً واحداً من الاجراءات اللازمة لحماية المركز الذي أسندت إلى حمايته. وكان الذي يساعدني في مهمة الدفاع هو الحاج محمد ابن البجاوي قائد الدار (رئيس القصر) والذي قتل أثناء الحصار".

حمدان بن عثمان خوجة

وهو أحد أثرياء مدينة الجزائر، تولى مناصب عليا في عهد الداي قبل الاحتلال، وكان رجلاً مثقفا، سافر إلى العديد من الدول الإسلامية والأوروبية واطلع خلالها على ما يجري في العالم و خاصة أوروبا من تطورات اقتصادية وسياسية، وعند احتلال مدينة الجزائر عيّنه الجنرال دي بورمون عضوا في المجلس البلدي، واحتفظ بنفس المنصب في عهد كلوزيل. إلا أنّ مواقفه المناهضة للاعتداء على حرمة المساجد جلبت له العداء. وأجبره الدوق روفيغو على الرحيل إلى فرنسا. وهناك اجتمع مع نخبة من الجزائريين المثقفين. ونظم المقاومة السياسية وتولى الدفاع عن القضية الجزائرية، بتنوير الرأي العام الفرنسي والعالمي حول ما يجري بالجزائر، وفي هذا الصدد أرسل حمدان خوجة مذكرات وعرائض إلى الحكومة الفرنسية يناشدها بالتدخل في الجزائر، ومذكرا اياها ببنود معاهدة الاستسلام، ومطالبا بالجلاء الفوري للجيش الفرنسي. وقد أثمرت هذه الجهود في تكوين لجنة افريقية للتحقيق في الجزائر، تم تشكيلها بأمر من مالك فرنسا لويس فيليب يوم 7 جويلية 1833 م وترأسها الجنرال بوني مهمتها دراسة الوضع الشامل في الجزائر وتحديد أسس العمل في المستقبل، ووصلت إلى الجزائر في 2 سبتمبر في السنة ذاتها، واستمعت لممثلي السلطات العسكرية والمدنية وأعيان الحضريين العرب ومن بينهم حمدان خوجة، ووفد عن يهود الجزائر، وقامت اللجنة بجولة في مدينة الجزائر وعنابة ووهران وأرزيو وبجاية، ثم عادت إلى مدينة الجزائر. ومن جملة الاقتراحات التي قدمتها للحكومة الفرنسية: الاحتفاظ بالجزائر تحت اسم ممتلكات فرنسا في افريقيا، وتطبيق النظام الفرنسي خلف للتركي، تشجيع الاستيطان الأوروبي، تشكيل مجلس بلدي مختلط، وتعيين حاكم عام على الجزائر يتولى السلطات المدنية والعسكرية. خلق ميزانية خاصة بالجزائر . كما أقرت الوضعية السيئة للجزائريين، وهذه فقرة من تقريرها الطويل "لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية وجردنا السكان الذين وعدناهم بالأمان وأخذنا الممتلكات الخاصة بلا تعويضات وذبحنا أناسا كانوا يحملون عهد الأمان وحاكمنا رجالا يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم لأنهم كانوا شجعانا لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين". وباختصار كما قال أحد أعضاء اللجنة "لقد فقنا في البربرية هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم". ودار في البرلمان الفرنسي نقاش بين المعارضين والمؤيدين للاحتلال انتصر فيه أصحاب فكرة المحافظة على الجزائر. إلا

أنه في حقيقة الأمر شكلت هذه اللجنة لتبرير الاحتلال، ولم تطبق الحكومة الفرنسية من مقترحاتها الا ما يخدم مصالحها. وهذا ما أدى إلى خيبة أمل حمدان خوجة لأنّ هذه اللجنة لم تحقق ما كان يرجوه، لكنه واصل معركته السياسية بالقلم واللسان ضد الاحتلال بتنشيط مؤتمرات صحفية للتعريف بالقضية الجزائرية، وألف لهذا الغرض كتابا اطلعت عليه لجنة التحقيق عنوانه "المرآة" تكلم فيه عن معانات الشعب الجزائري والأعمال القمعية التي يقوم بها جنرالات فرنسا في الجزائر.

وهذه بعض المقتطفات من رسالته الطويلة التي بعثها إلى صديقه محمود المقيم بالاستانة (تركيا) يحدثه فيها عن حالة الجزائريين، وموقف ملك فرنسا من قضية الجزائر، والأعمال الإجرامية للفرنسيين، ويطلب منه بتبليغها إلى السلطان العثماني محمود خان الثاني. وجاء فيها ما يلي :

"وقد أخذ مجلس الديوان (ديوان المالك) كتابي بعين الاعتبار أثناء تطرقه إلى المسألة الجزائرية واستشهد بأقوالي الواردة فيه بشأن القضية وقد ذكرت هذه الأقوال مفصلة في جريدة مونتور. إنّ موقف الملك وخواصه من القضية الجزائرية يتمثل في الكيفية التي سبقت حسب الجريدة المذكورة آنفا غير أن الأمر يرجع في الأخير إلى أيدي العوام -النواب- الذين يمتلكون العلم أو السنجاق ذو الألوان الثلاثة لأنّ تصرفات الملك مقيدة بإرادة العوام فلا يمكن أن تظهر وتتجلى الا في اطار تنفيذ رأيه وتحقيق ارادته، ومع ذلك فإن العوام لا يعرفون شيئا عن الجزائر وماهيتها إلا المعلومات التي يلتقطونها من أفواه أولئك الذين أتوا إلى الجزائر من أبناء جنسهم ثم عادوا إلى فرنسا، وهؤلاء هم أولئك الأسافل والأراذل الذين ذاقوا طعم الظلم والقتل والنهب والسلب في الجزائر كما ذاقوا طعم المال والثروة على الطريقة نفسها بواسطة غصب أموال المسلمين تحت ستار الكراء المؤبد والإيجار ثم نقلوها إلى باريس ليبيعوها بأثمان باهظة أو باعوها في باريس وهي في الجزائر".

"هؤلاء (الفرنسيون) كلهم أراذل و أبرز دليل على أنهم من الأسافل والأراذل هو تركهم لبلادهم التي هي كالدرة من حيث الجمال و العمران و تشبثهم بالاستيطان في الجزائر التي أصبحت تشبه الأطلال من جراء الفضائح التي ارتكبوها هنالك، فلو لم يكونوا من أسافل الناس وأقلهم درجة لما أقدموا على ذلك و لكنهم يفعلون ذلك لأنهم فعلا كما وصفوا. والذي يتراءى لي أنّ هؤلاء الأسافل لما عادوا من الجزائر بدأوا يتكلمون عنها و يشيعون بين أبناء جلدتهم عن جودة

أرضها و خصبة تربتها وأنها أجود حتى من الأراضي الهندية لأنها صالحة لزراعة القهوة والفلفل و القرمز و غيرها من الخرافات التي لا أصل لها".

"إن المرتدين في بلادنا قلة جدا و لا يصل عددهم أكثر من مائة نفرٍ. أما الباقون من المسلمين فقد نفي وشرد الأغنياء منهم ولم يبق الا الضعفاء والمساكين الذين أرغموا على العيش بالذل و الهوان و التكفف على الناس".

"أخي الكريم انني رجل وحداني. أولادي وعيالي تحت أيادي الكفار ورحمتهم بالجزائر. وأنا هنا في بلادهم إنني أكافح وأناضل من أجل وطني الجزائر بكل ما أوتيت من قوة ووهبت من مقدرة على الكفاح والنضال عن طريق قلمي ولساني دون أي تقصير أو تهاون ولو أنّ الكفار علموا بمضمون تحريراتي وتأليفاتي ومراسلاتي مع سائر الأجناس والأعمال التي أقوم بها شخصيا عندما تمتنع الكتابة وتخطر أهمية الموضوع وسريته، نعم ولو اطلعوا على حقيقة هذه الاعمال التي أقوم بها من أجل بلادي الجزائر لأكلوا لحمي وعذبوني بأشد أنواع العذاب في العالم ولكن الحمد لله فقد سترني ربي ونجاني من القوم الظالمين".

"أخي الكريم كما تعلمون أيضا فان سني قد تجاوزت الستين وانني مستور والحمد لله بستره ولا أطمع لا في مال ولا في منصب".

ثـورة الـزيبان و الأغواط و الأوراس

استولى الفرنسيون على الزيبان سنة 1948 م بعد استسلام الأمير عبد القادر، وعرف سكانها خلال تلك الفترة الحكم الاستبدادي للسلطات الفرنسية اتجاه المواطنين بإساءة معاملتهم وفرضت على الفلاحين زيادة جائرة في الضريبة على النخيل، وكانت فرنسا في هذه الفترة منشغلة بقمع الثورات داخل الوطن وانقلاب الجمهوريين على عرش ملك فرنسا لويس فيليب، فاستغل الشيخ بوزيان زعيم ثورة الزعاطشة هذه الظروف للاستعداد للثورة (1848 م- 1849 م)، وكان في السابق يشغل منصب نائب للأمير عبد القادر بمنطقة الزاب الظهري، وكانت كلمته مسموعة في أوساط السكان. ولسبب هذه النشاطات حاول سيروك نائب المكتب العربي ببسكرة القبض على بوزيان في واحاته، فتصدى له أنصاره وأطلقوا الرصاص على الضابط الفرنسي ومن كان معه ففر عائدا إلى مقره، ونتيجة لما حدث سير له رئيس المكتب العربي الضابط دوبسكي Dupesquet قوة عسكرية، ولمّا وصل إلى قرية الزعاطشة طالب سكانها بتسليم الشيخ بوزيان فرفضوا، ولمّا أحس الضابط الفرنسي باستعدادهم للمقاومة فضل الانسحاب من حيث أتى. وامتدت من بعدها نار الثورة إلى كلّ منطقة الزيبان و أولاد نايل والحضنة وبوسعادة والأوراس ودعم حركته الثورية كلّ من الشيخ سي عبد الحفيظ مقدم الطريقة الرحمانية في الأوراس، والشيخ حامد بلحاج ببوسعادة وبن الجودي شيخ أولاد زيان مما دفع بالقوات الفرنسية المتمركزة بمدينة باتنة بقيادة كاربيسيا للتحرك والتقى الطرفان يوم 16 جويلية 1849 م انتهت بهزيمة الجيش الفرنسي ومقتل العديد من جنوده. وأمام انتصارات ثوار الزعاطشة وحلفائهم من المناطق الأخرى سيّر لهم الجنرال الفرنسي هربيوس Herbillos قوة عسكرية تتكون من حوالي خمسة آلاف جندي وضابط انطلقت من قسنطينة يوم 25 سبتمبر 1849 م، وفي باتنة انضمت إليها قوات أخرى، وفي يوم 17 أكتوبر وبمساعدة قوات شيخ العرب الخائن ابن غانة الموالي لفرنسا بدأ الحصار على مركز الثورة قرية الزعاطشة فرفض سكانها الاستسلام، وأمام إصرارهم على القتال قامت المدفعية الفرنسية يوم 26 نوفمبر 1849 م بضرب الأسوار المحيطة بقرية الزعاطشة لإحداث ثغرة فيها يتمكن من خلالها التغلغل داخل الواحة لكن مقاومة الثوار التي ألحقت قتلى في صفوفهم أرغمت فرنسا على تغيير خطتها بتكثيف الضرابات بالمدفعية انتهت في الآخير باستيلاء الجيش

الفرنسي على قرية الزعاطشة بعد معركة دامية قتل فيها سكانها منزل بمنزل وسقط على إثرها أكثر من 800 شهيد من بينهم الشيخ بوزيان وابنه ونائبه الحاج موسى، فنكل الفرنسيون بجثتهم وقطعوا رؤوسهم وحملوها إلى بسكرة ليعرضوها في الساحة على الناس، وكعادتها إزاء كلّ الثورات التي اندلعت على أرض الوطن قامت السلطات الفرنسية بتدمير قصور الواحات ومصادرة أملاك سكانها.

ولكن نار الثورة بقيت مشتعلة في الأوراس حيث سير إليهم العقيد Canrobert قوة عسكرية في شهر ديسمبر مكنته من إخماد البعض منها وبقيت القرى نارا صامدة في وجهه لكن شجاعتها لم توقف زحف قواته التي دمرت قراهم.

وفي عام 1852 م ظهر ثائر آخر بالصحراء وهو الشريف محمد بن عبد الله، فعند عودته من البقاع المقدسة شرع مباشرة في الاستعداد لكفاح المحتل الفرنسي في كلّ من الأغواط وتوقرت وورقلة فبايعه سكانها وانضموا إلى ثورته، وخاض عدة معارك ضد القوات الفرنسية في كلّ من جنوب بسكرة يوم 22 ماي 1852 م وفي عين الرق يوم 1 أكتوبر 1852 م، وألحق بهم أضراراً كبيرة في العتاد والأرواح واستولى على مدينة الأغواط، لكن الفرنسيين بمساعدة العميل سي حمزة ولد سيدي الشيخ تمكنوا من استرجاعها في شهر ديسمبر 1852 بعد حصار ومعركة شرسة استشهد على إثرها الكثير من جنود الشريف محمد بن عبد الله. أرغم من بعدها للانسحاب إلى زاوية رويسات بالقرب من ورقلة، وهناك تحالف مع بن سلمة الذي كان متمركزاً بتقورت وشنوا هجومات عديدة على القوات الفرنسية، لكن عملاء فرنسا من الجزائريين أمثال سي حمزة أغا منطقة الأغواط وسي الزبير باشاغا ورقلة حالوا دون تحقيق هدفه، فاستولت فرنسا على تقورت سنة 1854 م بعد معركة دامية، ورغم محاولته المتكررة لاسترجاع الأغواط وورقلة إلا أنه لم يفلح أمام القوة الفرنسية المدججة بالسلاح المتطور، وانتهى مصير الشريف بن عبد الله على يد حمزة ولد سيدي الشيخ الذي اعتقله سنة 1861 م وسلمه للسلطات الفرنسية، وقامت هذه الأخيرة بوضعه في سجن عسكري بفرنسا.

وفي سنة 1858 م انطلقت ثورة أخرى من جبال الأوراس قاده أحد مجاهدي (ثورة الزعاطشة) وهو سي الصادق بن الحاج زعيم أولاد أيوب وشيخ الإخوان الرحمانيين، واستطاع أن يوسع ثورته إلى منطقة الزيبان وقام بعدة هجومات على المراكز الفرنسية، إلا أنّ ثورته في الأخير عرفت نفس المصير الذي عرفه الشريف محمد بن عبد الله حيث ألقت القوات الفرنسية والمتعاونين معها من الخوانة القبض عليه يوم 20 جانفي 1859 م. لكن الثورة لم تتوقف فأندلعت من جديد سنة

1879 م بالأوراس تحت قيادة شيخ زاوية الرحمانية الإمام محمد أمزيان بن عبد الرحمن حيث رفع راية الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وقام رفقة المجاهدين بمهاجمة مراكز الجيش الفرنسي ودخل معهم في معارك، إلا أنّ القوات الفرنسية كانت أقوى منه عدة وعددا، ولمّا اشتد الضغط عليه انسحب إلى تونس وفي الطريق عثر الجيش الفرنسي على هياكل لقوات الإمام أمزيان أفناها الجوع والعطش، أما الشيخ محمد أمزيان فقد سلمته السلطات التونسية رفقة رفاقه المتبقين إلى الجيش الفرنسي حيث حكمت عليه محكمة قسنطينة سنة 1880 م بالإعدام.

ثورة القبائل
1846 م - 1857 م

بقيت بلاد القبائل مستقلة حتى سنة 1846 م وصمدت أمام العدو الفرنسي إلى غاية 1857 م، ويرجع الفضل في ذلك إلى الجبال الوعرة التي ساعدت سكانها على مقاومة المحتل الذي وجد صعوبة لاختراقها. و من أوائل المجاهدين في هذه المنطقة هو الشريف مولاي محمد الملقب بوعود (1845 م- 1847 م) حارب من قبل في صفوف جيش بومعزة. ولمّا قضى الاستعمار على ثورة هذا الأخير حمل لواء الجهاد بالونشريس وكان من أهم أعوانه سي الجودي. فخاض عدة معارك ضد العدو و التحق من بعد ببلاد القبائل بجرجرة أين أعلن الجهاد تحت راية الإسلام، وانضم إلى صفوفه الشريف مولاي ابراهيم لكن دعوته لم تجد آذاناً صاغية فاضطر إلى مغادرة بلاد القبائل الكبرى في مارس 1846 م، متوجها إلى جيجل والقل فاستجاب القبائل لدعوته الجهادية فحملوا السلاح وأشعلوها نارا على العدو المحتل واستمر مولاي محمد في نشاطه الثوري إلى غاية شهر أوت 1847 م.

لكن سكان القبائل لم يركنوا للاستسلام وقبول الأمر الواقع، فثارت كلّ من قبيلة بني يعلى وبني مليكش في وجه الاستعمار عندما حاول هذا الأخير المساس بحرمة أراضيهم، وكانت قبيلة بني يعلى السبّاقة لذلك. فرفضت الآغا الذي فرض عليهم من الاستعمار الفرنسي وقاموا إبتداءً من سنة 1847 م بمهجامة الفرقة العسكرية الفرنسية التي كانت تمر على قريتهم، فقام الفرنسيون بقيادة Canrobert برد فعل عنيف على عمليتهم إلتجأ من بعدها الثوار إلى قبيلة بني مليكش الثورية والتي تصدت للعدو بشجاعة ولم تنحن أمام بطشه منذ أن وضع المستعمر الفرنسي أقدامه على أراضيها. فاحتضنت سنة 1849 م ثورة مولاي ابراهيم الذي دعى سكان بلاد القبائل للالتحاق بثورته من بينهم قبائل بني يني وبني واسيف. وفي عام 1850 م امتدت ثورته إلى قرى بجاية، ولكن قوة العدو الفرنسي عدة وعددا تمكنت منه ودفعت قبيلة بني مليكش ثمنا غاليا في الأرواح والممتلكات جراء مساندتها له. لكن الثورة لم تنطفئ فأشعلها من جديد، وفي نفس السنة، المجاهد الشريف بوبغلة واسمه الحقيقي محمد الأمجد بن عبد المالك ولقب باسم بوبغلة نسبة لبغلته التي كانت تضرب بأرجلها كلما اقترب العدو الفرنسي من الثوار. فحاول من جديد تحريك القبائل التي جاهدت مع مولاي ابراهيم، فبعث برسائل

إليهم يحثهم فيها على الجهاد وحمل السلاح ولهذا الغرض حاولت فرنسا إلقاء القبض عليه فلم تتمكن، فالتجأ بوبغلة إلى قلعة بني عباس وهناك بدأ بتحريض القبائل، فاتصل بقبيلة بني مليكش التي استقبلته بحفاوة يوم 24 فيفري 1851 م وانضمت إلى ثورته، فجعل من قراها قلاعاً للمقاومة واتخذها كمنطلق لنشاطه الثوري. فعين أربعة قادة من سكانها وهاجم مراكز العدو واستولى على زاوية الباشاغا بني علي الشريف الموالي لفرنسا وانتزع منه ممتلكاته، وكرد فعل على أعماله الثورية دمر الجيش الفرنسي القرى المساندة له، ولتمديد ثورته الى كل مناطق القبائل اتصل ببعض الزعماء المناهضين للاستعمار من بينها زعماء قرى جبال البابور، واستطاع أن يهزم رفقة أنصاره العدو الفرنسي في بجاية وانضم أتباع الطريقة الرحمانية إلى صفوفه. ولما شعرت السطات الفرنسية بخطورة ثورته سيرت إليه قوة ضخمة تمكنت من أتباعه وألحقت بهم خسائر فادحة وعلى إثر الهجمات المتعددة عليه من قبل العدو انسحب إلى جبال جرجرة فاختفى عن أعين الفرنسيين مدة من الزمن ليستأنف من جديد جهاده في قرى بني مليكش، وفي هذه الفترة تصدى للقبائل المعارضة لثورته والمتواطئة مع الاستعمار ورغم استسلام أحسن أعوانه، إلا أنه واصل الجهاد حتى سقط شهيدا يوم 26 ديسمبر 1854 بواد الساحل. لكن الجهاد استمر من بعده وهذه المرة على يد المرأة المجاهدة المشهورة لالا فاطمة نسومر التي أعطت درسا تاريخيا للجنرال راندون والحاكم العام للجزائر مكماهون، فمن جبال جرجرة أعلنت الجهاد باسم الإسلام فجاءها سكانها من كل المناطق، وألحقت بالجيش الفرنسي عدة هزائم من أشهرها معركة ايشريضن وتاشكريت سنة 1854 م أرغمت خلالها الجنرال راندون على الانسحاب بعد أن ألحقت بقواته العديد من الخسائر في العتاد والأرواح. ولما تفطن الجنرال إلى مدى قوة هذه المرأة طلب منها هدنة لاسترجاع أنفاسه والاستعداد لها من جديد ولكن هذه المرة بقوة أكثر عددا وعدة حيث وصلته قوات إضافية من الجزائر، فنقض راندون الهدنة سنة 1857 م وبادر بالهجوم عليها فاستولى في طريقه إليها على قرية الأربعاء "نايث ايراثن" بعد معركة دامية، ولمّا وصل إلى نسومر تصدت له لالا فاطمة نسومر، ودارت بينهما معركة كبيرة استشهد خلالها الكثير من جنودها لكن لالا فاطمة لم تستسلم بل بقت صامدة في وجهه رغم ما لحقتها من خسارة، وللقضاء عليها نهائيا إلتجأ الجنرال راندون إلى الحيلة والمكيدة فبعث لها بوفد يطلب منها الدخول في مفاوضات لغرض الانسحاب فقبلتها لالا فاطمة نسومر وبعثت بوفد إليه يرأسه أخوها، وفي تلك الأثناء بعث الجنرال قوة عسكرية إلى مركز إقامة لالا فاطمة نسومر بمساعدة أحد الخونة

فحصاروا البيت الذي كانت تقيم به وألقوا القبض عليها سنة 1857 م ووضعوها في السجن ببني سليمان المدية، وبقت هناك إلى أن وافتها المنية في السجن سنة 1863 م، وكرد فعل على أعمالها البطولية أمر الجنرال بتدمير القرى المساندة لثورتها ومصادرة أراضيهم وفرض عليهم ضريبة حربية ثقيلة.

ثــورة أولاد ســيــدي الــشـيــخ 1864 م- 1880 م

في عام 1864 م اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني، وكانت دوافعها كالعادة الظلم الاستعماري، وزاد الطين بلة عند اعتداء جنود الصبايحية التابعين للمكتب العربي بالبيض على سي فضيل كاتب سي سليمان زعيم أولاد سيدي الشيخ، فاستقال هذا الأخير من منصب الباشاغا، وسلك طريقا مخالفا لأبيه سي حمزة الذي كان متعاوناً مع فرنسا، وعقد مجلسا حربيا مع أفراد عائلته أعلنوا خلاله الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي. فكتب سي سليمان رسائل إلى القبائل يحثهم فيها على الثورة، وانضم إلى حركته العديد من العروش من بينهم عمه سي الأعلى بالصحراء الشرقية و الذي لعب دورا فعالا في ثورة أولاد سيدي الشيخ، وكان أول لقاء بالعدو يوم 8 أفريل 1864 م في معركة عوينة بوبكر كبد خلالها العدو الفرنسي خسائر فادحة بحيث لم ينج منها حتى قائدهم بوبريتر Beauprêtre الذي قتل إلى جانب سي حمزة قائد الثورة. فخلفه أخوه سي محمد بن حمزة وامتدت الثورة إلى عدة مناطق من أرض الوطن قادها كلَ من سي الأعلى بالصحراء الشرقية في ورقلة وسي الأزرق بلحاج بالونشريس والنعيمي ولد جديد ببوغار وقاموا بمهاجمة المراكز الفرنسية، وأمام هذا الوضع الخطير جندت فرنسا كلَ قواها للتصدي لهم، فعينت لهذا الصدد أربع جنرالات فأرسلت الجنرال يوسف إلى جبال عمور و دولين إلى جنوب وهران ولييهير إلى جنوب مدينة تيارت والجنرال روز إلى فليتة لملاحقة سي الأزرق بلحاج، لكن رغم هذا الدعم الكبير لم يستطيعوا فعل شيئ أمام صمود المجاهدين بل بالعكس زادت رقعة المعركة اتساعا في كل من مشرية والأغواط وسعيدة. وانضم اليهم الزعيم ناصر بن شهرة في ورقلة وقام الثوار بمهاجمة الكتائب الفرنسية و تدمير مزارع المعمرين والمؤسسات الاقتصادية الفرنسية. وكرد فعل قام الجيش الفرنسي بتدمير القرى ومصادرة ممتلكات القبائل الثورية، وفي يوم 22 فيفري 1865 م استشهد الزعيم الثاني للثورة في معركة سيدي الشيخ متأثرا بجروحه وذلك خلال مواجهة قواته للعدو الفرنسي بقيادة الجنرال دولين. فخلفه في قيادة الثورة أخوه سي أحمد ولد حمزة ولكن القائد الحقيقي كان عمه سي الأعلى وهذا نظرا لصغر سي أحمد، وخاض الاثنان عدة معارك ضد الاستعمار من بينها معركة حاسي بن العتاب، وغار القيفور عام 1866 م تكبد خلالها الطرفان خسائر في الأرواح و العتاد. وفي شهر

أكتوبر 1868 م توفي الزعيم الثالث للثورة سي أحمد على إثر مرض الكوليرا. فتحمل المسؤولية أخوه سي قدور ولد حمزة إلى جانب عمه سي الأعلى فقاموا بمهاجمة القبائل المعارضة والمتواطئة مع الاستعمار الفرنسي. وفي يوم 17 أفريل 1871 م دارت معركة عنيفة بين قوات سي قدور ولد حمزة وجيش الضابط الفرنسي دي ميلوزا في منطقة سعيدة تضرر فيها الجانبان، ورغم المحاولات الفرنسية المتكررة للدخول في مفاوضات مع أولاد سيدي الشيخ لتوقيف القتال، إلا أنها لم تنجح وبقي الوضع هكذا حتى تقلص نشاط الثورة شيئاً فشيئاً ليفسح المجال من جديد لثائر آخر من أولاد سيدي الشيخ أكثر صموداً وشجاعة وهو الشيخ بوعمامة.

انتفاضة 1871 م

شهدت الجزائر عام 1871 م انتفاضة و ثورة كبيرة ضد الاحتلال شملت معظم مدن البلاد، وانطلقت بوادرها الأولى في شهر جانفي 1871 م من مدينة سوق أهراس حيث تمرد سكانها على قرار التجنيد في صفوف الجيش الفرنسي لمحاربة بروسيا فالتحقوا بالجبال، ومن هذه المدينة امتد التمرد إلى تبسة وقسنطينة ومن بعدها الحضنة وسطيف وجيجل وسورالغزلان الخ. وانضم إليها محي الدين بن الأمير عبد القادر الذي جاء خصيصا من سوريا لتشجيع الجماهير والمشاركة في هذه الانتفاضة واستجابة لندائة انضمت عدة قبائل للثورة. واستأنفت قبائل أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني القتال، وفي نفس الوقت الذي كان بوشوشة و ناصر بن شهرة ينظمان الانتفاضة في الصحراء الشرقية كان المقراني يستعد لها في الشمال، وكانت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت تساعد وتدفع السكان للثورة خاصة بعد هزيمة الجيش الفرنسي في سيدان عام 1870 على يد القوات البروسية، بالاضافة إلى الفقر والحرمان والظلم الذي كان يعيشه الشعب في ظل الاحتلال جراء مصادرة أراضيه الفلاحية والمجاعة الكبرى والقاتلة التي سببتها عام 1868 م. فاستغل قادة الانتفاضة هذه الظروف لتعبئة الجماهير وإعلان الثورة باسم الإسلام لطرد المحتل، وقد لمع في هذه الانتفاضة كلّ من المقراني والشيخ الحداد الذين كانا لهما الشرف بإعلان الجهاد في منطقة القبائل، فأتاحت هذه الظروف للباشاغا المقراني بتوجيه نداء للسكان لحمل السلاح، وكانت عائلة المقراني تعيش منذ قرون في قلعة بني عباس تملك أراضي واسعة ولها نفوذ على عدة قبائل، فقدم المقراني استقالته للسلطات الفرنسية من منصب الباشاغا وأجرى اتصالات مع رؤساء القبائل الذين أعطوه موافقتهم للقتال، وفي 15 مارس 1871 م عقد المقراني مجلسا حربيا مع أفراد عائلته وقواده في مجانة أعلنوا فيه الجهاد. وبعث المقراني رسالة إلى الحاكم العام بالعاصمة يعلن فيها الحرب، فأخرج الفلاحون بنادقهم وبدأت عملية اغتيال المعمرين، وفي 16 مارس زحف المقراني على برج بوعريريج مهاجما على رأس ثمانية آلاف فارس وتحسبا لهذه الاضطرابات استقدم القائد الفرنسي تروميلت تعزيزات هامة من مدينة الجزائر، وشن المقراني وبومزرق هجومات عديدة على المراكز الفرنسية كبدوا خلالها خسائر كبيرة للجيش الفرنسي، وسبب هذا الوضع هلع في أوساط المعمرين أجبرهم على الرحيل إلى المدينة. ولإعطاء دفع قوي لهذه الثورة بعث المقراني بوفد إلى الشيخ الحداد يدعوه إلى تدعيمها، فاستقبل شيخ زاوية الرحمانية هذا الطلب بسرور وكان يبلغ أنذاك ثمانين سنة، فدعى الحداد يوم 8 أفريل أتباعه

بسوق صدوق للإنضمام لهذه الثورة المقدسة، فكان لندائه صدى عميقا في أوساط السكان مما زاد في شعبية هذه الانتفاضة ونجاحها. وامتدت شيئا فشيئا حتى عمت كلَ بلاد القبائل. وتمكن الثوار من محاصرة مدينة تيزي وزو وذراع الميزان ودلس ويسر ووصلوا حتى تيجلابين، وخوفا من انتشارها إلى مدينة الجزائر وضع الجيش الفرنسي حواجز لحصرها في هذه المنطقة، ورغم الامكانيات الكبيرة المتوفرة للعدو من بنادق ومدفعية، إلا أنه لم يتمكن من اخمادها، وخاض أتباع المقراني والحداد معارك عديدة تمكنوا خلالها من احراز عدة انتصارات على العدو، وفي 5 ماي وبعد شهرين من انطلاق الثورة سقط المقراني شهيدا بكدية المسدور اثر رصاصة تلقاها في جبهته أطلقها أحد الجنود الفرنسيين. فتولى أخوه بومزرق القيادة العامة للثورة، وفي اليوم الذي ألقي القبض على الشيخ الصوفي الحداد في شهر 13 جويلية 1871 م واصل أبناؤه العزيز ومحند الثورة، وأعلن في نفس اليوم البركاني الجهاد بضواحي شرشال و جبال بني مناصر في ولاية الشلف، وبقيت المعارك دائرة بين قوات بومزرق و الجيش الفرنسي إلى أن تمكن هذا الأخير من فك الحصار وإخمادها في شهر أوت. و عندما استسلمت معظم القبائل في الشمال استمرت الثورة في الجنوب بقيادة بوشوشة، وانتقل بومزرق إلى تونس رفقة عائلته حيث ودعَها وعند عودته بمفرده إلى الجزائر لمواصلة الجهاد أسرته دورية عسكرية فرنسية بالقرب من عين صالح عام 1872 م وجدته ساقطا مغميا عليه من شدة التعب والعطش، واستمر من بعده بوشوشة الكفاح إلى غاية عام 1874 م حيث أسر جريحا في عين صالح وصدر في حقه حكم بالاعدام نفذ يوم 29 جوان 1875 م بمدينة قسنطينة.

ولم يتمكن الاستعمار من إخماد هذه الانتفاضة إلا بعد خوض ثلاثة مائة معركة في كامل التراب الوطني، وبرجوع االنظامِ و الأمن في الشمال والشرق والغرب شرع في قمع القبائل المشاركة في الثورة و نزع منها حوالي 350000 هكتارات من الأراضي الفلاحية، وفرض عليها ضريبة حرب فاحشة، ووضع مجالس حربية لمحاكمة قادة الانتفاضة، فحكم على الشيخ الحداد بخمس سنوات لم يقض منها إلا خمسة أيام حتى وافته المنية في سجن قسنطينة، أمّا بومزرق فحكم عليه بالاعدام ثمَ استبدل بالأشغال الشاقة المؤبدة نفي من بعدها مع مجموعة من الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة .

ثورة بوعمامة
1881 م- 1883 م

الشيخ بوعمامة بن العربي بن التاج من عائلة أولاد سيدي الشيخ ينتمي إلى فرع الغرابة وهو شيخ زاوية متدين من أتباع الطريقة القادرية برزت شخصيته في سنة 1880 م ونظرا لعفته وتقواه اشتهر اسمه بين القبائل وكثر أتباعه فأصبح الناس يتوافدون على زاويته، مما أدخل الرعب في نفوس السلطات الاستعمارية المتمثلة في المكاتب العربية، فمنع الفرنسيون السكان من زيارة زاويته وشددوا الرقابة عليه مما أزعج بوعمامة فاحتج على تصرفاتهم الجاسوسية في مدينة البيض، فكان يتظاهر أمام العدو بالولاء وفي نفس الوقت كان يخطط للنشاط الثوري رفقة أنصاره. فكتب للقبائل يدعوهم للجهاد، واستطاع أن يجمع حوله العديد من الثوار، فطلب من أتباعه جمع السلاج والمؤونة والاستعداد للجهاد، فأشعلها نارا على العدو الفرنسي ابتداء من يوم 22 أفريل 1881م، فقام المجاهدون بقتل نائب رئيس المكتب العربي الفرنسي وانبرونرُ ومهاجمة مزارع المعمرين وتخريب المؤسسات الاقتصادية الفرنسية، وخاض الشيخ بوعمامة عدة معارك ضد الجيش الفرنسي وألحق بهم هزيمة نكراء في معركة فرندة أجبرهم خلالها على الانسحاب إلى مدينة عين الصفراء وكذلك معركة الشلالة وازدادت رقعة الحرب اتساعا، فبالاضافة إلى مدينة عين الصفراء امتدت في كل من نواحي تيارت وسعيدة وعين صالح. فجندت فرنسا قواتها المدججة بالسلاح الثقيل المتطور للقضاء عليه في حرب غير متكافئة عدة وعددا، إلا أنها لم تفلح أمام شجاعة وصمود بوعمامة أنصاره فعرضت عليه فرنسا مفاوضات سلم، إلا أنه رفضها واستمر في الكفاح إلى غاية 1883 م السنة التي وضع العديد من أنصاره السلاح، إلا أنَ مناوشات الجيش الفرنسي بقت مستمرة، وفي سنة 1809م رحل الشيخ بوعمامة إلى المملكة المغربية واستقر بالقرب من العيون أين أسس زاويته و عاش فيها حتى وافته المنية سنة 1809 م.

دعوة إلى الجهاد من الشيخ بوعمامة إلى السكان

إلى جماعتنا المحروسة بعين الرضى كافة جماعة الشعابنية أخص منهم الأعيان القائمين بأمر الزمن قبيلة بعد قبيلة من غير تخصيص أرشدكم الله وأعانكم، للخير والجهاد وفقكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه

وخيرته وإحسانه وإنعامه وإفضاله، وبعد نعلمكم أعلمكم الله خيرا، نريد قدومكم و نتلأقوا على أمر الجهاد في سبيل الله. هذا الأمر نادا كذ المنادي من قبال كذا الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبأمر رجال الله الصالحين. من أراد منكم ذلك كذا فالله يوافقه كذا وينعمه كذا. يأتينا في الحليات. هذا الموعد الصحيح الذي بيننا وبينكم. ومن لم يرده فلا حاجة لنا به ولا يأتين بعد ذلك والسلام. وكتب بأمر سيدنا نصره الله وعلى الكفار أعانه سيدنا أبوعمامة بالعرب بن الحرمة أمنه الله ورعاه.

ثـورة الـتـوارق
1916م - 1919م

في عام 1916 م اندلعت ثورة التوارق في الصحراء الكبرى الجزائرية وامتد لهيبها إلى مناطق جانيت وتاغيت والهقار ولمع فيها كلّ من أحمد سلطان والشيخ عبد السلام، فاستغل قادة هذه الثورة انشغال فرنسا بظروف الحرب العالمية الأولى (1914م - 1918م) ليعلنوا جهادهم ضد المحتل الفرنسي، فسلحوا جنودهم بالبنادق والمدفعية التي انتزعوها من الجنود الايطاليين الذين احتلوا ليبيا عام 1912 م واتجهوا نحو واحة جنات أين كان يوجد بها مركز عسكري فرنسي بقيادة الضابط لوران لابيير Laurent Lapierre، فحاصروا المركز مدة ثمانية عشر يوما ابتداء من يوم 6 مارس 1916م. وقبل البدأ بالهجوم عليهم بعث الشيخ عبد السلام برسالة إلى الضابط الفرنسي يحثه فيها على الاستسلام، إلا أنّه رفض فعندئذ أمر الشيخ بمهاجمة الحصن بالرصاص و المدفعية و تبادل الطرفان إطلاق النار، إلا أن الغلبة في النهاية كانت للثوار الجزائريين اذّ تمكنوا من اقتحام حصن جانيت يوم 24 مارس، وانسحب لابيير رفقة الجنود الذين تبقوا معه من الفرنسيين والصبايحية نحو حصن بولينياك الموجود باليزي. وعندما وصلوا إلى منطقة تباركات سمعوا بأن قافلة نجدة فرنسية في الطريق إلى الجنات فقرر الضابط العودة، وفي طريقهم فوجئوا بثوار عبد السلام يحاصرونهم من كلَ جانب، فاستسلم الضابط لابيير والتحق معظم الصابيحية الذين كانوا معه بالثوار فأسروه. وكرد فعل على هذه العملية سيرت السلطات العسكرية الفرنسية جنودها بقيادة الضابط مينيي Meynier لاسترجاع حصن جانيت ولم يتمكن منها إلا بعد معركة دامية انسحب على اثرها الشيخ عبد السلام وأحمد سلطان رفقة جنوده إلى تاغيت، وفي عام 1917م كوّن أحمد سلطان قوة تتكون من حوالي ثلاثة مائة شخص و بادر فيها بالهجوم على مراكز العدو إلى أن تمكنت منه فرنسا. وفي نفس الوقت الذي كان فيه توارق جانيت يحاربون العدو كانت الثورة مشتعلة في الهقار، فقام ثوارها سنة 1916م بقتل الأب دو فوكولد de Foucauld الذي كان يعمل لصالح الجيش الفرنسي في الصحراء متسترا وراء الأعمال الخيرية، وكان مقتله بداية لثورة كبيرة في الهقار دامت إلى غاية 1919م تزعمها القائد كاوسن التارقي.

انتفاضة عين التركي

وفي مطلع القرن العشرين شهدت منطقة الغرب الجزائري انتفاضة سكان عين التركي ومليانة في أبريل 1901م، ومن العوامل التي أدت إلى هذا الانفجار الظلم الاستعماري الذي تعرض له سكانها من مصادرة أراضيهم الفلاحية وتوزيعها على المعمرين الأوروبيين، إضافة إلى السياسة الجائرة التي كانت تطبقها على الأهالي. وبلغ الغضب أقصاه في يوم 26 أبريل1901م عندما احتشد أكثر من مائة شخص من سكان ريغة، ودخلوا في مشادات مع رئيس البلدية وأعوانه وقتلوا عددا قليلا من الأوروبيين وسيطروا على البلدية طوال اليوم إلى أن وصلت كتيبة من الجيش الفرنسي من مدينة مليانة، وسيطرت على الوضع، وقتلت ستة عشر شخصا. وقتل واحد من جنودها. وعلى إثر هذه العملية قامت السلطات الاستعمارية باعتقال كل رجال القرية، وقامت بالتحقيق معهم، وقدمت غرفة الاتهام 125 شخصا للمحاكمة بتهمة التمرد، وأحيل محضرهم على محكمة جنايات مونبيلي بفرنسا وتمت محاكمتهم يوم 8 فيفري، فحكم على الشيخ يعقوب زعيم المتمردين بالأشغال الشاقة المؤبدة ومات في سجنه سنة 1905م، وحكم على 81 بالبراءة والباقي بالسجن لمدة قصيرة. واستنكر المعمرون هذا الحكم. إلا أن الشعب الجزائري لم يخف بطش العدو الفرنسي ولم يستكن الى الظلم والذل فاندلعت ثورة أخرى بعين بسام سنة 1906م دوافعها كالعادة الظلم والوجود الاستعماري ومحركها الدين الإسلامي لكنها كسابقاتها لم تنجح في بلوغ هدفها الأسمى وهو طرد المستعمر وذلك لعدم شموليتها واقتصار ثورتها على مناطق معينة من أرض الوطن.

قانون التجنيد

وفي 3 فبراير 1912م أصدرت الحكومة الفرنسية مرسوم الخدمة العسكرية الاجباري على الأهالي من الشباب للالتحاق بالجيش الفرنسي، وعارض الشعب الجزائري قرار التجنيد معارضة شديدة لأنهم كانوا يرون فيه مساسا بشخصياتهم الإسلامية. واكتست هذه المقاومة أشكالا مختلفة كالهجرة إلى بعض البلدان الإسلامية، كالحجاز وسوريا و تركيا و تنظيم المظاهرات وإرسال الوفود إلى فرنسا للاحتجاج ضد الحكومة الفرنسية، والهجوم على الفرق العسكرية المكلفة بالتجنيد. ورغم أن النخبة المثقفة من الجزائريين قد قبلت مبدأ الخدمة العسكرية،إلا أنها اشترطت بالمقابل أن تمنح للجزائريين الحقوق السياسية والمدنية سواسية مع المعمرين الأوروبيين وهذا ما رفضته فرنسا. وتحول هذا الغضب إلى انتفاضة بني شقران بضواحي معسكر سنة 1914 م تمرد سكانها على قانون التجنيد وكادت أن تتحول إلى ثورة كبيرة لولا تدخل الجيش الفرنسي واخمادها. وبعد سنتين من هذا التاريخ ثار الأوراسيون في شهر نوفمبر 1916م، وتعتبر هذه الثورة اخر الثورات المسلسلة المتعاقبة بعضها البعض ولم يقض عليها الاستعمار الفرنسي الا بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت نتيجة هذا التجنيد أن شارك أكثر من مائة ألف جزائري في الحرب العالمية الأولى 1914م- 1918م وبلغت حصيلتها في صفوف الجزائريين كما يلي : 19.074 قتلى و72.035 جرحى و8.779 معطوبين.

المقاومة السياسية

في بداية القرن العشرين و بالضبط مع نهاية الحرب العالمية الأولى تغير أسلوب الشعب الجزائري في مقاومته للاحتلال الفرنسي إذ لم يعد يعتمد على المقاومة الشعبية المسلحة المنطلقة من الأرياف بل سلك أسلوب جديد والمتمثل في النضال السياسي عن طريق الأحزاب السياسية والجمعيات والنقابات والصحف والمظاهرات، ويرجع الفضل في ذلك بالدرجة الأولى إلى المهاجرين الجزائريين بفرنسا الذين سمح لهم إحتكاكهم بالمجتمع الفرنسي على التطلع على ما يجري في العالم من تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية. وظهر خلال هذه الفترة تياران : تيار ينادي بالاندماج و ربط الجزائر بفرنسا كوسيلة لتحقيق المساواة في الحقوق مع المواطنين الأوروبيين ومن أهم الأشخاص الذين تزعموا هذا المطلب ابن التهامي والدكتور بن جلول والصيدلي فرحات عباس وهم عبارة عن نخبة مثقفة تخرجت من المدارس الفرنسية وتبنت أفكارا غربية هذا بالإضافة إلى الحزب الشيوعي الجزائري، وتيار ينادي بالحل الجذري و من مطالبه استقلال الجزائر و يتزعمه نجم شمال افريقيا بقيادة مصالي الحاج.

الأمير خالد

هو خالد بن الهاشمي حفيد الأمير عبد القادر، ولد بدمشق يوم 20 فبرا ير 1875 م حيث قضى طفولته. وفي هذا البلد العربي الذي كان تابعا للامبراطورية العثمانية تأثر الأمير خالد بكل من أفكار الحركة اللائكية. "الشباب التركي" وأفكار حركة النهضة للمصلح المصري محمد عبد. وفي سنة 1892 م رحل مع عائلته إلى الجزائر، ثم تابع دراسته بثانوية لويس الأكبر بباريس أين تحصل على شهادة البكالوريا. في عام 1892 م بتوصية من والده التحق بكلية سان سير الحربية. ولكن غادرها سنة 1895 للعودة إلى الجزائر، ثم رجع إليها سنة من بعد ليكمل دراسته، وتخرج منها برتبة ضابط. من بعدها عاد إلى الحياة المدنية، وأصبح يتردد على نوادي "الشباب الجزائري" وهي حركة تأسست سنة 1909 م على يد مجموعة من النخبة الجزائرية المفرنسة والمساندة لفكرة الاندماج والتي بعثته سنة 1913 م إلى باريس لالقاء محاضرات حول أوضاع المسلمين بالجزائر. بانتهاء الحرب العالمية الأولى التي شارك فيها، غادر الأمير خالد نهائيا سنة 1919 م صفوف الجيش الفرنسي برتبة نقيب، وكان الشعب الجزائري في تلك الأوقات يعيش ظروفا قاسية مما دفعه لتكريس حياته للنضال السياسي قولا وكتابة من أجل استرجاع تلك الحقوق المهضومة، فاتخذ من تضحيات الشعب الجزائري إبان الحرب العالمية الأولى وسيلة لمطالبة الحكومة الفرنسية باحترام وعودها اتجاه الشعب الجزائري والتي كررتها العديد من المرات على لسان رئيس وزرائها كليمانصو. وكانت مبادئ ولسون المنادية لحق الشعوب في تقرير مصيرها منتشرة في أوساط الدول المستعمرة، فرأى الأمير خالد يومئذ أن يعرض قضية الجزائر على الرئيس الأمريكي ولسون بمناسبة انعقاد مؤتمر فرساي بفرنسا سنة 1919 م، فحرر عريضة له يبين فيها حالة الجزائر في ذلك الوقت وطلب بادخال القطر الجزائري تحت رعاية جمعية الأمم، ولكن مبادئ ولسون أخفقت في التنفيذ لمعارضتها من قبل الدول الاستعمارية. فلم يجد الحل أمامه إلا بالاستمرار في التفاوض مع الحكومة الفرنسية لغرض الاحراز على حقوق الجزائريين، واستطاعت إصلاحات كليمانصو لعام 1919 إحداث تغييرات على الساحة السياسية الجزائرية بحيث وحدت الضرائب. وألغت الضرائب الأهلية والقوانين الزجرية وزادت في عدد الناخبين للمجالس التمثيلية المحلية، إلا أن هذه الاصلاحات لم تحقق المساواة التامة ورغم هذا عارض المعمرون الأوروبيون قانون كليمانصو وذهبوا إلى فرنسا لمطالبة الحكومة الفرنسية

بإلغائه، ونتيجة لذلك ألغيت الكثير من الحقوق التي منحت للأهالي وأعيدت أحكام الأندجينا. ووجدت الأفكار التي تبناها الأمير خالد صدى كبير لدى الجماهير وساندها الكثير من المثقفين الجزائريين و سمحت له بالفوز في مدينة الجزائر بالانتخابات البلدية في سبتمبر 1919 م بناء على برنامج رفض من خلاله التجنس ولكنه لم يكمل عهدته واستقال في شهر أكتوبر 1920 م، لينتخب من جديد مع مجموعة من أنصاره في شهر جانفي 1921 م. ووجد عراقيل كبيرة من الادارة الفرنسية أثناء أداء مهامه دفعته للاستقالة من جديد في 2 ماي 1921 م. وبالحاح من السياسيين الجزائريين رشح نفسه و فاز في الانتخابات الولائية لشهر جويلية 1921 م ولم يتوقف عند هذا العمل بل واصل نضاله بتأسيس جريدة الاقدام في 10 سبتمبر 1920 م. وجمعية "الأخوة الجزائرية" وكان يفكر في تأسيس حزب سياسي كبير لكن لظروف معينة لم يتحقق. ولما شعر المستعمر الفرنسي بخطورة هذا النضال بدأ يضيق من حركة خالد وأنصاره فأجبر على الرحيل إلى سوريا سنة 1923 م. ولكن واصل نضاله السياسي بفرنسا ابتداء من عام 1924م. حيث نشط عدة ندوات ومؤتمرات للتعريف بالقضية الجزائرية، وساند على الصعيد المغاربي ثورة الأمير عبد الكريم الخطب بالريف المغربي ضد الغزو الاستعماري المزدوج الاسباني الفرنسي والذي أدى إلى احتلال المغرب كلية سنة 1926 م وطلب من الجزائريين الاندماج في الأحزاب والمنظمات النقابية الفرنسية التي تدافع عن مصالح بلادهم وهذا ما قام به فعلا بعض الجزائريين و منهم الحاج علي عبد القادر ومصالي الحاج بالانخراط في الحزب الشيوعي الفرنسي وأسسوا من بعده في شهر جوان 1926 م نجم شمال افريقيا، وغادر الأمير خالد باريس سنة 1924 م متوجها إلى مصر ثم سوريا ورغم غيابه عن الجزائر رشح بموافقته في الانتخابات البلدية لمدينة الجزائر عام 1925 م ضمن قائمة الحزب الشيوعي الفرنسي لكن هذه المرة لم يفز وتوفي بمسقط رأسه سوريا يوم 9 جانفي 1936 م عن عمر يناهز 61 سنة.

وكانت مطالب الأمير خالد التي تعد بمثابة برنامجه السياسي تتمثل فيما يلي:

1 - إعطاء حق الانتخاب للمسلمين الجزائريين لتكون لهم في مجلس الأمة ومجلس الشيوخ نيابة تساوي في عددها نيابة الفرنسيين الجزائريين.

2 - الغاء سائر القوانين الزجرية والاستثنائية والمحاكم المختصة والرجوع للقوانين التابعة للحق العام.

3 - المساواة في الحقوق التامة مع الأوروبيين في المسائل العسكرية.

4 - الاعتراف بالحق للمسلمين الجزائريين في الوصول إلى كل درجات التوظيف العمومي غير متقيدين إلا بشرط الكفاية.

5 - تنفيذ قانون التعليم الإجباري على سائر المسلمين ` مع اعطاء الحرية للتعليم الحر.

6 - حرية الصحافة و التعبير.

7 - الحرية التامة لسائر المسلمين في السفر لفرنسا.

8 - تنفيذ القوانين الاجتماعية على العمال الجزائريين.

9 - إعلان العفو العام.

10 - فصل الدين عن الحكومة فيما يخص الشريعة الإسلامية.

نجم شمال افريقيا

في جو سادته الأفكار الثورية بعد الحرب العالمية الأولى من الثورة البولشفية السوفياتية التي أطاحت بالعهد القيصري. ومبادئ ويلسون المنادية بحق الشعوب في تقرير مصيرها، ثم الفكر النضالي الجديد الذي بدأ يظهر على الساحة العالمية فمن ثورة تركيا إلى حرب الريف بالمغرب وانتهاء باحتلال سوريا. في هذا الجو المشحون بالثورات ولد نجم شمال افريقيا. ويعد أول حزب وطني الذي كان له الشرف من سنة 1926م إلى 1937م وفي ظروف صعبة قيادة المعركة السياسية من أجل استقلال الجزائر. وأنشيء على يد العمال المهاجرين الجزائريين المقيمين في فرنسا بتأثير ومساندة الحزب الشيوعي الفرنسي في يوم الأحد 20 جوان 1926 م بباريس، بمبادرة من رئيسه الحاج على عبد القادر ومساعدة الكاتب العام مصالي الحاج وأمين المال شابيلة الجيلالي والأعضاء الجيلاني محمد السعيد وأكلي بانون ومعروف محمد. ولعب الدور الكبير فيه مصالي الحاج، وهو من مواليد 16 ماي 1898م بتلمسان حفظ بها القران ثم دخل إلى المدرسة الفرنسية وتعلم بها قليلا، جند في الجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى وعمل بفرنسا في مصنع رونو ثم بائعا متجولا، انخرط في بداية نضاله السياسي في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي وتزوج من فرنسية شيوعية، وظل مقيما بفرنسا بعد الاستقلال إلى أن توفى عام 1973 م ودفن بمسقط رأسه تلمسان. وكان من أهداف الحزب الكفاح من أجل الاستقلال الكامل للدول الثلاثة : الجزائر وتونس والمغرب ووحدة شمال افريقيا والدفاع على شعوب هذه الدول والتنديد بالمظالم التي تعاني منها والمطالبة بحقوقهم، وفتحت باب الانخراط في صفوفها لجميع مسلمي شمال افريقيا المقيمين بفرنسا وعملت في أوساط الطبقة الشغيلة مع مختلف المنظمات العمالية الفرنسية المناهضة للامبريالية، فكانت في البداية لا تمثل إلا الجالية المهاجرة، ولم تتوغل وتفرض برنامجها السياسي في الساحة الجزائرية الا ابتداء من الثلاثينيات، وتتلخص مطالبها يوم انشائها فيما يلي :

- إلغاء قانون الاندجينا والبلديات المختلطة والمناطق العسكرية، حق الانتخاب والترشيح في جميع المجالس ومن بينها البرلمان الفرنسي بنفس الحق الذي يتمتع به المواطن الفرنسي. إلغاء جميع القوانين الاستثنائية والمحاكم الزجرية والمراقبة الإدارية وذلك بالرجوع للقوانين العامة، المساواة في التجنيد بين الجزائريين والفرنسيين، المساواة في الالتحاق بالوظائف العليا المدنية والعسكرية

بدون تمييز مع الكفاءة، التطبيق التام لقانون التعليم الإجباري مع حرية التعليم لجميع الأهالي وإجبارية تعليم اللغة العربية، حرية الصحافة وإنشاء الجمعيات واحترام الحقوق السياسية والنقابية، تطبيق قانون فصل الدين عن الحكومة فيما يخص الدين الاسلامي. تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الأهالي. حرية التنقل إلى فرنسا من غير قيود، تطبيق قوانين العفو العام على الأهالي المسجونين سياسيا.

ولأجل الدفاع عن هذه المطالب أصدرت حركة نجم الشمال الإفريقي بفرنسا جريدة الإقدام الباريسي ثم جريدة إقدام شمال افريقيا وكلاهما لم يعمر طويلا. وفي شهر فبراير من عام 1927 م انعقد مؤتمر بروكسل المناهض للاستعمار وحضره ممثلان عن حركة نجم الشمال الافريقي مصالي الحاج من الجزائر والشاذلي خير الله من تونس إلى جانب شخصيات أخرى أمثال نهرو من الهند وسوكارنو من أندونيسيا وهوشي منه عن الفيتنام وعدة منظمات عمالية تمثل القارات الخمس. وقدم مصالي الحاج المطالب الجزائرية المتمثلة فيما يلي :

- استقلال الجزائر.

- جلاء قوات الاحتلال الفرنسية،

- تأسيس جيش وطني. وحكومة جزائرية،

- حجز الأملاك الفلاحية الكبيرة التي استولى عليها الاقطاعيون وإرجاعها إلى الفلاحين الذين سلبت منهم،

- احترام الأملاك الصغيرة و المتوسطة،

- إرجاع الأراضي و الغابات التي استولت عليها الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الجزائرية.

إلى جانب هذا طلب بإجراءات فورية منها إلغاء قانون الاندجينا و القوانين الاستثنائية وإعطاء الحقوق السياسية والمدنية للجزائريين، وإطلاق سراح المسجونين السياسيين وحرية الصحافة والجمعيات والاجتماعية.

وفي سنة 1930م بمناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر نظمت فرنسا احتفالات كبيرة صرفت فيها أموالا باهظة. وفي هذه الأثناء بعث مصالي الحاج بمذكرة إلى الأمين العام لعصبة الأمم يحثه فيها عن ظروف الاحتلال والمظالم التي

يعيشها الشعب الجزائري، كما أصدر النجم في شهر أكتوبر من نفس السنة العدد الأول من جريدة الأمة بباريس وكان مديرها ومؤسسها مصالي الحاج، وتوقفت عن الصدور في أوائل الحرب العالمية الثانية. وفي يوم 28 ماي 1933م انعقد مؤتمر نجم الشمال الافريقي و حدد فيه برنامجه السياسي والقوانين الداخلية والمطالب المستعجلة التي صودق عليها بالاجماع، وبسبب حل الحزب أسس أعضاؤه عام 1934م نجم الشمال الافريقي المجيد. كبديل للنجم المنحل ولكن في نفس السنة كسرت المحكمة حكم حل النجم، لأنه لم ينفذ في الوقت القانوني. وهكذا أعيد النجم الشمال الافريقي الأول. وفي نفس السنة اعتقل مصالي الحاج رفقة عميماش وراجف وحكم على الأول بستة أشهر وعلى الثاني بأربعة وعلى الثالث بثلاثة أشهر وخمسة الاف فرنك فرنسي غرامة للثلاث. وإثر حوادث قسنطينة التي وقعت بين المسلمين الجزائريين واليهود في 3 أوت 1934 جراء اعتداء يهود قسنطينة على المساجد ومسلميها واطلاق الرصاص عليهم وحميتهم من الشرطة الفرنسية بعث نجم شمال افريقيا وفدا بقيادة محامي للدفاع عن الجزائريين الذين تصدوا لهم، كما وقف النجم إلى جانب إخوانه التونسيين الذين نفاهم الاستعمار الفرنسي إلى الصحراء وبعثت وفدا إلى البرلمان للتدخل لتحرير القادة التونسيين. وفي فبراير 1935م أسس الاتحاد الوطني لمسلمي شمال افريقيا كخلف لنجم الشمال الافريقي الذي حلته الحكومة ثانية. أما على الصعيد العالمي فقد دافع النجم على قضية احتلال الحبشة من طرف ايطاليا وبعث بوفد إلى عصبة الأمم يستنكر فيه هذا العمل الشنيع، كما شارك في مؤتمر مسلمي أوروبا الذي انعقد بجنيف تحت رئاسة الأمير شكيب أرسلان ولعب هذا الأخير دورا كبيرا في تغيير فكره السياسي من الشيوعية إلى الأفكار القومية العربية الإسلامية. ووقف مع القضية الفلسطينية أثناء احتلال هذه الأخيرة سنة 1948 م من طرف الصهاينة اليهود. واستفاد مصالي الحاج ورفقاوه من العفو العام عن السياسيين الذي أصدرته الجبهة الشعبية عند فوزها بالانتخابات التشريعية ودخل مصالي من جنيف، وعند عودته إلى الجزائر ألقى مصالي الحاج يوم 2 أوت 1936م خطابا أمام حشد كبير من المواطنين بالملعب البلدي للجزائر حثهم على النضال وندد ببرنامج بلوم فيوليت وقرارات المؤتمر الاسلامي المطالبة بسياسة الاندماج والحاق الجزائر بفرنسا، وقام من بعدها بجولات في العديد من المدن الجزائرية ألقى خلالها عددا من الخطب موضحا فيها البرنامج السياسي للنجم أكسبته العديد من الأنصار سمحت له بفتح فروع كثيرة عبر التراب الوطني. وفي عام 1936م عرفت الجزائر احتجاجات كبيرة قادتها الطبقة الشغيلة الجزائرية وبدأ المواطنون يعون حقوقهم و

يشاركون في المظاهرات السياسية، وبينما كانت الحرب الأهلية مشتعلة في اسبانيا سنة 1936م طلب الحزب الشيوعي الفرنسي من نجم الشمال الافريقي أن يبعث بمناضليه ليحاربوا في صف الجمهوريين وكانت الحكومة الفرنسية تؤيدهم، فطلب النجم من الحكومة الجمهورية أن تصرح باستقلال الريف كشرط أساسي للكفاح معهم، فسبب له هذا الموقف قرارا أصدرته حكومة الجبهة الشعبية حل بموجبه نجم شمال إفريقيا في يوم 26 جانفي 1936م، ولكن زعماءه واصلوا النضال باسم أحباب الأمة، وفي اجتماع بباريس يوم 11 مارس 1937م أعلن أعضاء أحباب الأمة تأسيس حزب الشعب الجزائري.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تأسست جمعية العلماء في 5 ماي 1931م بنادي الترقي بالجزائر العاصمة وضمت رجال الطرق والاصلاح في سنتها الأولى وأنتخب الإمام عبد الحميد بن باديس رئيسا لها، ولم يتمكن الاصلاحيون من فرض آرائهم الا في سنة 1932م. وولد بن باديس سنة 1889م بقسنطينة أين تمدرس وواصل دراسته في جامع الزيتونة بتونس، وعند عودته من البقاع المقدسة سنة 1913 م اشتغل بمهنة التعليم الحر في قسنطينة، وإلى غاية عام 1925 م ركز جهوده في تربية وتعليم الأطفال والشباب العلوم الدينية من حديث وتفسير. واللغة العربية ومبادئ التاريخ والحساب، وبعد عشر سنوات من التدريس أثمرت جهوده في تكوين شباب متشبع بقيم الحضارة الاسلامية ساعده في نشر دعوته الاصلاحية في كافة التراب الجزائري، عندئذ تفرغ بن باديس لنشر دعوته عامة مخاطبا الشعب والحكومة الفرنسية، فأسس لهذا الغرض جريدة المنتقد في 2 جويلية 1925 م لكن بعد صدور ثمانية عشر عددا أوقفتها السلطات الفرنسية، فأصدر جريدة أخرى في نفس السنة اسمها الشهاب والذي استمرت في الصدور حتى عام 1929م ثم تحولت إلى مجلة شهرية إلى غاية عام 1939م حيث توقفت نهائيا، ولم يدخل في المعركة السياسية إلا في الثلاثينيات حيث حارب عدة جبهات في مقدمتهم الاستعمار ورجال الطرقية ورجال التبشير المسيحي ودعاة الفرنسة وذلك عن طريق الدفاع على مقومات الشخصية الجزائرية المتكونة من العقيدة واللغة العربية والثقافة الإسلامية، وفي هذا الصدد كتب في إحدى الصحف الناطقة باسم جمعية العلماء الجزائريين "أنَ الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها، ولغتها، ودينها، وتاريخها، لا تعد أمة بين الأمم، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر و الاندحار".

وبمناسبة الاحتفال الكبير الذي نظمه الاستعمار الفرنسي سنة 1930 م لاحياء الذكرى المائوية لاحتلال الجزائر رد عليهم بن باديس في قصيدة شعرية مشهورة نذكر منها البيتين التاليين :

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله   أو قال مات فقد كذب

يا نشئ أنت رجاؤنا وبك الصبح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب و لا تهب

ورغم أنه لم يكن من دعاة الاستقلال جهرا لظروف وأسباب معينة، إلا أنه كان بالطبع من المتحمسين لها وفي نفس الوقت يدرك أيضا أن الطريق طويل وصعب، وأنّ تحرير البلاد لا يأتي إلا بالعمل على بعث مقومات الشخصية الجزائرية من سباتها العميق ولكن كان على يقين أنّ الجزائر ستنال يوما ما استقلالها. وهذا ما تنبأ به في أحد مقالاته في الشهاب عام 1936 م حيث قال "إنّ الاستقلال حق طبيعي لكلّ أمة من أمم الدنيا. وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم، والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله. ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أنها تزداد تقلبا مع التاريخ، وليس من العسير بل إنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر". وفي يوم 16 أفريل 1940 م توفي أب النهضة الجزائرية عن سن يناهز احدى وخمسين سنة تاركا من ورائه رجالا أكملوا رسالته إلى يوم الاستقلال. ولم يكن عبد الحميد بن باديس في نضاله لوحده بل كان من حوله علماء أجلاء أمثال البشير الابراهيمي الذي خلفه في رئاسة الجمعية بعد وفاته ومبارك الميلي والطيب العقبي والأمين العمودي والعربي التبسي وتوفيق المدني والشاعر محمد العيد آل خليفة، وكلهم تخرجوا من الجامعات الاسلامية بالمشرق العربي. وكان شعارهم "الاسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا". وهي في نفس الوقت امتداد للحركة الاصلاحية التي قادها في المشرق جمال الدين الأفغاني وشكيب أرسلان. وكانت الجمعية تهدف إلى تربية النشئ وفق التعاليم الاسلامية مستلهمة أفكار الاصلاحي الشيخ محمد عبدو، وتطهير العقيدة الاسلامية من البدع والضلالات والخرافات التي أحدثها رجال الطرقية في الدين الاسلامي، ومحاربة الجهل والافات الاجتماعية. كالميسر والخمر وكل ما يحرمه الشرع وذلك بالرجوع إلى السلف الصالح، وكذلك إحياء اللغة العربية التي كانت مهددة في عقر دارها وتقوية الشعور بالشخصية الوطنية. ومن أجل ذلك أنشأت عبر التراب الوطني عدة جمعيات ثقافية رغم مضايقة ومراقبة سلطات الاحتلال لها، ففتحت مدارس حرة تدرس العلوم باللغة العربية، وبلغ عددها 90 مدرسة سنة 1947م و 181 عام 1954م وضمت 000 40 تلميذا، كما استعملت المساجد للوعظ والارشاد والنوادي والجرائد لنشر

أفكارها، ومن أهم الجرائد "السنة" 1933م وخلفتها "الشريعة" ثم عقبتها جريدة الصراط وأخيرا "البصائر" 1935م، و كانت تصدر باللغة العربية. وابتداء من عام 1936 م اعتنت الجمعية بالجالية الجزائرية في فرنسا خوفا من انسلاخها عن عروبتها واسلامها وذوبانها في المجتمع الفرنسي. ولهذا الغرض بعثت إلى فرنسا الشيخ الأستاذ الفضيل الورتلاني وأمدته بمجموعة من المعلمين، وفعلا استطاع أن يفتح عدة نوادي بأحياء باريس يقدم فيها الوعظ والارشاد وتعليم أطفال المهاجرين مبادئ اللغة العربية والدين الاسلامي والتاريخ الجزائري. وقد ساعد نشاط جمعية العلماء في تنمية الحس السياسي لدى الكثير من زعماء الثورة التحريرية دفعت بهم إلى الانضمام الى حزب الشعب ومن بعد صفوف جبهة التحرير الوطني، فقد كان خطابها دينيا لكن ذا أبعاد سياسية. وفي عهدها الأول حاربت أنصار سياسة الاندماج، وهذا ما يتبين من تصريح ابن باديس الصادر في شهر أفريل1936م في مجلة الشهاب ردا على المقال الذي كتبه فرحات عباس بالفرنسية أنكر فيه وجود الشخصية الجزائرية في التاريخ الجزائري بقوله" نحن العلماء نتكلم باسم أغلبية الشعب، نقول للذين يزعمون أنهم فرنسيون. لا تمثلوننا. إننا نحن فتشنا في التاريخ، وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كلَ أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية، واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة، وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح، شأن كلَ أمة في الدنيا. ثم إنَ هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وأخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها. لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري، بحدوده الحالية المعروفة".

كما لم تتدخل في عهدها الأول في شؤون السياسة لأن قانونها الاساسي كان يمنعها من ذلك، وبمجيء الجبهة الاشتراكية للحكم أعيد الأمل للحركة السياسة الجزائرية، فبدأت الجمعية تتحرك سياسيا عن طريق مشاركتها في المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد في 7 جوان 1936م بسينما "الماجيستيك" الأطلس حاليا و الواقعة بحي باب الواد الجزائر العاصمة. وتبنى المشاركون ميثاق المؤتمر والذي شمل مجموعة من المطالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما طالبوا بإلحاق الجزائر بفرنسا والتمثيل بالبرلمان الفرنسي، وإلغاء الولاية العامة الجزائرية ومجلس النيابات المالية ونظام البلديات المختلطة. وعين المؤتمر وفدا للذهاب إلى فرنسا

ليقدم مطالبه للحكومة الاشتراكية التي كان يترأسها ليون بلوم، وكان يضم من الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمي والطيب العقبي والأمين العمودي. والمنتخبون الدكتور بن جلول و فرحات عباس إضافة إلى ممثلين عن شرق وغرب وجنوب الجزائر، واستقبل الوفد من طرف رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم والنائب موريس فوبليت الوالي العام السابق للجزائر، وعند رجوعهم إلى أرض الوطن أقيم تجمع كبير بالملعب البلدي بالعناصر وقدم الوفد تقريرا عن مهمتهم بباريس. وفي نفس السنة قدم مشروع بلوم فيوليت Blum-Viollette إلى البرلمان، ويمنح هذا المشروع حق المواطنة الفرنسية لفئات معينة من المجتمع الجزائري المتحصلة على شهادات تعليم والمنتخبين والعسكريين ذوي الرتب والموظفين مع المحافظة على أحوالهم الشخصية الاسلامية، وسانده كلَ من المؤتمر الإسلامي بما فيه جمعية العلماء والحزب الشيوعي الجزائري. وقبل مناقشته من قبل البرلمان ارتفعت أصوات المعمرين الأوروبيين خاصة منهم النواب منددة ومستنكرة هذا المشروع وبعثت بوفد إلى فرنسا لالغائه وهدد بالاستقالة الجماعية وبالانفصال في حالة قبوله، وأخيرا ألغت الحكومة هذا المشروع، فخبت آمال المؤتمر الاسلامي، والتحق أعضاؤه بكل من التجمع الجزائري - الفرنسي الاسلامي الذي كان يقوده الدكتور بن جلول واتحاد الشعب الجزائر ي الذي أسسه فرحات عباس سنة 1938م، وبدأ به مرحلة جديدة من النضال السياسي بعد أن تخلى عن فكرة الاندماج. أما جمعية العلماء فواصلت مشروعها الثقافي و الديني إلى حين اندلاع الثورة التحريرية.

اتحاد الشعب الجزائري

تأسس هذا الحزب على يد فرحات عباس سنة 1938 م، وهو من مواليد مدينة الطاهير (جيجل) يوم 24 أكتوبر 1899 م، عاش صغره في وسط الفلاحين، وهو على خلاف مصالي الحاج لا يؤمن باستعمال العنف للوصول إلى أهدافه السياسية، وهو من عائلة غنية سمح له مركز أبيه الذي كان يشغل منصب قايد لدى السلطات الفرنسية في مواصلة تعليمه بالمدارس الفرنسية الموجودة بالجزائر، ونال جميع الشهادات الابتدائية والثانوية والجامعية وتخرج عام 1931م صيدليا وفتح صيدلية بمدينة سطيف واشتغل بها. تزوج بفرنسية، ووافته المنية بالجزائر يوم 24 ديسمبر 1985م، ومن مؤلفاته : الشاب الجزائري. ليل الاستعمار، تشريح حرب الذي صدر عام 1980م، الاستقلال المصادر عام 1984م.

دخل المعترك السياسي بداية من عام 1922م، وكان قبل تأسيسه لحزب اتحاد الشعب الجزائري من أنصار الأمير خالد ولمّا نفي هذا الأخير إلى دمشق أنشأ سنة 1927 م مع مجموعة من النخبة الجزائرية المثقفة المعروفين بميلهم للفكر الاندماجي أمثال الدكتور بن جلول وابن تامي "اتحاد النواب المسلمين الجزائريين". كما انتخب عام 1926م رئيسا لجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين، وأصبح سنة 1927م رئيسا لجمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا. وأثرت فيه المدرسة الفرنسية إلى درجة أن جعلته في بداية مشواره السياسي لا يؤمن حتى بوجود أمة جزائرية وهذا ما يتبين من خلال مقاله الذي ردت عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كما ذكرنا سابقا و جاء فيه ما يلي : "انني لست مستعدا للموت في سبيل الوطن الجزائري، لأنَ هذا الوطن لا وجود له، انني لم أكتشفه، ولقد سألت عنه التاريخ، سألت عنه الأحياء والأموات. وزرت المقابر من أجل اكتشافه، فلم أجد من كلمني عنه اطلاقا. إننا لا يجب أن نبني فوق الرمال. وانني قد أبعدت بصفة باتة ونهائية كل خيال، لكي نربط مصيرنا بصفة نهائية مع الوجود الفرنسي بهذه البلاد".

وكان يرى في مطالب مصالي ضربا من الخيال، فانتهج سياسة الاندماج مع الاحتفاظ بالهوية الاسلامية للشعب الجزائري لتحقيق ما يصبو إليه، فبالنسبة إليه يمكن أن يكون الشعب الجزائري في نفس الوقت مسلم وفرنسي. إلا أن أفكاره لم تجد صدى سواء لدى الشعب الجزائري أو السلطات الفرنسية، فلقد رفضت الحكومة الفرنسية سنة 1933م استقبال وفده الذي سافر إلى باريس قصد الدفاع

على مشروع فيوليت الاندماجي. ولم تتحقق أحلامه إلا بمجيئ حكومة الجبهة الشعبية سنة 1936م فشارك مع مجموعة من القادة السياسيين الجزائريين في تأسيس المؤتمر الاسلامي سنة 1936 وطالب بالمساواة في الحقوق بين الجزائريين والأوروبيين في إطار السيادة الفرنسية، وأيد مشروع بلوم فيوليت الاندماجي والذي خيب في نهاية الأمر اماله، وكان نقطة بداية في تحول فكره السياسي فلقد علمته تجربته السياسية من خلال احتكاكه مع النواب الأوروبيين في المجالس البلدية والبرلمان أن مطالبه السياسية غير مجدية وهذا رغم التنازلات التي رضي بها. ولهذا تخلى عن فكرة الاندماج، فقال قولته المشهورة "إنَ وعودا قد أعلنت و لكن لم يتحقق شيئ منها ... فتحرير الانسان الأهلي سيكون مهمة الانسان الأهلي نفسه، ولكي يتحقق ذلك لابد من تحريك الجماهير. لذلك فإن واجبنا يتمثل في شعار "بالشعب من أجل الشعب" ونحن نأمل أن تعتمد الجزائر على الديمقراطية الفرنسية، ولكن تحتفظ بذاتها ولغتها وبعاداتها وتقاليدها". ومن ذلك اليوم اعتنق مبادئ الوطنية الجزائرية فانفصل عن التيار الاندماجي الذي كان يتزعمه الدكتور بن جلول وأسس سنة 1938م حزب اتحاد الشعب الجزائري وذلك من أجل تجسيد برنامجه السياسي الذي يتمحور حول محاربة الاستعمار والامبريالية، فأصبح يطالب باصلاحات سياسية واقتصادية وثقافية تعبر عن انشغالات الشعب الجزائري. كما شارك في صياغة بيان الشعب الجزائري الذي قدم للحلفاء سنة 1942م والذي رفضه الحاكم العام على الجزائر كاترو جملة وتفصيلا، وأكد أنَ فرنسا لن توافق أبدا على استقلال الجزائر. كما كان من المؤسسين لحركة أحباب البيان والحرية سنة 1944م إلى جانب جمعية العلماء وموافقة حزب الشعب و كان يهدف من ورائه إلى تحقيق فكرة الجمهورية الجزائرية مستقلة ذاتيا و متحدة فيديراليا مع فرنسا و أصدر لهذا الغرض صحيفة "المساواة" ولقيت الحركة مساندة أغلبية الشعب و انضمت إليها مختلف شرائح المجتمع إلا أنها لم تعمر طويلا لسبب الخلاف الذي ظهر بين المصاليين وفرحات عباس حول مطالب الحركة فبينما كان حزب الشعب يطالب بفكرة انشاء برلمان وحكومة جزائرية كانت فئة المعتدلين بقيادة فرحات تطالب بتأسيس جمهورية جزائرية مشتركة مع فرنسا. وعلى إثر حوادث 8 ماي 1945م أوقف فرحات عباس وزج به في السجن رغم أنه لم يشارك في هذه الأحداث ولم يطلق صراحه إلا بإصدار العفو الشامل من الحكومة الفرنسية سنة 1946م. وقد تأثر كثيرا بهذه الأحداث مما جعله يبتعد عن حزب الشعب، وأسس الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بمدينة سطيف في شهر أفريل سنة 1946م وشارك في انتخابات الجمعية التأسيسية الفرنسية الثانية

ودافع في حملته الانتخابية على سياسة الاندماج مع المحافظة على الشخصية الاسلامية للشعب الجزائري. وأيد قيام دولة جزائرية يكون فيها الجزائريون والأوروبيون متساوين في الحقوق وحصل على 11 مقعدا. وقدم عام 1946م مشروع دستور الجزائر إلى الجمعية التأسيسية لكن رفضت البحث فيه. كما كان من المنددين الأولين لعمليات تزوير انتخابات المجالس البلدية ودفع على المرشحين المعتقلين من بينهم أعضاء حركة انتصار الحريات الديمقراطية وكلفه هذا العمل الطرد من الجمعية الجزائرية. وفي عام 1951م انضم حزبه إلى باقي الأحزاب الجزائرية المعارضة من جمعية العلماء وحركة انتصار الحريات الديمقراطية والحزب الشيوعي الجزائري وانبثق عن هذا التجمع "الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات الديمقراطية واحترامها" وتتمثل مطالبها فيما يلي إلغاء نتائج الانتخابات التشريعية، احترام حرية الاقتراع في انتخابات الدرجتين. احترام لحريات الأساسية للعقيدة والفكر والصحافة والاجتماع، مقاومة الاضطهاد بكل أشكاله. إطلاق سراح المعتقلين السياسيين. الفصل بين العقيدة الاسلامية والدولة. ولم تعمر هذه الجبهة طويلا. وفي 7 أفريل 1956م أعلن فرحات عباس في مؤتمر صحافي بالقاهرة انضمام حزبه الى جبهة التحرير الوطني و وضع نفسه في خدمة الثورة و هذا ما تحقق له إذ أصبح أول رئيس للحكومة الجزائرية المؤقتة من سنة 1958م إلى غاية 1961 م. وبعد الاستقلال رفض فرحات عباس أن يكون في نظام الحزب الواحد. فدخل في خلافات سياسية مع الرئيس أحمد بن بلة واستقال من الجمعية العامة في بداية الستينات، فعاش بقية حياته في ظل التهميش والنسيان تحت الاقامة الجبرية إلى أن وافته المنية.

الحزب الشيوعي الجزائري

أسس الحزب الشيوعي الفرنسي فرعا له بالجزائر ابتداء من عام 1924 م وضل تابعا له لمدة اثنى عشر سنة، وكان مكوّنا من العمال الجزائريين والأوروبيين ولكن أغلبية الأعضاء المنخرطين فيه والمسيرين له من الأوروبيين. وقد دافع هذا الحزب عن مطالب العمال الجزائريين بالمهجر ومن خلاله تعلموا وسائل النضال والكفاح، كما كان في البداية من المساندين لاستقلال الجزائر نظريا والمنددين بقانون الأهالي وجميع القوانين الاستثنائية التي أصدرتها فرنسا على الجزائريين، كما وقف ضد أنصار الاندماج وندد بالاحتفالات المخلدة لمرور مائة سنة عن احتلال الجزائر وطالب برحيل الاستعمار والامبريالية عن الجزائر، ولو أنه حقيقة كان يدافع عن طبقة البروليتاريا ضد المستغلين الأوروبيين، إلا أنّه لم يعان الحرمان الذي كان مسلطا على الشعب الجزائري، ولذا لم يؤمن يوما ما بحق الشعب الجزائري في الاستقلال و الحرية. و نظرا للتقدم الضئيل للشيوعية في أوساط الجماهير الشعبية الجزائرية و الأوروبية و عدم تمكنه من إيجاد قاعدة هامة تمثل هذا التيار طالب الحزب الشيوعي الفرنسي من الأوروبيين تأسيس حزب شيوعي جزائري، وذلك ماتم في المؤتمر التأسيسي الذي انعقد بالجزائر العاصمة يومي 17 و 18 أكتوبر 1936م، ولكن بقي خاضعا لتوجيهات الحزب الأم بفرنسا والذي هو بدوره عنصر من عناصر الأممية الشيوعية. وبعد أن كان من قبل يؤيد استقلال الجزائر أصبح من دعاة الاندماج، فلقد كان من مناصري مشروع بلوم فيوليت الاندماجي ولذا ساند مطالب المؤتمر الاسلامي لعام 1936، وعلى اثر الأحداث الدامية التي ذهب ضحيتها الشعب الجزائري أصدر الحزب الشيوعي الجزائري يوم 3 ماي 1945 م بيانا ندد فيه حزب مصالي واتهمه بالفاشية والنازية وحمله مسؤولية المجازر .

وفي المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الفرنسي الذي انعقد عام 1945م قال مندوبو الحزب الشيوعي الجزائري ما يلي "إن الذين يطالبون باستقلال الجزائر هم عن وعي أو غير وعي، عملاء لدولة استعمارية أخرى ... ويعمل الحزب الشيوعي الجزائر ي ويناضل لتقوية أواصر الوحدة بين الجزائريين والفرنسيين". وخرج المؤتمرون بقرار مؤيد لبقاء السيادة الفرنسية على الجزائر وتشجيع عملية الاندماج وعارضوا الأفكار الاستقلالية بحجة أنها لا تخدم المصالح الجزائرية الفرنسية. ولم يكن لهذا الحزب أي ثقل أو تأثير سياسي في أوساط الجماهير الشعبية الجزائرية، بل لم يكن يؤمن حتى بوجود أمة جزائرية ويقول في هذا

الصدد "إنّ الأمة الجزائرية هي في طور التكوين"، وكأنما كان ينقصها المعمرون الأوروبيون المستغلون لتكتمل. وعند اندلاع ثورة نوفمبر 1954 وقف الحزب الشيوعي الجزائري موقفا مناهضا لها بحجة "أن الحزب لا يوافق على دعم الحركات الفردية والمشبوهة والتي تحاول لعب الدور السيئ في الحركة الاستعمارية". ورغم النداءات المتكررة من حزب جبهة التحرير الوطني له للالتحاق بالثورة الا أنه رفض المشاركة وطلب من أعضائه عدم الالتحاق بها وتدعيمها، لكن بعض المناضلين الجزائريين المنخرطين فيه انضموا إلى الثورة بصورة فردية. وكان يرى بأن أسباب الثورة راجع للحالة الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها الجزائريون، وبقي يمارس نشاطه السياسي بعد ثورة نوفمبر ويشارك في الانتخابات ويتخذ المواقف إلى أن حل كغيره من الأحزاب الجزائرية بقرار من وزارة الداخلية الفرنسية سنة 1955 م، أما نواب الحزب الشيوعي الفرنسي فساندوا سنة 1956م كغيرهم من نواب اليمين والاشتراكين السياسة العدوانية لفرنسا، وخولوا بالاجماع حكومة غي مولي السلطة المطلقة في الجزائر.

حـزب الـشـعـب الجـزائري
و حركة انتصار الحريات الـديمقراطية

وهو امتداد للنجم الشمال الافريقيى الذي حلته حكومة الجبهة الشعبية يوم 26 جانفي 1937م لأفكاره الاستقلالية، ورفضه المشاركة في الحرب الأهلية باسبانيا إلى جانب الجمهوريين، وتم تأسيسه من طرف مصالي الحاج يوم 11 مارس 1937م بمدينة ننتار الفرنسية، وبقي وفيا لمبادئ النجم المتمثلة في الغاء قانون الاندجينا والمطالبة بالمساواة في الحقوق وحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره عن طريق الاستقلال. ودخل إلى ساحة النضال السياسي بحزب منظم ومهيكل هادفا من ورائه استقلال الجزائر ولقي ترحيبا كبيرا في أوساط الطبقة الشغيلة بالمهجر وداخل الوطن وضم في صفوفه مختلف شرائح المجتمع الجزائري المتحمس لقضية شعبه بما فيه العمال والفلاحين والتجار وأسس فروع في مختلف القطر الجزائري.

وفي ربيع 1937م عاد مصالي الحاج إلى أرض الوطن والتقى بمناضليه وعقد معهم عدة اجتماعات، فاستهل الحزب نشاطه بالدعوة الى الاضرابات والمظاهرات وكانت جريدة الأمة والمنشورات توزع على الجزائريين تحثهم على النضال. ونشيدها فداء الجزائر للشاعر مفدي زكريا يسمع في مختلف المهرجانات العامة والخاصة جاعلة من العلم الجزائري ذو اللون الأخضر والأبيض ويتوسطه هلال ونجمة رايتها، وازداد التحمس والشعور بالوطنية لدى الجزائريين. ولما شعر الاستعمار بخطورته اعتقل مصالي وأصحابه بتهمة التحريض على أعمال العنف، واودعوا في السجن وحكم عليهم بسنتين، فقاموا بإضراب عن الطعام مدة أسبوع وتحصلوا على نظام السجين السياسي. وكانوا يعقدون في سجن الحراش اجتماعات ولدت على اثرها جريدة نصف شهرية تسمى "بالبرلمان الجزائري". وقام الحاكم العام بالجزائر بحملة انتقامية على أعضاء حزب الشعب، حيث توفي مسؤول حزب الشعب على الجزائر السيد أرزقي لكحل في السجن. وفي سنة 1939 م شارك حزب الشعب في الحملة الانتخابية التي نظمتها السلطات الاستعمارية وزورتها رغم فوزه الساحق. وفي بداية الحرب العالمية الثانية يوم 26 سبتمبر 1939م حل رئيس الجمهورية الفرنسية ألبر لبرون Albert Lebrun حزب الشعب الجزائري ومنعت جريدة الأمة والبرلمان الجزائري من الصدور، واعتقل الكثير من مناضليه داخل وخارج الوطن، وعلى إثرها دخل حزب الشعب في السرية طوال الحرب العالمية

الثانية 1939م -1945م، وجند الشباب الجزائري للمشاركة في الحرب، وأثناء حكم الرئيس الفرنسي فيشي Vichy طلب من مصالي التعاون معه لكنه رفض، فحكم عليه يوم 17 ما رس 1941م بعقوبة 16 سنة أعمالا شاقة وبالابعاد عن الأرض الفرنسية والجزائرية لمدة عشرين سنة، وبغرامة مالية قدرها ثلاثون مليونا من الفرنكات وذلك بحجة المساس بأمن الدولة.

وخلال الحرب العالمية الثانية اتصل بعض أعضاء حزب الشعب بألمانيا النازية رغم معارضة قيادة الحزب، وذلك بغية مساعدتهم على استقلال الجزائر ولكنها كانت بدون جدوى. ولما نزل الحلفاء الأمريكان والبريطانيون بأرض الجزائر عام 1942م اتفق الوطنيون الجزائريون بما فيهم أعضاء من حزب الشعب وجمعية العلماء على صياغة بيان يقدم للحلفاء، وكلف لهذا الغرض وفد برئاسة فرحات عباس للاتصال بهم، وقدم البيان للحاكم العام بالجزائر مارسيل بارتان ولممثلي الولايات المتحدة وبرياطنيا والاتحاد السوفياتي وإلى الجنرال ديغول الذي كان يوجه المقاومة الفرنسية من بريطانيا. وتضمن هذا البيان شروط تدعيم الشعب الجزائري للمجهود الحربي والمتمثل فيما يلي: إلغاء النظام الاستعماري وتطبيق مبدأ حق الشعب في تقرير مصيره عند نهاية الحرب. إضافة إلى مجموعة من المطالب تهم الشعب الجزائري و تتعلق بالجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. ووعدت فرنسا كعاداتها إجراء إصلاحات شاملة بإنشاء دولة جزائرية ودستور خاص بها. وفي 14 مارس 1944م انعقد تجمع ضم كل من فرحات عباس و جمعية العلماء وحزب الشعب نتج عنه "حركة أحباب البيان والحرية"، وفي 2 أفريل 1945م خرج المؤتمرون بمطالب تتضمن تأسيس حكومة جزائرية ودستور جزائري وبرلمان منتخب و جنسية جزائرية وعلم جزائري وأنشأوا جريدة "المساواة"، ولقي هذا التجمع ترحيبا كبيرا لدى المجتمع. وبمناسبة عيد العمال 1 ماي 1945م نادى حزب الشعب إلى مظاهرات على كامل التراب الوطني احتجاجا على اعتقال مصالي ومناضلي الحزب فغصت الشوارع بهم، وكانوا يحملون العلم الجزائري ولافتات مكتوبا عليها "اطلقوا سراح مصالي"، "أطلقوا سراح المعتقلين"، "الاستقلال"، وبمناسبة احتفال الحلفاء بنهاية الحرب العالمية الثانية يوم 7 ماي 1945م اعتقد الجزائريون أن جزاءهم من تضحيات الحرب العالمية الثانية الى جانب فرنسا والحلفاء سيكون الحرية و المساواة، فخرج الشعب الى الشوارع يوم 8 ماي 1945 في مسيرات سلمية عبر التراب الوطني محتفلا بالنصر مع الحلفاء بطريقته الخاصة حاملا العلم الجزائري ولافتات "تنادي

باطلاق سراح مصالي والمعتقلين وسقوط الاستعمار واستقلال الجزائر"، وبالرغم من الطابع السلمي للمسيرات حاولت السلطات الفرنسية منعها، فأمر وزير الداخلية الفرنسي من مسؤولي الشرطة بايقافها والاستيلاء على الأعلام واللافتات، لكن المتظاهرين صمدوا أمامهم ثم أطلقت الشرطة الرصاص على المتظاهرين، وكان أول ضحية الكشاف بوزيد سعال بمدينة سطيف، وانتهت المظاهرات بمقتل سبعة عشر جزائريا ومئات الجرحى كلهم من الشرق الجزائري، فتحولت إلى انتفاضة شعبية قتل على اثرها 80 معمرا فرنسيا، وفي اليوم التالي شرعت القوات الاستعمارية في تسليح الأوروبيين وجندت مختلف القوات العسكرية المتواجدة بالجزائر من بحرية وجوية وبرية أمام شعب أعزل لا يملك من القوة إلا ايمانه باستقلال الجزائر، وارتكب العسكر أعمال قمع رهيبة مسَت النساء والأطفال والشيوخ والشباب بمجرد الشك فيهم وبدون محاكمة فحولت البلاد إلى حمام من الدماء، كانت نتيجتها مجزرة 8 ماي التي ذهب ضحيتها 000 45 جزائري من الأبرياء جراء الغدر الاستعماري، دمرت على اثرها قرى بأكملها، فهي كما وصفها العلامة البشير الابراهيمي "يا يوم لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى، والذكرى التي لا تنسى، فكن من أي سنة شئت، فأنت يوم 8 ماي وكفى، وكلّ ما لك علينا من دين أن نحيي ذكراك، وكل ما علينا من واجب أن ندون تاريخك في الطروس، لئلا يمسحه النسيان من النفوس".
ومسَت هذه الأحداث بالخصوص كلّ من مدن سطيف وقالمة وخراطة، وأعلنت السلطات الاستعمارية حالة الطوارىء وطبّقت القوانين الاستثنائية العرفية في كامل البلاد، وألغيت كل الحريات الديمقراطية وشنت حملة واسعة على المناضلين السياسيين الجزائريين بدون تفرقة بين الثوريين والاندماجيين، فأوقف العديد من مناضلي حزب الشعب وحل تجمع أحباب البيان ودخل حزب الشعب في السرية. وعندما انتهى المستعْمِر من أعماله الانتقامية، قال الجنرال دوفال Duval المسؤول الأول عن المجزرة مخاطبا الحكومة الفرنسية "منحتكم السلم لمدة عشر سنوات، ولكن لا تنخدعوا، كلّ شيئ يجب أن يتغير في الجزائر". وان لم تأخذ السلطات الفرنسية هذه النبوة بجدية، فإن الشعب الجزائري استوعب الدرس من أحداث 8 ماي واعتبرها نقطة بداية لتحول مجراه التاريخي، فلقد أعادته هذه الأحداث للوعي بالحقائق الصعبة وكشفت له خرافة تحقيق الاستقلال بالوسائل السلمية.

فتحولت أنظار حزب الشعب إلى دول المغرب العربي قصد التحالف ضد الإستعمار، فاتصلت بكلّ من الحزب الدستوري التونسي وحزب الاستقلال المغربي ولكنها باءت بالفشل، وفي عام 1946 على إثر العفو العام الذي أصدره البرلمان

الفرنسي استفاد منه كل المسجونين السياسيين بما فيهم مصالي الحاج وفرحات عباس الذي ألقي عليه القبض أثناء حوادث 8 ماي 1945 م دون أن يشارك فيها، وأسَس هذا الأخير حزب "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" وشارك به في انتخابات 2 جوان 1946م، كما عاد مصالي من منفاه بكونغو ببرزافيل ودخل الجزائر وقدَم قائمته للمشاركة في انتخابات المجلس الوطني الفرنسي لعام 1946م، ولكنها رفضت بحجة أنَ حزب الشعب قد حل عام 1939، فأسس في شهر نوفمبر 1946 "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" كغطاء لحزب الشعب الذي بقى يعمل في السرية، ورغم تزوير الانتخابات تحصل على 5 مقاعد. كما فاز في انتخابات المجالس البلدية الذي تمَت في شهر نوفمبر 1947 م على أساس برنامج سياسي "مجلس تأسيسي جزائري". وفي سنة 1947 م أصدرت الحكومة الفرنسية مشروعاً نص على أن الجزائر تكوَن مجموعة من العمالات المتمتعة بالشخصية المدنية واستقلال مالي وبتنظيم خاص، وبحكومة عامة ومجلس جزائري، ويقسم أعضاء المجلس إلى فئتين متميزتين كالتالي :

60 نائبا يمثلون 922000 فرنسيا و 60 نائبا يمثلون 7860000 جزائريا.

وأمام مصادرة صور الشعب وتسلط الاستعمار في سياسته الجائرة نفذ صبر الحزب ولم يعد يرى إلا الكفاح المسلح كوسيلة وحيدة لنيل الاستقلال، فانعقد مؤتمر يوم 15 و16 فيفري 1947 م ببوزريعة وضم أعضاء حزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية أنشأت على اثره المنظمة الخاصة والتي أصبحت فيما بعد نواة الحرب التحريرية عام 1954م، وصودق على نظامها الداخلي الذي عرف بالشدة والصرامة ومن شروط التجند والالتحاق بها : الشجاعة والايمان والثبات والكتمان والحيوية وسلامة الجسم، وكان يرأسها محمد بلوزداد، كما أنتخبت اللجنة المركزية برئاسة مصالي الحاج، وقسمت المنظمة الخاصة إلى عدة محافظات:

قسنطينة : محمد بوضياف

القبائل : حسين آيت أحمد

الجزائر 1 - الجزائر - متيجة - تيطري : جيلالي رغيمي

الجزائر 2 - الشلف - الظهرة : عبد القادر بلحاج

وهران : أحمد بن بلة

وبوفاة محمد بلوزداد في إحدى مستشفيات باريس عام 1949 م اثر مرض. خلفه ايت أحمد ولكنه أبعد فيما بعد لسبب الأزمة البربرية التي عرفها الحزب بالمهجر. فخلفه أحمد بن بلة. وكانت من أهداف المنظمة خلق مخزن للأسلحة في مختلف القطر الجزائري وتدريب أعضائه على استعمال السلاح للاستعداد للثورة المسلحة. ومن أهم الأعمال التي قامت بها هذه المنظمة مهاجمة مركز البريد بوهران. ولما بلغت المنظمة قمة التنظيم اكتشف أمرها من طرف السلطات الاستعمارية إثر إلقاء القبض على بعض أعضائها بمنطقة تبسة عام 1950 م هدمت من بعدها السلطات الفرنسية هذه المنظمة. وألقت القبض على العديد من أعضائها بما فيهم قادتها أحمد بن بلة وايت أحمد والباقي دخل في السرية ومنهم من التحق بالجبال.

وفي صائفة عام 1951 م عرف الحزب أزمة داخلية بين مصالي واللجنة المركزية حول الزعامة تعمق هذا الخلاف وتطور إلى حين اندلاع الثورة التحريرية. وأثناء قيام مصالي بدورة داخل الوطن ألقي عليه القبض في مدينة الشلف في 14 ماي 1952 م نفي من بعدها إلى مدينة نيور Niort بفرنسا ووضع تحت الإقامة الجبرية ومنها كان يدير الحزب.

وفي نفس السنة قام الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر بالإطاحة بالنظام الملكي المصري الذي كان يحكمه الفاروق. وفي يومي 4 و 5 و6 افريل 1953 م انعقد بالجزائر العاصمة مؤتمر حزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية وضم ستين عضواً جاءوا من مختلف أنحاء القطر الوطني تم على اثره المصادقة على مجموعة من القرارات تتعلق بالجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية. ونظرا لحدة الصراع الذي وقع بين جماعة مصالي واللجنة المركزية حول تسيير الحزب. فبينما كان مصالي يطالب بالسلطة المطلقة في قيادة الحزب كانت اللجنة المركزية تدافع عن مبدأ القيادة الجماعية. وأدى هذا النقاش إلى مشادات عنيفة بين الطرفين. وفي هذا الخضم ظهر تيار ثالث غير منحاز للطرفين أسس اللجنة الثورية للوحدة والعمل في يوم 23 مارس 1954 م تم بمبادرة من قدماء المنظمة الخاصة وعلى رأسهم محمد بوضياف كحل جذري للصراع والنقاش العقيم الذي كان يدور بين أنصار مصالي والمركزيين. وشرعوا في العمل فورا في تنظيم الكفاح المسلح. ولهذا الغرض انعقد في شهر جوان 1954 م اجتماع الأعضاء 22 للجنة الثورية للوحدة والعمل بصالمبي المدنية والمتكونة من قدماء المنظمة الخاصة و تبنوا مبدأ الكفاح المسلح. وانبثقت من هذه المجموعة لجنة قيادية ضمت

ستة أعضاء يرأسهم بوضياف، وفي نهاية شهر أكتوبر اجتمع الست مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهيدي، رابح بيطاط، محمد بوضياف، ديدوش مراد و كريم بلقاسم وأصدروا بيانا شرحوا فيه أسباب اللجوء إلى الثورة المسلحة، وقرروا أن يكون يوم اندلاع الثورة 1 نوفمبر 1954 على الساعة0، واتصلوا بالزعماء الثلاثة الموجودين في القاهرة ليمثلوا الثورة في الخارج وهم "أحمد بن بلة" و "ايت أحمد" و "محمد خيضر". وقسموا الجزائر إلى خمس مناطق وعينوا عليها مسئوليها و نوابهم كما يلي

المنطقة الأولى الأوراس ويشرف عليها مصطفى بن بولعيد وينوب عنه بشير شيهاني.

المنطقة الثانية: قسنطينة ويشرف عليها ديدوش مراد وينوب عنه زيغود يوسف.

المنطقة الثالثة : القبائل ويشرف عليها كريم بلقاسم وينوب عنه عمر اوعمران.

المنطقة الرابعة الجزائر ويشرف عليها رابح بيطاط وينوب عنه سويداني بوجمعة.

المنطقة الخامسة : وهران ويشرف عليها العربي بن مهيدي و ينوب عنه عبد الحفيظ بوصوف.

أما مصالي وأنصاره فقد رفضوا الاندماج في جبهة وجيش التحرير الوطني وأسسوا الحركة الوطنية الجزائرية التي أصبحت عدو وخصم جبهة التحرير الوطني أثناء كفاحها المسلح. إلا أن البعض من أعضائها تدارك الأخطاء وانضم إلى الثورة. وهكذا خسر مصالي الحاج خاتمته تفاهة بعد أن كان من قبل رمزا هاما من رموز النضال السياسي الجزائري.

الوضع الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي قبل اندلاع ثورة نوفمبر

أدّت سياسة مصادرة الأراضي الفلاحية إلى الهجرة الجماعية لسكان الأرياف نحو المدن ابتداءً من مطلع القرن العشرين، أمّا الأقلية الباقية فمنها من وجدت صعوبة في زراعة أراضيها الفلاحية القاحلة ومنها من استخدمت كخماسين في أراضي المعمرين. وفي المدن سكن الجزائريون في الأحياء القصديرية وتعرضوا إلى مختلف أنواع التميز العنصري، واستغلوا من طرف المعمرين الأوروبيين بأبخس الأثمان في شتى النشاطات الاقتصادية، هذا لمن وجد عملاً أما البطالون فأجبر الكثير منهم على الهجرة نحو فرنسا لكسب قوته، وبينما كان الأوروبيون يعيشون حياة رخاء ورفاهية كان الشعب الجزائري يعاني من الحياة الضنكى اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. ولما أكمل الاستعمار الفرنسي من سلب أراضي الجزائريين في الأرياف تحولت نظرته إلى خيراتها الباطنية، فاستغل واحتكر ثرواتها المعدنية وسيطر على تجاراتها الخارجية، وأصبحت الجزائر مثلما كانت عليه في عهد الرومان مخزناً فلاحياً ومعدنياً لخدمة فرنسا الأم، والحقيقة أنّ الشعب الجزائري لم يستفد من يوم أن وضع الفرنسيون أقدامهم على أرض الوطن من خيرات بلادهم ماعدا الأقلية القليلة جدا التي كانت تخدم فرنسا باخلاص ووفاء في الأرياف والمدن ضد مصلحة شعبهم وبلادهم. ففي الميدان الفلاحي قضت فرنسا على معظم المزروعات التي كانت تنتجها الجزائر قبل الاحتلال فبعد أن كانت الجزائر تصدر القمح أصبحت تستورده، وحاولت في البداية تجربة منتوجات المناطق الاستوائية مثل القهوة وقصب السكر والشاي لكنّها لم تؤد إلى نتائج مرضية، فحولوها بزراعة الكروم المنتجة لعنب الخمور، ولمّا عرف هذا المنتوج نجاحا كبيرا ركزوا جهوداهم لزراعته و توسيعه على حساب زراعة القمح وأنواع الحبوب، فخصصوا له أحسن الأراضي فمن 20000 هكتار عام 1878 م إلى 155000 هكتار عام 1914 م لتصبح سنة 1935م تبلغ المساحة المخصصة لزراعة الكروم 400000 هكتار، فأصبح منتوجها يبلغ نسبة 40 % من صادرات الجزائر، هذا إلى جانب أن الأراضي المسقية كانت قليلة إذا ما قارنها بمجموع الأراضي الصالحة للفلاحة لعدم اعتنائهم ببناء السدود. أما الصناعة فلم تعرف تقدماً كبيراً إذ لم تكن متطورة بالمفهوم الحديث مثلما كانت عليه فرنسا، فهي أشبه بالصناعات الحرفية لم تستخدم يد عاملة كثيرة وهي عبارة عن مؤسسات متوسطة الحجم مختصة في صناعة

تحويل المنتوجات الفلاحية والبناء والنسيج والأحذية وكانت معظمها متمركزة بالمدن الكبرى مثل الجزائر العاصمة ووهران وأنشطها قطاع البناء، هذا إلى جانب الصناعات الاستخراجية من حديد وفوسفاط ونحاس وزنك، ولم تكتشف وتستغل البترول والغاز إلا في الخمسينات. وكانت كلّ هذه المنتوجات الصناعية والفلاحية تصدر مباشرة إلى فرنسا، وبالمقابل لم تستوعب يداً عاملة كثيرة، فعاش الجزائريون حالة بطالة فادحة في المدن المكتضة بهم والباقي هاجر إلى فرنسا، وقد بلغ عددهم سنة 1954 م 208000 مهاجر. و لتسهيل استنزاف تلك الثروات أنشأت السلطات الاستعمارية شبكة من السكك الحديدية في شمال وغرب وشرق وجنوب الجزائر تربط مناطق استخراج المعادن والمنتوجات الفلاحية بموانئ التصدير. أمّا ميدان الثقافة فقد اتسم بالأمية الكبيرة المنتشرة في أوساط الشعب الجزائري فلقد بلغت نسبتها 94 % بين الرجال و96 % بين الفتيات. وهذا حسب الاحصائيات الرسمية الفرنسية التي نشرتها الولاية العامة في الجزائر، فمن مجموع 6000 آلاف طالب مسجل بجامعة مدينة الجزائر خلال العشر سنوات قبل اندلاع الثورة يوجد من بينهم 500 جزائري، وهذا هو السبب الذي أدى بالسلطة الجزائرية في العشرية الأولى من الاستقلال إلى جلب معلمين من الخارج، وقد سبب هذا الوضع في انتشار البدع والخرافات والعادات السيئة في أوساط الأميين خاصة في الأرياف. أمّا المراكز الصحية فلم يستفيد منها إلا سكان المدن، بينما أغلبية سكان الأرياف يتداوون بالطب التقليدي وهذا ما أثبته التقرير الذي قدمه مكتب سوستيل الحاكم العام للجزائر عام 1955 م حول الوضعية الاجتماعية المزرية الذي كان يعيشها الشعب الجزائري ونص على مايلي: "يعيش ملايين من الجزائريين المسلمين بمرتب شهري 1500 فرنك فرنسي ما يساوي 1 / 10 من متوسط المرتب الفرنسي، من سبعة أشخاص يعيش واحد في فرنسا حيث يوجد عمل. أقل من 26000 مزارع أوروبي يملك 2.6 مليون هكتار من أخصب الأراضي بمتوسط 1000 هكتار للمزارع الواحد، و4 ملايين من الأراضي القاحلة مقسمة على 800000 فلاح جزائري بمتوسط 5 هكتارات للفلاح الواحد. أمّا في ميدان الصحة ففي مدينة الجزائر 40 % من الأطفال المصابين بمرض السل يأتون من العاصمة، و 275000 طفل متمدرس بنسبة 1 / 10 من الأطفال الذين هم في سن الدراسة".

الحرب التحريرية
1954م - 1962م

وفي أول نوفمبر 1954 م اندلعت الثورة الجزائرية وشنت هجومات في نقاط عديدة من التراب الجزائري وعلى الأخص منطقة الأوراس، نفذته مجموعة من الثوار مسلحين ببنادق الصيد وأسلحة بسيطة، وتركزت الهجومات على المراكز الحساسة للسلطات الاستعمارية مثل مقرات الدرك والشرطة والثكنات ومحطات توليد الكهرباء. وتحولت اللجنة الثورية للوحدة والعمل إلى منظمة جديدة هي جبهة التحرير الوطني، وجيش التحرير الوطني وأصدرت في 31 أكتوبر 1954 بياناً موجهاً للمناضلين خاصة، وللشعب الجزائري عامة يوضح فيه طبيعة الثورة وأهدافها ومستقبلها وجاء فيه ما يلي :

"أيها الشعب الجزائري، أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية، أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا، نعني الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة، نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو : أنْ نشرح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل وذلك بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية التي تهدف إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الافريقي، ورغبتنا أيضا هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الامبريالية وعملاؤها الاداريون، وبعض محترفي السياسة الانتهازيين. نحن نعتبر قبل كلّ شيئ أنّ الحركة الوطنية بعد مراحل من الكفاح قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. فإذا كان هدف أي حركة ثورية في الواقع هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية فإننا نعتبر أنّ الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحد حول قضية الاستقلال. أما في الأوضاع الخارجية فإن جو الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الديبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين. إنّ أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحريري في شمال افريقيا. وممّا يلاحظ في هذا الميدان أننا كنا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل، هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق بين الأقطار الثلاثة ان كل واحد منها اندفع اليوم إلى هذا السبيل، أمّا نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب فإننا نتعرض إلى مصير تجاوزته الأحداث، وهكذا فإن حركتنا

الوطنية قد وجدت نفسها محطمة نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين والتوجيه السيئ والحرمان من سند الرأي العام الضروري تبدو وكأن الأحداث تجاوزتها، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحا ظنا منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية. و أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح علاجها مستحيلا رأت مجموعة من الشبان المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة، أنَ الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات، لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب اخواننا المغاربة والتونسيين. وبهذا الصدد فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين الذين يتنازعان السلطة، إنَ حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق جميع الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة. ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى الذي رفض أن يمنح أدنى حرية بوسائل الكفاح السلمية. ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت اسم جبهة التحرير الوطني. وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر. ولكي نبين بوضوح هدفنا فاننا نسطر فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا. الهدف :

الاستقلال الوطني بواسطة

- اقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن اطار المبادئ الإسلامية.

- احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.

الأهداف الداخلية :

- التطهير السياسي، بإعادة الحركة الوطنية الثورية إلى نهجها الحقيقي والقضاء على جميع مخلفات الفساد، وروح الاصلاح التي كانت عاملا هاما في تخلفنا الحالي.

- تجميع و تنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري.

الأهداف الخارجية :

- تدويل القضية الجزائرية.

- تحقيق وحدة الشمال الإفريقي في داخل إطارها الطبيعي العربي الإسلامي.

- تأكيد عطفنا الفعّال، تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية في نطاق ميثاق الأمم المتحدة.

وسائل الكفاح:

وطبقا للمبادئ الثورية، واعتبارا للأوضاع الداخلية والخارجية، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا. إنّ جبهة التحرير الوطني لكي تحقق هدفها يجب عليها أن تنجز مهمتين أساسيتين في وقت واحد هما :

1 - العمل الداخلي، سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض.

2 - العمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعية في العالم كله، وذلك بمساندة كلّ حلفائنا الطبيعين.

إنّ هذه المهمة شاقة وثقيلة العبء، وتتطلب تجنيد كل القوى وتعبئة كل الطاقات والموارد الوطنية، صحيح أنّ المعركة ستكوّن طويلة ولكن نهايتها المظفرة لا شك فيها.

وأخيرا ولكي نتجنب كلّ التأويلات المزيفة، ولكي نبرهن على رغبتنا الحقيقية في السلم، وفي التقليل من الخسائر البشرية واهدار الدماء، فإننا نقدم قاعدة مشرفة للمحادثات مع السلطات الفرنسية إذا كانت لها نوايا حسنة وإذا كانت تعترف بصفة نهائية للشعب الجزائري بحقه في تقرير المصير وهو أنّ تعترف :

1 - بالقومية الجزائرية في إعلان رسمي يلغي كلّ القوانين والقرارات التي تعتبر الجزائر أرضا فرنسية بالرغم من التاريخ، والجغرافية، والدين، والتقاليد الجزائرية.

2 - أن تفتح المفاوضات مع المتكلمين الحقيقيين باسم الشعب الجزائري على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية الموحدة التي لا تتجزأ.

3 - خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المساجين السياسيين، وابطال التدابير الاستثنائية، والتوقف عن جميع المتبعات ضد القوة المناضلة.

في مقابل ذلك :

1 - جميع المصالح الفرنسية، الثقافية والاقتصادية، التي اكتسبت بنزاهة ستحترم، وكذلك الأشخاص والعائلات.

2 - جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء في الجزائر سيخيرون بين المحافظة على جنسيتهم الأصلية وسيعتبرون عندها. كأجانب تجاه القوانين السارية أو يختارون الجنسية الجزائرية وفي هذه الحالة سيعتبرون كجزائريين في الحقوق والواجبات.

3 - الروابط بين فرنسا والجزائر ستحدد وستكون موضوع اتفاق بين الطرفين على أساس من المساواة والاحترام المتبادل.

أيها الجزائريون اننا ندعوكم إلى تأمل ميثاقنا هذا. إنَ واجبكم هو أن تنظموا إليه لإنقاذ وطننا واسترجاع حريته، إنَ جبهة التحرير هي جبهتكم فانتصا نا انتصاركم.

أمَا نحن المصممين على مواصلة الكفاح والواثقين من عواطفكم المد للاستعمار فإننا وهبنا أفضل ما عندنا للوطن وهو حياتنا.

وفي صبيحة أول نوفمبر، وزع البيان على الجزائريين، وأذيع على العا إذاعة القاهرة.

وردا على هذا البيان أعلن وزير الداخلية الفرنسي فرنسوا ميتيران قائلا : "إن الجزائر هي فرنسا، وسندافع عليها بكل الوسائل". وأصدر فورا الحاكم العام في الجزائر يوم 5 نوفمبر 1954 م قرارا حل بموجبه حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وأعطى أوامر للشرطة بإلقاء القبض على مناضلي ومسؤولي الحركة وزج بهم في السجون. ونظرت الأحزاب الجزائرية في بداية الأمر إلى هذه الثورة بتحفظ، اذ كانت تظن بأنها عابرة، ولم يلتحق بها الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الذي كان يرأسه فرحات عباس إلا بعد سنة، بينما انتظرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنتين.

ورغم الدعايات المغرضة للسلطات و الصحف الفرنسية بتشويه سمعة الثوار والتقليل من شأنهم في الداخل والخارج بوصفهم ارهابيين وفلاقة، وإبهام الرأي العام العالمي بأنَ ما يجري في الجزائر ما هو إلا مجرد تمرد، إلا أنَ جبهة التحرير

الوطني واصلت نضالها بتعبئة الشعب الجزائري حول نداء أول نوفمبر. وانضم إلى صفوف جيش التحرير مختلف شرائح المجتمع من عمال وفلاحين وتجار ومثقفين وطلبة، حتى أصبحت تعاني من شدة الإقبال. ولتخفيف الحصار الذي كان مفروضاً على منطقة الأوراس بادر جيش التحرير في وضح النهار بقيادة زيغود يوسف ومساعدة سكان المنطقة من المدنيين بشن هجومات عنيفة يوم 20 أوت 1955 م في شمال قسنطينة (سكيكدة، ميلة، الحروش) على 36 مركزاً استعماريا والذي تواصل لمدة ثلاثة أيام، ولجأ الاستعمار أثناءها إلى الانتقام من المدنيين. وكلفت هذه العملية استشهاد 1273 جزائرياً ومقتل 123 فرنسياً، أدت إلى القطيعة بين المدنيين الأوروبيين والشعب الجزائري ومددت لهيب الثورة إلى كامل الشمال القسنطيني، وبرهنت للعالم بأن الثورة الجزائرية ليست مسألة فرنسية داخلية كما كانت تدعي، وإنما تندرج في إطار حركة تحررية.

ولرفع فعالية الثورة على الصعيد الداخلي والدولي وتوحيد الصفوف والتنظيم والتنظير. قامت جبهة التحرير بتنظيم أول مؤتمر لها بمنطقة افري واد الصومام ببجاية وذلك في 20 أوت 1956 م سمي بمؤتمر الصومام، حضره كل من مندوبي الولاية الثانية، الثالثة والرابعة، ولظروف الحرب القاسية غاب عنه مندوبو الولاية الأولى والموجودون بالخارج، ورغم ذلك عرف نجاحا كبيرا، فقد حقق قفزة نوعية أعطت للثورة الجزائرية دفعا جديدا وصانتها من أخطار التمزق لأنها حالت دون وجود فراغ قيادي، إذ خرج المؤتمرون بقرارات سياسية هامة، والمتمثلة في إنشاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية المتكون من 34 عضواً 17 دائمين و 17 اضافيين، و الذي يعد بمثابة برلمان أو بالأحرى اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطنية يمثل مختلف الاتجاهات الوطنية ماعدا الحزب الشيوعي الجزائري والحركة الوطنية الجزائرية، ويتمتع بجميع الصلاحيات السياسية والعسكرية، فله الحق في مواصلة الحرب أو إيقافها. ومنه انبثقت لجنة التنسيق والتنفيذ وكانت في البداية تتكون من خمسة أعضاء وهم : عبان رمضان ويوسف بن خدة والعربي بن مهيدي وكريم بلقاسم وسعد دحلب، ثم توسعت إلى أربعة عشر. ومن مهامها الإشراف على الشؤون السياسية والعسكرية وتوجيه قادة الولايات. وتبنوا خلالها مجموعة من القرارات: منها مبدأ أولوية النضال داخل الجزائر على الخارج والسياسي على العسكري. وقسم التراب الوطني إلى ست 6 ولايات عسكرية، وكل ولاية تنقسم إلى : مناطق ونواحي وقسمات، وعلى رأس كل ولاية قائد برتبة عقيد، ونظم الجيش الى فوج وفرقة وكتيبة وفيلق. كما تم تشكيل ثلاثة أنماط من الثوار :

مجاهدون، مسبلون وفيدائيون، وأقام إلى جانبهم مرافق ذات صبغة اجتماعية تتكفل بالشؤون الصحية والتعليمية والقضائية تقدم خدماتها للجنود والمواطنين.
وفي عام 1958 م تحول جيش التحرير الوطني إلى جيش تشرف عليه هيئة عامة لقيادة الأركان تنسق العمليات العسكرية بين الولايات الست، إلى جانب هذا كان جيش التحرير يتوفر على قواعد عسكرية موجودة على التراب سالتونسي والمغربي بالقرب من الحدود، تنحصر مهمتها في إدخال الأسلحة إلى الوطن وتدريب الجنود.
وفي 19 سبتمبر 1958 م تحولت لجنة التنسيق والتنفيذ إلى أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية دامت الى غاية جويلية 1959 م وضمت 19 عضواً وهم على التوالي :

1- فرحات عباس : رئيس المجلس

2- كريم بلقاسم نائب الرئيس و وزير القوات المسلحة

3- أحمد بن بلة : نائب الرئيس

4- الأخضر بن طوبال : وزير الداخلية

5- عبد الحفيظ بوصوف : وزير الاستعلامات و الاتصال

6- الأمين دباغين : وزير الشؤون الخارجية

7- محمود شريف : وزير السلاح و المؤونة

8- عبد الحميد مهري : وزير شؤون شمال افريقيا

9- بن يوسف بن خدة : وزير الشؤون الاجتماعية

10- توفيق المدني : وزير الشؤون الثقافية

11- أحمد فرنسيس : وزير المالية

12- محمد يزيد : وزير الاعلام

13- محمد بوضياف : وزير الدولة

14- حسين آيت أحمد : وزير الدولة

15- محمد خيضر : وزير الدولة

16- رابح بيطاط : وزير الدولة

17- الأمين خان : كاتب الدولة (الولاية الثانية)

18- عمر أوصديق كاتب الدولة (الولاية الرابعة)

19- مصطفى سطمبولي : كاتب الدولة ممثل لمنطقة وهران.

و بعد يوم من تأسيسها اعترفت بها 26 دولة وكانت الدول العربية السابقة إلى ذلك. وبادرت الحكومة فور تكوينها بجولات إلى عدة عواصم عربية وإلى الهند وباكستان والصين و يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي لشرح القضية الجزائرية وطلب المساعدة العسكرية والسياسية.

ونظرا للتفوق الكبير للجيش الفرنسي من حيث العتاد اعتمدت الثورة في مواجهة العدو منذ انطلاقها وإلى غاية الاستقلال على العمليات الفدائية في المدن والمكامن والاشتباكات في المناطق الجبلية مما جعل العدو لا يستقر. فأصبحت الحكومات الفرنسية تسقط الواحدة تلوى الأخرى، هذا بالاضافة إلى الأموال الباهضة التى كانت تصرفها لتموين الحرّب والمقدرة حسب إعلان ديغول عام 1959م ب 1.000 مليار فرنك سنويا.

و تلبية لنداءات جبهة التحرير قام الاتحاد العام للعمال الجزائريين الذي كان يرأسه أنذاك الشهيد عيسات أيدير بإضراب دام أسبوعاً من 28 جانفي إلى 4 فيفري 1957 م، شلت على إثره الحركة الاقتصادية والتجارية في مختلف القطر الجزائري. وخرج الشعب الجزائري في 11 ديسمبر 1960 م في مظاهرات ضخمة انطلقت من حي بلكور بالجزائر العاصمة ثم امتدت من بعدها إلى أغلب مدن التراب الوطني حاملين لافتات تنادي باستقلال الجزائر وتندد بالاستعمار تعبيرا منهم عن وقوفهم مع جبهة التحرير الممثل الشرعي الوحيد للشعب وأنّ الجزائر ليست فرنسية. وخلفت هذه المظاهرات 112 شهيداً في صفوف الجزائريين ومئات الجرحى .

دبلوماسية الحرب

وعلى الصعيد العالمي لعبت الدبلوماسية الجزائرية دورا هاما في تدويل القضية الجزائرية في مختلف المحافل الدولية، وذلك منذ الوهلة الأولى لاندلاع ثورة نوفمبر. ففي البداية تكفلت بهذه المهمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير التي كانت متواجدة بالقاهرة. ولما تأسست الحكومة الجزائرية المؤقتة سنة 1958 م أسندت المهمة الدبلوماسية لكل من الوزارة الخارجية ووزارة الاعلام، ولعب رجالها دورا كبيرا على المستوى الجهوي والدولي بشرح قضية الجزائر وفضح سياسة فرنسا الاستعمارية و تحسيس الرأي العام العالمي حولها، مستعملة في ذلك كل الوسائل المتاحة: إلقاء المحضارات وأقامة معارض وإرسال البعثات الرياضية والفنية بجولات عبر العالم للتعريف بالقضية الجزائرية. سمحت لها هذه الأعمال بكسب العديد من الدول الصديقة في إفريقيا وآسيا وأوروبا الشرقية الى جانبها. هذا بالاضافة إلى مشاركتها في المؤتمرات الدولية مثل مؤتمر باندونغ ومؤتمر الصداقة بين شعوب إفريقيا وأسيا ومؤتمر الشعوب الافريقية وهيئة الأمم المتحدة التي اتخذت منها منبرا لسياستها الخارجية استطاعت من خلالها عزل فرنسا على الساحة الدولية، ولقت تضامنا كبيرا من قبل الدول العربية والشعوب المناهضة للامبريالية مثل الصين و يوغوسلافيا التي دعمتها عسكريا وسياسيا وسمحت لها بفتح مكاتب في عواصمها، واحتضنت العاصمة تونس عام 1957 م مقر الحكومة الجزائرية المؤقتة بعد استشهاد أبرز أعضائها. ولسبب هذا تدعيم تعرضت يوم 8 فيفري 1958 م قرية سيدي يوسف الموجودة في التراب التونسي بالقرب من الحدود الجزائرية إلى هجومات الطيران الفرنسي، كانت حصيلتها مقتل 76 شهيد و102 جريحًا من جزائريين وتونسيين ودمرت مئات المساكن. كما تعرضت الجمهورية المصرية يوم 29 كتوبر 1957 م إلى عدوان ثلاثي فرنسي بريطاني اسرائيلي، أن كانت حجتهم في الاعتداء تأميم قناة السويس. وعلى الصعيد المغاربي تجسدت مجهودات الدبلوماسية الجزائرية بانعقاد مؤتمر طنجة في شهر أفريل 1958 م الذي وضع قواعد الوحدة المغاربية .

وبمناسبة انعقاد مؤتمر باندونغ عام 1955 م للدول الأفرو-أسيوية أبدى المؤتمرون تدعيمهم المطلق للثورة الجزائرية، وبفضل الجهود الجبارة للدبلوماسية الجزائرية قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها العاشرة ولأول مرة تسجيل القضية الجزائرية على جدول أعمالها، وذلك يوم 30 سبتمبر 1956 م نتيجة

حصولها على 23 صوتا ضد 27. وفي الدورة الثالثة عشر التي انعقدت في 9 ديسمبر 1958 م قدمت دول الأفرو-أسيوية توصية تنص على الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وبأغلبية الأصوات صدقت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في شهر ديسمبر 1961 م على لائحة تطلب من خلالها الحكومة الفرنسية والجزائرية استئناف المفاوضات لغرض تقرير مصير الشعب الجزائري.

النضال السياسي للمهاجرين الجزائريين أثناء الثورة التحريرية

إن النضال السياسي للمهاجرين الجزائريين بفرنسا لأجل استقلال الجزائر لم يكن وليد ثورة نوفمبر، وإنما تعود جذوره إلى مطلع القرن العشرين حيث انخرط وناضل العمال الجزائريون في صفوف المنظمات النقابية الفرنسية اللدفاع عن حقوق اخوانهم الجزائريين. وخير دليل على ذلك ولادة أول حزب سياسي جزائري بالتراب الفرنسي ألا وهو نجم شمال افريقيا. ولم تنقطع هذه الروابط النضالية بين المهاجرين وإخوانهم في الداخل بل كانوا دائما في اتصال عن طريق المكاتب الحزبية التي أنشأوها في مختلف المدن الصناعية الفرنسية سواء في عهد نجم شمال افريقيا أو حزب الشعب أو أثناء فترة جبهة التحرير الوطني. ولقد ساهموا ماديا ومعنويا في إنجاح ثورة نوفمبر. وقدموا النفس والنفيس من أجل استقلال الجزائر. ولما اندلعت ثورة نوفمبر 1954 م نقل المهاجرون معركة الجزائر إلى فرنسا، وجراء ذلك تعرض المناضلون الجزائريون إلى مضايقات ومطاردات من طرف البوليس الفرنسي وزج بهم في السجن لغرض القضاء على نشاطهم. ولكسر هذا الحضر المفروض عليهم واسماع صوة الجزائر عالميا، وبناء على تعليمات اتحادية جبهة التحرير بفرنسا خرجَ الجزائريون رجالا ونساء في مظاهرة سلمية كبيرة يوم 17 أكتوبر 1961 م إلى شوارع باريس عاصمة حقوق الانسان بدءا من الساعة الثامنة ليلا حاملين العلم الجزائري ومرددين شعار "الاستقلال للجزائر". وعلى الساعة الحادية عشر وجدوا أنفسهم محاصرين من طرف الشرطة الفرنسية. وبأمر من السفاح النازي موريس بابون محافظ شرطة باريس ومساندة وزير الداخلية روجي فري ورئيس حكومة فرنسا ميشال دوبري هجم البوليس المتظاهرين وأجهز عليهم بالرصاص. فمنهم من قتلوا في الممرات وعلى أرصفة الشوارع ومنهم من رمي بهم في نهر السين، وألقوا القبض على المئات من الجزائريين تحت وابل من ضربات العصى والشتم، وبقوا رهن الاعتقال أكثر من أسبوع تعرضوا لشتى أنواع التعذيب والجوع. وأثناء التحقيق سلطوا عليهم الكهرباء، ومنهم من قتل بالرصاص داخل مركز الشرطة، ورفض بعض الجرحى البقاء للعلاج في المستشفى خوفا من انتقام الشرطة. وكان البوليس الفرنسي عندما يلقي القبض على المتظاهرين يسألهم هذا السؤال "أنت يا محمد تعرف السباحة. فاذا أجاب لا، يرمى به في نهر السين". وفي صباح الغد انتشلت أكثر من مائة جثة

من نهر السين، وحسب الرقم الذي قدمه جان لوك اينودي صاحب كتاب "معركة باريس" وصل عدد القتلى من الجزائريين إلى أكثر من 200 شهيد في ظرف ليلة واحدة. و لما هزت هذه المظاهرة الرأي العام الفرنسي والعالمي وأثير جدل حول الأساليب الوحشية التي أستعملت فيها أستدعي موريس بابون إلى البرلمان الفرنسي، فكان رده كما يلي : "أنَ ذلك كان ضرورياً حتمته المواجهة ضد جبهة التحرير، وبناءً على تجربة لي في (الشرق الجزائري) التعاطي مع مثل هذه الأعمال في الجزائر". وعندما رفعت احدى النساء الجزائريات دعوى قضائية على اثر فقدان زوجها رفض قاضي التحقيق النظر في القضية بدعوى أن القضية شملتها عملية العفو العام. وفي سنة 1999 قدمت الحكومة الفرنسية موريس بابون للمحاكمة بناء على طلب الدولة اليهودية و بضغط من الصهيونية العالمية للمجازر التي ارتكبها ضدهم أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كانت حكومته تعمل في صفوف النازيين الألمان المحتلين لبلده فرنسا، وهذا بعد أن تكتمت الدولة الفرنسية سنين عن أعماله الإجرامية، وفي نفس الوقت غضت عن مجازره في حق الجزائريين.

رد فعل السلطة الفرنسية تجاه الثورة الجزائرية

صرح رئيس الحكومة بيير منديس في البرلمان الفرنسي ردا على بعض النواب الجزائريين الذين طالبوه بقمع تمرد المجاهدين وتحقيق الاندماج بسرعة "لا تخافوا، إنّ الأمة لن تسمح لأحد بأن يخاطر بوحدتها. وليس هناك انفصال ممكن للجزائر عن فرنسا ..... وسنضرب بشدة، وبعد عودة الأمن سنزيل البؤس على الجزائريين". واتهم الدولة المصرية أنها وراء ذلك. وفي تصريح آخر يقول "وهناك مواطنون شنوا حربا على وطنهم ولكن الشعب لم يتبعهم. وقد اتخذنا الاجراءات الصارمة التي يقتضيها الموقف، وأعددنا وجندنا جميع الإمكانيات حتى تتغلب قوة الأمة". أما وزير الداخلية الفرنسي فرنسوا متيران فقال: "إذا كنا نقبل الحوار مع الوطنيين في البلدين المحميين المغرب وتونس، فإن ذلك غير ممكن مع الجزائر، التي هي مقاطعة فرنسية وجزء لا يتجزأ من فرنسا. وكلّ الذين يتظاهرون بشيئ ضد سلامة الأمة ووحدتها سيتعرضون لصرامة القانون. إنّ المفاوضات مع هذا البلد في هذه الحال ستكون الحرب، إذ لا يمكن أن تكون هناك محادثات بين الدولة والعصابات المتمردة التي تريد الحلول محلها". ومن هذا المنطلق عملت السلطات الفرنسية كلّ ما في وسعها لافشالها والقضاء عليها. فشرعت في مصادرة الصحف الوطنية والقبض على المناضلين والمتعاطفين مع الثورة وكلّ شخص مشبوه فيه وزجت بالآلاف من الجزائريين في السجون والمعتقلات ومراكز التعذيب التي انتشرت في مختلف أنحاء البلاد وتفننت في التنكيل بهم وتعذيبهم، ولهذا الغرض أسست مدرسة بسكيكدة اسمها جان درك يعلم فيها الضباط كيفية الحصول على المعلومات من الثوار باستعمال شتى فنون التعذيب النفسي والجسمي، كاغتصاب النساء واستعمال الكهرباء في الأماكن الحساسة من الجسم والاحراق بالسجائر والغطس في الماء والتجويع والتعريض لنهش الكلاب و تسليط الأضواء الكاشفة على العينين والتعليق لمدة ساعات من اليدين أو الرجلين، وقد وجدوا شهوة ولذة في هذا العمل الإجرامي الذي استشهد على اثره الكثير من المجاهدين، وهذه شهادة أحد الضباط الفرنسيين في رسالة كتبها إلى صديقه بفرنسا يوم 6 جوان 1956 م "صديقي جون، إني لم أشعر بالنفور والكراهية في حياتي كما شعرت بها هذه المرة أمام أعمالنا الوحشية، إنّ النازيين الألمان يعتبرون أطفالا صغارا بالقياس لنا. فقد شاهدت المكتب الثاني لجنود المظلات كيف يستجوب

المعتقلين، انهم يعذبون طوال النهار إلى أن يدلوا بمعلوماتهم. ويستعملون معهم التعذيب بالماء إلى أن يخرج الماء من جميع نواحي الجسم، ثم يربط الجنود أيدي المساجين وراء ظهورهم ثم يعلقونهم في الفضاء من أيديهم حتى تتمدد المفاصل ثم يوجعونهم ضربا. وزيادة على هذا يستعمل الكهرباء في تعذيب المساجين بوضع سلك كهرباني في العضو الجنسي والسلك الأخر في الرأس ثم يمرر التيار الكهربائي في دفعات متتالية، وتنتهي العملية أخيرا باثبات سكين في الظهر". ولما فشلت خطط الاستعمار في ملاحقة الثوار والقضاء عليهم بادر جنرالات فرنسا في محاولة إثارة مختلف التيارات الوطنية بعضها ضد بعض أملا في أن تتولى بصورة أو بأخرى إحباط طريق الكفاح المسلح، فجندت الخونة من الحركة لمساعدتهم في مهمتهم التدميرية، وسلحت جماعة بلونيس المنتمية للحركة الوطنية الجزائرية الموالية لمصالي الحاج و أرسلتهم ابتداءً من عام 1955 م للجبال لمواجهة جيش التحرير، ولكن هذا الأخير تمكن من القضاء على بلونيس وجماعته إلى غير رجعة. كما سلحت بعض الجزائريين وبعثتهم ليندسوا في صفوف جيش التحرير للقيام بأعمال إجرامية ضد الشعب الجزائري وينسبونها إلى جيش التحرير. إلا أنّ هذه العملية باءت بالفشل لأن الأشخاص المبعوثون أبلغوا قادة الجيش بالخطة. ولإعطاء صبغة شرعية لهذه الأعمال الوحشية عمدت حكومة ادغار فور إلى إصدار قانون الطوارئ الذي صادق عليه البرلمان الفرنسي يوم 3 أفريل 1955 و منح بموجبه السلطات العسكرية الضوء الأخضر لخنق أي صوت يساند ثورة نوفمبر. ولم يقف الاستعمار الفرنسي عند هذا الحد بل أعدم الكثير من المجاهدين في سجون سركاجي والحراش ولمبيز. وأول شهيد نفذ فيه حكم الاعدام هو زبانة أحمد يوم 19 جوان 1956 م على الساعة الرابعة صباحا. وهذا دون أن ننسى المفقودين الذين اختطفوا من منازلهم دون أن يعرف عليهم أي خبر إلى يومنا. ولتوسيع نطاق حربها الابادية ضد الشعب الجزائري استعمل الضباط الفرنسيون خبراتهم المكتسبة في حرب الفيتنام التي انهزموا أثناءها في معركة ديان بيان فو. فقام الجيش الفرنسي بعمليات تمشيط واسعة النطاق تدخل ضمن مخطط شال بقصف الجبال والقرى الحساسة بالطيران والمدفعية بقنابل ممنوعة دوليا والقتل الجماعي وانتهاك الحرمات باغتصاب النساء وتطبيق سياسة الأرض المحروقة. بحرق الغابات بوصفها ملجأ للمجاهدين وتطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية الذي يقضي بمعقابة كلّ سكان القرية في حالة التعاون مع المجاهدين أو إلحاق ضرر بمصالح العدو. وتكون منطقتهم مسرحا للمعارك. وهذه شهادة على سبيل المثال للكاتبين دومينيك داريو وفيليب فينيو في كتابهما "الجزائريون في حرب". "حدث يوما ما أن شيخا عمره ستون

سنة، كان يرافقه حفيده ابن اثنى عشرة سنة، فجأتهما دورية من المظليين كانت تقوم بعملية تمشيط للمنطقة فاختطفت الطفل. أمّا الشيخ فقد أعدم بالرصاص، بعد أن كسرت ذراعاه و رجلاه بعصا غليظة لا لسبب إلا لأنه جزائري". وعندما عجز الجيش الفرنسي عن القضاء على الثورة في عامها الأول، اتخذت الحكومة الفرنسية قراراً يوم 23 أوت 1955 م باستدعاء الجنود الاحتياطيين فمن من 70000 جندي عام 1954 الى 882820 عسكري عام 1960 إضافة إلى العتاد الحربي من طيران ومدفعية ودبابات و قنابل النابالم بتدعيم من الحلف الأطلسي. ولما علم بأن قوة وصمود جيش التحرير تكمن في المساندة المادية و المعنوية لأهل البوادي أنشأ المستعمر المناطق المحرمة و قام بعزل سكان الأريف عن الثورة وأجبرهم في أواخر سنة 1957 م على مغادرة مساكنهم وأراضيهم و الترحيل الجماعي. ووضعتهم في محتشدات تحت الحراسة لا تتوفر على أدنى وسائل الحياة محاطة بسياج من الأسلاك المكهربة لمنعهم من الاتصال بجيش التحرير. عاشوا فيها حياة قاسية بلغ عددهم 2600 ساكن وجمعت حوالي مليون نسمة، إلا أن هذا العمل لم ينقص من عزيمتهم في مساندة الثورة اذ أصبحت هذه المحتشدات مراكزاً للمقاومة. ولايقاف تسرب الجنود والأسلحة من الحدود عمدت إلى وضع حواجز بأسلاك مكهربة أطلق عليها اسم خط موريس وبلغت على الحدود الشرقية 450 كم وعلى الحدود الغربية 750 كم، وأنشأت بالقرب منها مراكز للمراقبة و رادارات وزرعت الألغام على طول الخط. ولتعزيز أعمالها الجهنمية أصدرت السلطات الفرنسية يوم 7 جانفي 1957 م قراراً خوّل بموجبه الجنرال ماسو Massu كلَ الصلاحيات البوليسية والعسكرية و ترك له كامل الحرية في مواجهة معركة الجزائر العاصمة ارتكب خلالها أبشع الجرائم المنافية للإنسانية من تعذيب وقمع المظاهرات واغتيالات بدون تهم وقتل البطل العربي بن مهيدي شنقا بعد تعذيبه على يد رجاله في السجن بالجزائر العاصمة بأمر من الحكومة الفرنسية يوم أن ألقي القبض علية صدفة من طرف جنود بيجار في 15فيفري 1957 بمدينة الجزائر، وأعلنت السلطات الفرنسية أنذاك بأنه انتحر واستلزم سنين من بعد استقلال الجزائر ليعترف الجنرال بول أوساريس Paul Oussaresses الذي كان يحمل أنذك رتبة مقدم في كتابه الذي صدر بباريس يوم 3 ماي 2001 م تحت عنوان "أجهزة خاصة الجزائر 1955 م- 1957م" بأنه قتل شنقا وهذه مقتطفات مما جاء من كتابه حيث يقول" في الغرفة وبمساعدة رؤسائي كبلنا العربي بن مهيدي ثم شنقناه بكيفية توحي بالانتحار، ولما تأكدت من وفاته فككت أغلاله ونقلته إلى المستشفى قبل إجرائي مكالمة هاتفية مع ماسو قائلا له: جنرالي لقد انتحر بن مهيدي وجثمانه في المستشفى وسأتيك بتقرير صباح غدٍ.

أما فيما يخص التعذيب، فإنه كان مسموحا به بل ومطلوبا وفرانسوا ميتيران وزير العدل كان له مبعوث لدى ماسو في شخص القاضي جان بيرار وهو يحمينا وكان على اطلاع كامل بما يجري في الليل. لم أكن أشعر بالحقد ولا بالشفقة كل ما كان ماثلا في ذهني هو انني أمام و ضع بالغ الاستفحال و تحت يدي شخص متورط بشكل مباشر في عملية إرهابية وكل الوسائل مقبولة لإرغامه على الكلام". ولم يكن بن مهيدي الضحية الوحيدة بل قتل أيضا على يده محامي جبهة التحرير علي بومنجل الذي ألقي من الطابق الأعلى للعمارة بكل برودة هذا نهيك عن العشرات من الجزائريين المجهولين، وما بول أوساريس إلا صورة طبق الأصل للجيش الفرنسي لأن أمثاله كانوا بالألاف. وعند ما فشلت الأساليب القمعية والحرب الإبادية في اخماد الثورة والتأثير على نفسية الجزائريين لجأ الاستعمار الفرنسي إلى إغراء الشعب الجزائري بإصلاحات اقتصادية واجتماعية لعلها تبعده عن مساندة المجاهدين، وهذا ما بادر به الحاكم العام للجزائر سوستال في محاولته الاصلاحية في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية، وتدعيما لهذا المنهج ألقى رئيس الجمهورية الفرنسية الجنرال ديغول عام 1958 م خطابا بمدينة قسنطينة وعد فيه باصلاحات شاملة تتمثل في بناء 200000 مسكناً، وتوفير 400000 منصب شغل، وفتح المدارس لاستيعاب أكبر عدد من الأطفال الجزائريين، ورفع أجور العمال وأنفق على هذا المشروع أزيد من 2000 مليار فرنك فرنسي لاسترجاع السلم، والحقيقة أن سياسة الاصلاحات ما هي إلا حل سلمي للمشكل باطنه اجهاض الثورة، وعندما لم ينجح ديغول في هذا المسلك بادر إلى المناورات السياسية سلم الشجعان وتقرير المصير .

ردود الفعل الداخلية
و الخارجية حول ثورة نوفمبر

بمجرد اندلاع ثورة نوفمبر استولى الهلع و الفزع على أوروبي الجزائر واعتبروه زلزالاً يهدد كيانهم ومصيرهم في هذا البلد و طلبوا الحماية من الجيش وحمل السلاح وقمع ثورة نوفمبر، وقد شرعوا فعلا في إعداد الميليشيات وشراء الأسلحة، وهذا رد فعل طبيعي ومتوقع لأنَ المعمرين الأوروبيين منذ الوهلة الأولى لاحتلال الجزائر كانوا أكثر عداوة للشعب الجزائري. من الحكومات الفرنسية التي تعاقبت على الجزائر، وخاصة منهم الاقطاعيون وبقوا على موقفهم هذا إلى يوم الاستقلال، ماعدا القليل جدا منهم يحسبون على عدد الأصابع لا يتجاوزون عشرة أشخاص منهم من دفع حياته ثمن مساندته الفكرية العلنية لثورة الجزائر، وهم أودان Audin و ايفتون Yveton . أمَا اليهود رغم جذورهم العميقة في تاريخ الجزائر و رغم الضمانات التي منحتها للأوروبيين واياهم جبهة التحرير، إلا أنهم وقفوا مع الجهاز الاستعماري و ليس هذا فقط، بل تدخلت حتى الدولة الصهيونية في شؤون الجزائر بإرسالها لحوالي مائتي شخص من مواطنيها لتدريب و تدعيم المنظمة العسكرية السرية O.A.S في عمليتها الإرهابية المعرقلة لاستقلال الجزائر. لأن الدولة اليهودية كانت ترى في استقلال الجزائر تدعيماً جديداً للشعب الفلسطيني في كفاحه المسلح ضدها.

ووقفت كلَ الطبقة السياسية الأوروبية بالجزائر من رؤساء البلديات إلى الحاكم العام موقف عدائياً من ثورة نوفمبر. ودون البحث عن دوافعها وبواعثها وإيجاد الحلول لها، لجأت إلى البحث عن أسبابها في الخارج فطلب الأوروبيون بخنقها ثم خنقها، واعتبروا محركيها عبارة عن عصابات إرهابية ولقبوهم بالفلاقة المتعصبين الضالين وهي تريد دمج القضية الجزائرية مع الملف المغربي و التونسي لعرضه على هيئة الأمم المتحدة. والشعب الجزائري ليس معني بهذه العمليات الاجرامية، وأنَ جميع التدابير الصارمة ستتخذ ضد مرتكبيها، وألصقوا تهمة تحريكها في البداية بمصالي الحاج، واتهموا مصر والدول الشيوعية بتحريضها. أما الحركة والخونة من الجنس الجزائري أصحاب الامتيازات أمثال القياد والباشاغات فقد أغرقوا الحكومات الفرنسية ببرقيات الولاء المتعاطفة والمساندة لهم، واستنكروا ونددوا بهذا العمل الارهابي مطالبين بقمع مرتكبيها، ويحتجون ضد

أي فكرة ترمي إلى فصل الجزائر عن فرنسا، وهذا تصريح النائب الدكتور المعروف ابن جلول مناصر الاندماجية مخاطبا السلطات الفرنسية في البرلمان "أرجو أن لا يلحق القمع إلا بالمجرمين، ثم لابد من تحقيق الاندماج تماما وفورا لتصبح الجزائر فرنسية حقيقة و عمليا".

أما رجال الدين المسيحي في الجزائر مثلهم مثل المواطنين الأوروبيين وقف أغلبيتهم إلى جانب الحكومة الفرنسية وطلبوا بقمع الثورة، وأرجع رجال الكنيسة وعلى رأسهم الكاردينال دوفال Duval السبب إلى الوضع المأسوي الذي يعيشه الشعب الجزائري، ومع ذلك يعترفون بأن فرنسا بذلت جهوداً في تحسين مستواهم المعيشي. إلا أنه يجب هنا الوقوف عند الموقف الشجاع المشرف لأب جوبيك كرلان L'abbé Jobic Kerlan و الذي تعرف عن مأساة الشعب الجزائري بوجوده في الجزائر و اتصاله بصديقه المناضل الشهيد باجي مختار الذي تأثر به، فأبعد من سوق أهراس سنة 1956 م لمواقفه المساندة للثورة الجزائرية والذي كلفته فيما بعد توقيفه و وضعه في السجن.

أما الصحافة الأوروبية اليمينية الصادرة في الجزائر أمثال la Dépêche Algérienne و Journal d'Alger وécho d'Alger الخ، فأجمعت بصوت واحد على وجوب خنق هذا التمرد ومحاربته بكلَ الوسائل، وطلبت الصحف اليسارية الناطقة باسم الحزب الشيوعي الجزائري و المعروفة بتلاعبها بالألفاظ أمثال الجزائر جمهورية Alger républicain بالخبز والعمل لحل مشكل الثورة، وكأنما الشعب الجزائري ليس لديه كرامة ولا شخصية، ونفس التصريحات صدرت بالصحف الفرنسية اليمينية واليسارية ماعدا أنها ركزت مثل الطبقة السياسية الفرنسية على التحريض الخارجي من المعسكر الشيوعي و بالأخص مصر.

أما المثقفون الفرنسيون فمنهم من وقف ضد ثورة نوفمبر و منهم من كان له موقف معتدل، ماعدا الفيلسوف المشهور جان بول سرتار الذي أيد الكفاح التحريري للشعب الجزائري من بدايته إلى نهايته.

أما الشعب الفرنسي فلم يولي اهتماماً بثورة نوفمبر عند انطلاقها لأن معركة كانت بعيدة عنه، ولم يأخذها بجد إلا عند استدعاء الجنود الاحتياطيين وتمديد مدة الخدمة العسكرية إلى سبعة وعشرين شهراً، وقد تسبب قرار استدعاء الشبان الإحتياطيين في عدة مظاهرات قاموا بها ضد استخدامهم في حرب الجزائر، كما حدث يوم 5 سبتمبر 1955 م في محطة مونبارنس و يوم 11 في محطة ليون

بباريس. و قد تطور موقفهم بمرور السنين، ففي البداية كان نصف الشعب الفرنسي يؤيد الجزائر فرنسية و القليل منهم من طالب بالحكم الذاتي والاندماج وهذا حسب صبر الأراء الذي قامت به الصحف الفرنسية، ثم تطور ابتداءً من سنتي 1957 و 1958 م لما شعروا أنَ حرب الجزائر حقيقية، فأيد أغلبيتهم استقلال الجزائر و الدخول في مفاوضات مع جبهة التحرير الوطني، ولمعرفة موقف الفرنسيين من قضية الجزائر نظم الجنرال ديغول يوم 8 جانفي 1961 م استفتاءً صوت فيه الشعب الفرنسي بنسبة 75,26 % لصالح تقرير مصير الشعب الجزائري.

وعلى الصعيد العالمي بذلت حكومة كلَ من مندس فرانس وغي مولي مجهودات كبيرة لتحسيس الدول الغربية والولايات المتحدة للوقوف إلى جانبها في حربها ضد الجزائر، وخوفت أمريكا من المد الشيوعي الذي سيلحق بها إنْ نالت استقلالها، فوقفت كلَ من انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية إلى جانبها ودعمتها سياسيا في هيئة الأمم المتحدة وعسكريا بمدها أسلحة الحلف الأطلسي، وهذا ما صرح به سفير الولايات المتحدة للصحافة في باريس "أمريكا تؤيد تأييدا مطلقا السياسة الفرنسية في شمال افريقيا". وهنا تجدر الاشارة للموقف المشرف الذي أبداه عضو مجلس الشيوخ الأمريكي والذي أصبح فيما بعد سنة 1961 م رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ألا وهو جون كنيدي في محاضرته التي ألقها يوم 2 جويلية 1957 م المساندة لحركات التحرر العالمية في آسيا وإفريقيا والتي عالج فيها بالأخص ثورة الجزائر وفضح سياسةِ فرنسا الاستعمارية، وقال لماذا لا تدافع أمريكا عن الحرية في افريقيا وآسيا ؟ فاعتبرت الحكومة الجمهورية الأمريكية هذه المحاضرة بمثابة تشجيع للثوار الجزائريين لأنها كانت ترى أنَ القضية الجزائرية مشكل داخلي لفرنسا بينما كان رد الفعل الفرنسي شديد اللهجة اتجاه كنيدي.

أما الاتحاد السوفياتي فصرح خوربتشوف "أنَ الاتحاد السوفياتي لا يتدخل في الشؤون الداخلية لدول أخرى، وأنَ الحل السليم لهذه القضية يمكن أن يوجد بأن تؤخذ بالإعتبار الحقوق المشروعة و المصالح الوطنية لشعوب الاتحاد الفرنسي". أمَا المعسكر الشيوعي باستثناء الصين و يوغوسلافيا التي وقفت في السنين الأولى مع الثورة الجزائرية، فإنَ معظم الأنظمة الشيوعية الأخرى لم تعترف بثورة نوفمبر إلا ابتداءً من الستينيات أي بعد أن أصبح النصر مؤكدا1.

كما هددت فرنسا لكلَ من تسول له نفسه من الدول الأجنبية التدخل في شؤون الجزائر باعتبارها جزءا لا يتجزء منها، وقامت بضغوطات ديبلوماسية على الدول العربية و تهديد اذاعة صوت العرب بالقاهرة، وهذا ما جعل جامعة الدول

العربية عند انطلاق ثورة نوفمبر تتذبب و تتردد في مساندتها لقضية الجزائر، ورغم هذه التهديدات إلا أنَ هنالك بعض الشخصيات السياسية العربية ساندت الثورة التحريرية منذ انطلاق أول رصاصة وعلى رأسهم السوري أحمد الشقيري الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية، كما طلب النواب السوريون من حكومة بلدهم بمقاطعة فرنسا اقتصاديا وسياسيا، هذا دون أن ننسى الموقف المشرف للمملكة العربية السعودية التي طلبت من الجامعة العربية منذ الوهلة الأولى أي في يوم 13 ديسمبر 1954 م برفع قضية الجزائر على هيئة الأمم المتحدة، لكن جامعة الدول العربية التي كان يرأسها وزير خارجية لبنان ألفريد النقاش رفضت هذا الطلب، ولم تبد جامعة الدول العربية تأييدها المطلق للثورة الجزائرية إلا ابتداءً من اجتماعها المنعقد يوم 29 مارس عام 1956م والذي اتخذت فيه قراراً شجاعاً وبالاجماع جاء فيه ما يلي : "لقد قررت جامعة الدول العربية أن تؤيد تأييدا كاملا و بدون تحفظ الشعب الجزائري في كفاحه من أجل استرجاع الاستقلال، وستقدم جميع البلدان العربية الأعضاء مساندتها للشعب الجزائري الأعزل الضعيف بجميع الوسائل التي في امكانها لمواجهة حرب قاسية شنت عليها بدون أي مبرراً" وابتداء من هذا اليوم بدأت جميع الدول العربية تدعيم الجزائر سياسيا وماديا.

اتــفاقــيــات إيفــيان
و اســتــقــلال الجــزائر

لـم تتوصـل الحكومـة المؤقتـة الجزائريـة إلـى إبـرام اتفاقيـة إيفيـان إلا بعـد مفاوضات طويلة و شاقة، ويعود أول اتصال بين جبهة التحرير الوطني والحكومة الفرنسية إلى شهر أفريل 1956 م، لكن هذه المحادثات ألغيت لسبب اختطاف طائرة الخمسة الأعضاء في جبهة التحرير الوطني يوم 22أكتوبر 1956 م من طرف الطيران الفرنسـي، والتـي كـانت متوجهـة مـن المغـرب إلـى تونـس لحضـور مؤتمـر مغـاربي، وكانت تحمل بداخلها كل من السادة أحمد بن بلة ومحمد بوضياف وحسين آيت أحمد ومحمد خيضر ومصطفى لشرف، وكانت هذه المحادثات غير مجدية، لكن نضال الثوار الجزائريين والضغط الدولي أرغم الرئيس الفرنسي ديغول بـالاعتراف يوم 16 سبتمبر 1959م بمبـدأ تقريـر المصير الـذي رفضتـه جبهـة التحريـر جملـة وتفصيلا، لما كـان يحتويـه مـن خطـر علـى السيادة الوطنيـة. واسـتجابة لتصريـح ديغـول يـوم 14 جـوان 1960م أرسـلت الحكومـة المؤقتـة الجزائريـة يـوم 25 جـوان مندوبين عنها هما: أحمد بومنجل ومحمد الصديق بـن يحـي إلـى مدينـة مـولان بفرنسـا، غـير أن الحكومـة الفرنسـية لـم تتعـامل معـهم كمفـاوضين، فمنعتـهم مـن الاتصال بالصحافة و أحاطت محادثاتها معهما بالكتمان مما سبب في توقيفها من الجانب الجزائري يوم 29 جوان 1960م. لكن الاتصال بين الحكومة المؤقتة الجزائرية والحكومة الفرنسية لم ينقطع، حيث تمت عدة لقاءات سرية بين الطرفين في كل من لوسـارن يـوم 20 فيفـري 1961م وإيفـيان يـوم 20 مـاي 1961م، لكـن هـذه المحادثات باءت بالفشل لسبب اختلاف وجهات النظر بين الطرفين حاولت خلالها فرنسا ضرب الوحدة الوطنية، فمن الحكم الذاتي وتجزئة الجزائر عرقيا إلى طلب الهدنة وفصل الصحراء عن الشمال وإقحام الحركة الوطنية الجزائرية التي يتـزعمها مصالي الحاج في المفاوضات، بينما كان موقف الحكومـة المؤقتـة الجزائريـة ثابتـاً يستمد مبادئه من نداء أول نوفمبر وقرارات مؤتمر الصومام، وهو السيادة الكاملة و الوحدة الشعبية والترابية للجزائر بما فيها الصحراء، وجبهة التحريـر هـي الممثـل الوحيد وقضية وقف اطلاق النار. وخلال هذه الفترة و بالضبط يوم 22 أفريـل 1961 م بادر أنصار الجزائر فرنسية، وهم كل من الجنرالات شال وجوهر وسـالان وزيلير القيام بإنقلاب عسكري في الجزائر ضد حكم ديغول ظانين أنه سيمتد من بعد ذلك إلـى فرنسـا، ولكـن المحاولـة انتـهت بالفشـل. و فـي يـوم 9 أوت 1961 م

اجتمع مجلس الثورة بطرابلس (ليبيا) وأحدث تعديلا طفيفا على الحكومة، حيث عين السيد يوسف بن خدة رئيسا للحكومة المؤقتة خلفا لفرحات عباس، ثم أستأنفت بعد ذلك المفاوضات من جديد بين الحكومة المؤقتة الجزائرية والفرنسية، والتقى المندوبان محمد الصديق بن يحي ورضا مالك بالوفد الفرنسي في مدينة بال (سويسرا) يومي 28 و 29 أكتوبر 1961م، ثم لقاء بال الثاني يوم 9 نوفمبر 1961م للوصول إلى اتفاق مبدئي في محادثات لي روس الذي انعقدت من 11 إلى 19 فيفري 1962 م بين الوفدين الجزائري الذي كان يرأسه كريم بلقاسم والفرنسي برئاسة جوكس، والذي تم فيه التطرق إلى كل النقاط الأساسية التالية : الاستقلال، وحدة التراب الوطني بما فيها الصحراء، وحدة الشعب الجزائري، مصير الفرنسيين المدنيين بالجزائر، طبيعة العلاقات بين الجزائر المستقلة وفرنسا، وعرضت حصيلة تلك الاتفاقية على المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي انعقد من 22 إلى 27 فيفري 1962 م بطرابلس، وبعد دراستها تم التصويت على مشروع الاتفاقية بالاجماع. والتقى الطرفان من جديد بايفيان (سويسرا) وبصفة رسمية افتتحت المفاوضات يوم 7 مارس 1962 م بين الوفد الجزائري الذي كان يرأسه كريم بلقاسم ومن الجانب الفرنسي لوي جوكس رئيس الوفد. وبعد مناقشات حادة استلزمت اثنى عشر يوما تم خلالها التطرق إلى المسائل المتعلقة بالتطبيق الفعلي لوقف اطلاق النار وتحضير عملية الاستفتاء وتشكيل هيئة تنفيذية مؤقتة برئاسة جزائري تتولى تسيير الشؤون العامة في الجزائر فيما بين توفيق اطلاق النار والاستقلال، وقع الطرفان على اتفاقية ايفيان يوم 18 مارس 1962 م وبتفويض من مجلس الثورة الجزائرية دخل وقف إطلاق النار حيز التنفيذ يوم 19 مارس 1962 م على الساعة الثانية عشر ظهرا في كامل التراب الوطني. و لافشال وقف إطلاق النار بين الحكومتين الجزائرية و الفرنسية قامت منظمة الجيش السري O.A.S و هي منظمة إرهابية مدنية تأسست في فيفري 1960م وجمعت في صفوفها الأوروبيين أنصار "الجزائر فرنسية" بتصعيد الأعمال الارهابية خاصة بعد الامضاء على اتفاقيات ايفيان، فأخرجوا مسدساتهم وقاموا باغتيال مئات الجزائريين من المناضلين والأبرياء رجالا ونساءا وكل من سولت له نفسه الخروج الى الشوارع للذهاب إلى عمله أو شراء حاجياته، ففي مدينة الجزائر أصبح سكان القصبة محصارين في بيوتهم، هذا بالاضافة للانفجارات التي أصبحت لعبة أطفال بالنسبة لهم، وكانوا يقومون بهذه الأعمال بدون رقيب وبحرية مطلقة وبتواطؤ في بعض الأحيان مع رجال الشرطة والعساكر المعارضين لوقف اطلاق النار، ومن أبشع جرائمهم الارهابية تفجير سيارة ملغمة في ميناء الجزائر يوم 2 ماي 1962 م أدت

إلى مقتل 62 شخصا و 110 جريحا كلهم من الجزائريين. وفي يوم 7 جوان 1962 م أحرقوا مكتبة جامعة الجزائر و أتلفوا حوالي 600000 كتاب. كما تم اغتيال الكاتب الجزائري مولود فرعون على يدهم يوم 15 مارس 1962م أي قبل ثلاثة أيام من ابرام اتفاقيات ايفيان. وكان الغرض من هذه الأعمال استفزاز مناضلي جبهة التحرير للدخول معهم في مواجهة مسلحة تنقض من خلاله وقف إطلاق النار وتفتح الحرب من جديد بين الجيش الفرنسي والجزائري. ولكن يقظة جبهة التحرير كانت أقوى من دسانسهم. وبالرغم من ذلك فإن هذه الأعمال الإرهابية اقلقت الجانبين وخاصة جبهة التحرير التي أصبحت تشك في مصداقية هذه الاتفاقية. ولهذا السبب التقى وزير خارجية الحكومة المؤقتة السيد دحلب بنظيره الوزير الفرنسي جوكس يوم 11 ماي 1962 م بمدينة بروس (سويسرا) لدراسة الأوضاع المستجدة في الجزائر وتباحث الطرفان في مسائل إعادة النظام وتموين السكان المحاصرين بالأغذية والأدوية والتعاون المستقبلي بين الجزائر وفرنسا واتفق على أن يكون الاستفتاء في 1 جويلية. وباقتراب هذا اليوم أي في شهر جوان اتصلت منظمة الجيش السري بجبهة التحرير الوطني قصد توقيف العمليات الارهابية وبالفعل تم اتفاق بينهم يوم 17 جوان 1962م. ولكن الاشاعات والدعايات التي ألقتها هذه المنظمة O.A.S في صفوف الأوروبيين والتي مفادها أن الجزائريين سوف ينتقمون منهم بعد الاستقلال. أدخلت فيهم الرعب وارعمتهم على الرحيل إلى فرنسا، وهكذا خلصونا نهائيا من صراع مستقبلي بين طائفتين مختلفتين عرقيا وثقافيا ودينيا.

وفي يوم 1 جويلية 1962 تقدم الشعب الجزائري إلى صناديق الاقتراع. وبعد فرز الأصوات التي كانت نتيجتها كما يلي: 5.975.581 نعم للاستقلال مقابل 16.534 لا. أعلنت اللجنة التنفيذية المؤقتة المكلفة بالاستفتاء نتائج الاقتراع يوم 3 جويلية. فخرج الشعب الجزائري يتظاهر في الشوارع. وفي نفس هذا اليوم اعترفت فرنسا وبصفة رسمية باستقلال الجزائر. وتم تحديد يوم 5 جويلية 1962م كموعد رسمي لاعلان الاستقلال. وهكذا بعد مضي 132 سنة من الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر وبعد معركة شرسة دامت سبع سنوات عمت كل أرجاء الوطن حيث لا يكاد يخلو شبر أرض من دم شهيد. واستشهد خلالها أكثر من مليون شهيد نالت الجزائر استقلالها.

جزائر ما بعد الاستقلال
أو الحلم المصادر

في عام 1962 و مباشرة بعد 5 جويلية يوم الاستقلال عرفت جبهة التحرير الوطني أزمة حادة كادت أن تعصف بالجزائر في حرب مدمرة لا نتيجة منها، وتعود أصول هذه الأزمة إلى الاجتماع الذي عقده المجلس الوطني للثورة الجزائرية في طرابلس من 27 ماي الى 4 جوان 1962 م لدراسة الوضع الجزائري والتحضير لما بعد الاستقلال و المصادقة على ميثاق المؤتمر، وبينما كان الشعب يعاني ويلات منظمة الجيش السري، كان بعض القادة وعلى رأسهم بن بلة كما يذكر ذلك المرحوم المناضل سعد دحلب في كتابه "مهمة منجزة" يخطط من أجل الحكم المستقبلي بمساندة قائد الأركان هواري بومدين المعارض لاتفاقيات ايفيان وللحكومة المؤقتة الجزائرية، فقدم بن بلة رفقة خيضر قائمة أعضاء مكتبه السياسي لتحل محل الحكومة المؤقتة، فرفض كل من آيت أحمد ومحمد بوضياف طلب الانضمام اليه، وخلق هذا التصرف ضجة في أوساط المؤتمرين لأنه يعني ببساطة السلطة، مما أدى إلى خلق جو متعفن هيمنت عليه الصراعات أجبر رئيس الحكومة المؤقتة بن يوسف بن خدة و وزرائه مغادرة هذا المؤتمر قبل نهايته إلى مقرهم بتونس لتكملة مهمتهم بشأن اتفاقيات ايفيان. وباعلان يوم الاستقلال انقسمت جبهة التحرير ودخل الاخوة الأعداء في صراع حربي كل يساند الأخر، فبعض قادة الولايات الداخلية ساندوا بن بلة وانضموا إلى جيش الحدود بقيادة هواري بومدين رغم أن هذا الأخير كان قد عزل من قيادة هيئة أركان الجيش في يوم 30 جوان 1962 م، والبعض الأخر من قادة الولايات وقفوا إلى جانب الحكومة المؤقتة، ولما اشتد الصراع بينهم خرج الشعب في الشوارع ينادي بشعار "سبعة سنين بركات" ولو لا تدخل بعض المناضلين الحكماء والمجهودات التي بذلها يوسف بن خدة لتسوية الوضع بالتنازل على السلطة حقنا للدماء لكانت الجزائر تدخل في حرب أهلية دموية يصعب حلها، ومهما يكن فان جيش الحدود هو الذي فرض نفسه وكان الأقوى في هذا الصراع لما كان يملكه من أسلحة ثقيلة وحديثة.

وفي 7 أوت 1962م أصدرت الحكومة المؤقتة بيانا خولت بموجبه سلطاتها إلى المكتب السياسي المشكل من طرف بن بلة في انتظار اجتماع مجلس الثورة، فاستقر هذا الأخير بالجزائر العاصمة بفيلا جولي Villa Joly، وفي يوم 20 سبتمبر انتخب البرلمان الجزائري برئاسة فرحات عباس، وكون من بعدها بن بلة حكومته

وأنتخب يوم 29 سبتمبر 1962 م رئيسا للجمهورية الجزائرية في ظل الحزب الواحد والنظام الاشتراكي والحكم المطلق، وبادر إلى اقصاء معارضيه وقمعهم ولم ينج منه حتى حليفه خيضر، فألقى القبض على أيت أحمد ووضع فرحات عباس رئيس البرلمان تحت الإقامة الجبرية بأدرار، ومن المناضلين من بقي في صفوف حزب جبهة التحرير ومنهم من غادرها نهائيا ومنهم من أسس أحزاباً مستقلة مثل حزب جبهة القوى الاشتراكية برئاسة أيت أحمد. إلا أنه منع من الممارسة السياسية، وفي سنة 1964 قام العقيد شعباني قائد الولاية السادسة بتمرد بسيط كلفه الإعدام، وهكذا إلى أن قام نائبه وزير الدفاع هواري بومدين بانقلاب عسكري ضده يوم 19 جوان 1965 م سمي بالتصحيح الثوري. فحاصر مدينة الجزائر بالدبابات ولم يحدث شيئ يذكر ماعدا مظاهرات عنابة التي ذهب ضحيتها حوالي ثلاثين قتيل من المدنيين المؤيدين لبن بلة، ووضع هذا الأخير تحت الإقامة الجبرية مدة أربعة عشر سنة لم يتحرر منها الا بمجيئ الرئيس الشادلي بن جديد سنة 1979م، ونظرا للفترة القصيرة التي حكم فيها البلاد لا يمكن الحكم على سياسة بن بلة ايجابا أو سلبا ولو أن جذور الأزمة التي تعيشها الجزائر اليوم ترجع إلى بداية الاستقلال لأن الدولة الجزائرية اعتمدت في حكمها للبلاد على الشرعية التاريخية ولم تستمد شرعيتها من الشعب، وهذا ما سمح لبعض محترفي السياسة من الطفيليين والانتهازيين وخاصة بعد وفاة هواري بومدين من افراغ محتوى نداء أول نوفمبر. وبتولي هواري بومدين السلطة وضع حزب جبهة التحرير على الهامش وأسس مجلس ثورة، ولكن كان يسير البلاد بمفرده وبيد من فولاذ بدون برلمان ولا دستور مدة اثنى عشر سنة، واتبع سياسة التدرج في حكمه، ووجد في البداية صعوبة في تعامله مع الخارج لسبب عمليته الانقلابية سواء مع الدول الاشتراكية أو العربية وخاصة مصر لكن سرعان ما عادت الأوضاع إلى حالها بعد مشاركة الجيش الجزائري في حرب ستة أيام بين العرب واسرائيل عام 1967 م والتي كانت نتيجتها احتلال الجولان وسيناء من طرف اليهود، وفي نفس هذه السنة وبالضبط في شهر ديسمبر 1967 م قام العقيد الطاهر الزبيري بمحاولة انقلابية فاشلة تمكن بومدين من اخمادها في المهد، وفي عام 1967 م نظم هواري بومدين انتخابات المجالس البلدية، وفي عام 1969 م المجالس الشعبية الولائية ثم الميثاق الوطني سنة 1976 م وهو عبارة عن برنامج سياسي دار نقاش شعبي كبير حوله و تم التصويت لصالحة، وسنة من بعده عام 1977 م تم انتخاب المجلس الشعبي الوطني، وابتداءً من السبعينيات شرع في تحقيق مشروعاته الكبرى الثورة الزراعية، وألف قرية نموذجية، والصناعة المصنعة والتسيير الاشتراكي للمؤسسات.

وديمقراطية التعليم. والطب المجاني، والسد الأخضر. لايقاف تصحر الأراضي الفلاحية وتأميم المحروقات يوم 24 فيفري 1974م. وبذل مجهودات كبيرة لمحاربة الأمية ببناء المدارس والجامعات. وكل هذه الأعمال تسير وفقا للمخططات المبرمجة في إطار النظام الاشتراكي. وباختصار أصبحت الجزائر ورشة كبيرة حققت خلالها مكتسبات هامة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في كنف الجد. والعدل والمساواة. هذا في الجانب الداخلي أما على الصعيد الخارجي فلعبت الجزائر دوراً كبيراً على المستوى الجهوي والعالمي أكسبتها سمعة عالمية كبيرة بوقوفها إلى جانب الدول المستضعفة ودفاعها المستميت على دول العالم الثالث في مختلف المحافل الدولية. حتى اصبحت تستشار من طرف بعض رؤساء هذه الدول. وفي هذا الصدد طلب الرئيس هواري بومدين من منصة الأمم المتحدة سنة 1974م بنظام اقتصادي دولي جديد يكون أكثر عدلا. وبالطبع في مصلحة دول العالم الثالث. وكمكافأة لهذه المجهودات احتضنت الجزائر سنة 1973م مؤتمر دول عدم الانحياز وتمكنت خلاله من تسوية النزاع بين العراق وايران. كما وقف إلى جانب الدول العربية في حربها ضد اسرائيل في أكتوبر 1973م وأمدهم بالجيش والسلاح، وعلى العموم كانت ميزانية بومدين خلال حكمه ايجابية. ماعدا بعض الأخطاء التي حدثت في تطبيق سياسة الثورة الزراعية والخطأ الكبير الذي ارتكبه هو عدم تعيينه لخليفة من بعده، وبوفاته يوم الأربعاء 27 ديسمبر 1978 م إثر مرض فقدت الجزائر أحد الرجال الكبار صعب تعويضه خدم الجزائر بنزاهة وجد واخلاص، وذلك ما أثبته السنين بعد موته. وفي سنة 1979م أختير الشاذلي بن جديد من طرف الجيش كرئيس للجمهورية فزكاه حزب جبهة التحرير الوطني. وعوض أن يسير في الاتجاه الصحيح الذي سلكه بومدين بادر إلى محو سياسته، وماعدا الغاء رخصة الخروج إلى الخارج وتحسين الطرق و بناء الجسور لم تعرف الجزائر أي تقدم بل بالعكس تراجعت الى الوراء. ففقدت سمعتها العالمية واعتمدت على الريع البترولي وما نتج عنه من تبذير للأموال وخلق أزمات مفتعلة (الطماطم والزيت والقهوة) وسياسة المحسوبية وبن عميس في توزيع الريع والسكن وتولي المسؤوليات وتهميش الإطارات الجامعية النزيهة طبقا للمادة 120 لحزب جبهة التحرير التي تنص "على أن لا يتولى الوظائف العليا في القطاع العام، إلا الأعضاء المنخرطون في الحزب". واسكات الشعب بالبنان والجبن والعملة الصعبة. بينما وجدت الرشوة ظالتها في هذا الجو المتعفن الذي سمح للعديد من الانتهازيين الاغتناء على حساب الدولة والشعب، وكانت هذه التصرفات السلبية السبب الرئيسي والمباشر في انتفاضة 5 أكتوبر 1988م، والتي ذهب ضحيتها حسب

التصريحات الرسمية 169 قتيلا في كامل التراب الوطني منهم 56 في الجزائر العاصمة، وفي هذه المرحلة لم يكن الشاذلي لوحده المسؤول بل حتى حزب جبهة التحرير الذي أصبح في عهده حر التصرف وبيده زمام البلاد. وأدت هذه الأحداث الأليمة إلى مصادقة الشعب على الدستور الجديد لعام 1989م والذي أعفي بموجبه الجيش الوطني الشعبي من صفوف حزب جبهة التحرير الوطني. وفتح باب الديمقراطية على مصراعيه للصحافة المكتوبة والجمعيات والتعددية النقابية والحزبية في ظل حرية عرجاء لا تسمن ولا تغني من جوع. وفتح مهرجان الركض وراء المناصب و الامتيازات. وللأسف بعض الذين كانوا ينتقدون بالأمس جبهة التحرير و يدعون المعارضة أصبحوا انتهازيين أكثر مما كانت عليه. وباستقالة الشاذلي أو اقالته خرجت الجزائر من عشرية سوداء كما يسميها البعض لتدخل عشرية حمراء لم ينج منها حتى الرئيس محمد بوضياف الذي اغتيل غدرا بمدينة عنابة مع أنه لم يكن مسؤول عن الأزمة لا من قريب و لا من بعيد. هذا بالاضافة الى مقتل أكثر من مائة ألف جزائري جراء الارهاب الأعمى. ومن السابق لأوانه التحدث عن هذه الفترة و لو أن أسبابها ومسببتها وحقيقتها ساطعة مثل الشمس.

المصادر باللغة العربية

- محمد سحنوني : ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة 1999م.

- محمد الصغير غانم : التوسع الفنيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب 1992م.

- مادلين هورس ميادان، ترجمة ابراهيم بالش : تاريخ قرطاج، منشورات عويدات، بيروت، باريس 1881م.

- الدكتور محمد البشير الشنيتي : سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982م.

- محمد الهادي حارش : التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ الى الفتح الاسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة 1995م.

- الدكتور محمد البشير شنيتي : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984م.

- هشام الصفدي : تاريخ الرومان، دار الفكر الحديث.

- حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، طبعة ثالثة تونس دار الكتاب العربية الشرقية .

- الدكتور يحي بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1999م.

- الدكتور عبد الله الشريط و محمد مبارك الميلي : مختصر تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1985م.

- عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر و ديوان المبتداء والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت 1959م.

- عيسى شنوف : يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود، دار المعرفة 2000 م.

- الدكتور بشار قويدر : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي، منشورات دحلب 1993م.

- الدكتور عبد الحميد حاجيات : تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدار والعقيان للمؤلف عبد الله التنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984م.

- حودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- بحاز ابراهيم : عبد الرحمن بن رستم، المؤسسة الوطنية للكتاب 1990م.

- الدكتور مرمول محمد الصالح : السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية 1983م.

- الدكتور الحبيب الجنحاني : دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت.

- أبو زيد الهلالي : سيرة بني هلال، موفم للنشر 1988م.

- محمد بن عبد الله بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار تقديم محمد السويدي، موفم للنشر 1989م.

- رشيد بورويبة : الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية - المركز الوطني للدراسات التاريخية 1977م.

- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1945م.

- صالح بن قربة : عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، المؤسسة الوطنية للكتاب 1991م.

- روجي لي تورتو، ترجمة أمين الطيبي : حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، الدار العربية للكتاب.

- محمود بوعياد : نظم الدار والعقيان في بيان شرف بني زيان، تأليف محمد بن عبد الله التنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية 1985م.

- عبد الحميد حاجيات : أبو حمو موسى الزياني حياته و آثاره، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1982 م.

- محمود بوعياد : جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982 م.

- مبارك بن محمد الهلالي الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية.

- عبد الرحمن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام. الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية 1995م.

- أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830 - 1855م، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989م.

- جمال قنان : نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 - 1830م، المؤسسة الجزائرية للطباعة.

- الدكتور ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984م.

- عبد الحميد زوزو : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830 - 1900م. المؤسسة الوطنية للكتاب.

- حمدان بن عثمان خوجة : المرآة، ترجمة العربي الزبيري 1974م.

- محمد الطاهر وعلي : التعليم التبشيري في الجزائر، دار النشر دحلب 1996م.

- كاتب ياسين : الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر ترجمة محمد هناد، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- العربي اسماعيل: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر.

- محمد العربي الزبيري : الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر.

- الدكتور يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث 1980م.

- محمد العربي الزبيري . مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الشركة الوطنية للنشر.

- الطاهر أوصديق : ثورة 1871 ترجمة جباب مسعود المؤسسة الوطنية للكتاب 1989م.

- صالح عوض : معركة الاسلام و الصليبية في الجزائر، دار الزيتونة للاعلام والنشر 1989م.

- محمود قاسم : الامام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف القاهرة.

- محمود قاسم : الامام عبد الحميد بن باديس، دار المعارف القاهرة.

- أنيسة بركات درار نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- بسام العسلي : الصراع السياسي على نهج الثورة الجزائرية، دار النفائس بيروت.

- بسام العسلي : المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي، دار النفائس بيروت.

- مصطفى لشرف : الجزائر الأمة والمجتمع ترجمة إلى اللغة العربية حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- الدكتور محمد العربي الزبيري : الثورة الجزائرية في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984 م.

- زبير سيف الاسلام : صفحات من الصراع الجزائري الفرنسي، المؤسسة الجزائرية للطباعة 1988م.

- خالد نزار : مذكرات اللواء خالد نزار، منشورات الخبر 1999م.

- مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، النصف الأول من سنة 1986م.

- مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، النصف الثاني من السنة 1985م.

- مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، العدد التاسع السنة 1995م.

- مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، العدد العاشر السنة 1997م.

المراجع باللغة الفرنسية

- Gaid Mouloud , les berbéres dans l'histoire, de la préhistoire à la Kahina, édition Mimouni 1990.

- Mohamed Chérif Salhi, le message de Youghourta, En-nahda 1992.

- Jean Servier, les berbères, que sais-je, édition Dahlab.

- Chems eddine Chitour, l'Algérie le passé revisité, Casbah édition 1998.

- Mahfoud Kaddache, l'Algérie dans l'antiquité, Enal 1992.

- Gaid Mouloud, les berbères dans l'histoire, de la Kahina à l'occupation turque, édition Mimouni 1995.

- Mahieddine Djender, introduction à l'histoire de l'Algérie, ENAL 1991.

- Pierre Cuperly, introduction à l'étude de l'ibadisme et sa théologie, O.P.U 1990.

- Gaid Mouloud, l'Algérie sous les turques, édition Mimouni 1991.

- Mahfoud Kaddache, l'Algérie durant la période ottomane, édition O.P.U 1992.

- Corinne Chevallier, les trentes premières années de l'état d'Alger. 0PU 1986.

- Amar Dhina, hommes d'état hommes de guerre, ENAL 1992.

- H. dé Grammont, histoire d'alger sous la domination turque, édition leroux, paris 1987.

- Benjamin Stora, histoire de l'Algérie coloniale 1830- 1954, édition ENAL - RAHMA 1996.

- Yvonne Turin, affrontement culturels dans l'Algérie coloniale, école, médecine, religions 1830

- 1880, ENAL 1983.

- Mahfoud Kaddache , Djilali Sarri, l'Algérie dans l'histoire, édition OPU 1989.

- Ch. Robert Ageron, histoire de l'Algerie contemporaine, que sais-je, édition DAHLAB.

- Charles Henry Churchill, la vie d'abdelkader, édition ENAL 1991.

- Mahfoud Kaddache, Mohamed Guenaneche, l'etoile nord - africain 1926 - 1937, OPU 1994.

- Olivier Long, le dossier secret des accords d'evian, OPU 1989.

- Benyoucef Benkhedda, les accords d'évian, OPU 1999.

- Benyoucef Benkhedda, les origines du 1er novembre 1954, édition DAHLAB 1989.

- Saad Dahlab, mission accomplie, édition DAHLAB.

- Mahfoud Kaddache, l'Algérie des algériens, édition rocher noir 1998.

- A.P.S, éclats de novembre des hommes dans la révolution, ENAP éditions 1987.

- Hacène Ouandjeli, flash sur la révolution, ENAL 1984.

- Mahfoud Kaddache, histoire du nationalisme algérien, édition SNED 1980.

- Jean-Luc Einaudi, la bataille de paris, Média plus.

Général Paul Aussaresses. services spéciaux. Algérie 1955 - 1957. mon témoignage sur la torture. édition Perrin.

- Yahia Rahal. histoire du pouvoir. un général témoigne. Casbah édition 1997.

الـفـهـرس

الموضوع | **الصفحة**